مقال في الإنسان والتوحيد

الدكتور السيد أحمد فرج

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد :

فهذا كتاب (مقال فى الإنسان والتوحيد) عرفت به بالإنسان والكلام فيه ، وعبوديته لله عز وجل . بينت فيه كيف أن الإنسان مقصود الخالق جل شأنه إلى خلافة الأرض وعمارتها ، وحمل الأمانة ، حتى يبلغ الإنسان كماله الدنيوى والأخروى .

هذا وكان لابد أن أذكر بعض مقالات العلماء – منذ القدم – فى الإنسان والتعريف به بقدر ما توصل إليه علمى . مع أن كلامهم فيه دار فى أغلبه حول صفاته المادية ، وهو ما لا يوافق كلام القرآن فيه ، وفهم علماء الإسلام – أمثال الماوردى ، وابن حزم ، والراغب الأصفهانى ، والغزالى ، وابن تيمية ، وابن القيم وغيرهم – الذين جاء كلامهم فى الإنسان والتعريف به – فى ضوء فهمهم لآيات القرآن الكريم ونصوص السنة الشريفة .

هذا ولما كانت قضية خلق الإنسان من أهم القضايا التى طرحت من قبل الباحثين من الطبيعيين الذين بحثوا فى خلق الحياة على الأرض ، وفى خلق الإنسان عليها – وهى فى مزاعمهم – تضاد الحقيقة التى بينها القرآن ، ولما كانت تصوراتهم – فى مزاعمهم – لا يقبلها العقل السليم ، دون أن يتداعى إليه الشك ، بل النقض ، فقد بينت قصة الخلق كما وردت فى كتاب الله . ذلك لأن الله هو الخالق الذى انفرد بالخلق . قال تعالى : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموٰات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً** ﴾[1] .

لقد تحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان ، وبيّن القاعدة الجليلة التى عليها الخلق من الناحية الروحية والمادية معاً ، ولكل ما لا يقدر عليه إلا البارئ المصور سبحانه

---

(١) الكهف : ٥١ .

وتعالى ، الذى كرم الإنسان بهذا الخلق ، تكريم دوام لبنى آدم منذ خلق آدم إلى يوم الدين ، مع بيان أطوار الخلق ، وبيان كيف أن الأصل الطينى للإنسان لم يحل دون كرامته ، لقد خلق الله الإنسان من الطين ، وأودعه عجائب سره ، وبث فيه تعالى من روحه فوصله بالكرامة على كل خلقه . فكانت العبرة بالوصل لا بالأصل ، فالوصل قربة لله ، وإن كان الأصل تربة من تراب الأرض .

إن هذا الوصل جعل الإنسان بفطرته ميالاً إلى التدين ، مشدوداً بقوة من داخله تصله بخالقه ، بسبب استعداد أصيل فى طبيعة خلقه ، وهذا الميل الفطرى إلى عبادة الله الواحد ، هو الذى يعطى المتدين الحس الذى يلتمس به حقيقة الذات العليا المبدعة لهذا الكون ، وهو يستمد منها العون كلما حزبه أمر ، ثم وهى تقوده إلى صنع عظائم الأعمال .

ومع أن الإنسان يستجيب بفطرته لنداء الله ، فإن بعض البشر فى أجيال متعاقبة بغوا فأشركوا مع الله ، وجعلوا له أنداداً ، فأرسل الله تعالى الأنبياء والرسل ليصححوا للبشر مسيرتهم الإيمانية ، وهذا يهدم القول الذى يزعم أن البشر بدأوا تاريخهم الدينى بتعدد الآلهة ، ثم مالوا إلى التوحيد فى النهاية ، وهذا باطل ، والحق أن الله خلق الإنسان على دين التوحيد ، وعلى حب الله والإقرار له بالوحدانية والعبودية وحده بلا شريك له فى الملك والخلق ، وعلى تزكية النفس ، بما منحهم الله من نعمة الوحى الذى هو أشرف مقاصد المعرفة ، وبنعمة العقل الذى هو أعظم وسيلة لتحصيلها .

ولقد خلق الله الإنسان ليستخلفه فى الأرض ، وأعده لذلك بالعلم الضرورى ومصدره الوحى ، وبالعلم الاستدلالى ومصدره القلب والعقل ووارداتهما ، وفرض على المسلم العمل بهما جميعاً فى التعامل مع الكون ليحقق ما ينفعه فى مجاليه الروحى والمادى معاً . ذلك لأن الدين يروى جذور الإيمان الفطرى فى الإنسان ، ويربط فى الوقت نفسه بين إيمان الإنسان وواقعه ، وما يحتمه عليه من سلوك صحيح يحقق العمل النافع ، ويوصل تبادل النفع المطلق بين الإنسان وواقعه ، ودنياه وآخرته .

إن الدين فى جوهره يجمع بين الإيمان وحب الناس ، والعلم والعمل ، وتحقيق الذات والإبداع والأخذ بوسائل العلم المتمكنة من تحقيق الخير للناس فى عالم المحسوسات .

تلك هى مقاصد الدين العليا ، فإذا قطع الإنسان الوصل ما بين الدين والعلم ، والقيم الروحية ، والمعانى الأخلاقية التى تطهر النفس وتزكيها ، وكذا البحث والتجريب ، والتمكن من واردات القوة فى الأرض ، كالمال وحسن تدبيره ، والصناعة المتقدمة وحسن توجيهها ، والسياسة والعدل فيها ، يخسر الإنسان نفسه ويجهل الغاية من خلقه .

وإذا علمنا أن الإنسان مركب من أضداد متعادية ، وأنه يتوزع بمنازعه بين شكر الله ، والجنوح إلى المعصية ، فإن الغالب عليه الميل الفطرى إلى الإيمان والتدين – بحكم خلق الله للإنسان وتسويته ، وتركيب القوى المدركة فيه للخير والشر معاً ، على أكمل ما يكون التركيب ، وبهدايته هداية البيان ليختار ، فإن رجح طريق الخير أفلح ، وإن جنح إلى الشر خاب سعيه ونال الخسران المبين .

وإن المسلم الذى رجح الخير فيه مُقِرٌّ بالعبودية لله ، التى هى كمال العبادة والعلم والعمل ، والإيمان يقتضى حب الله وتوحيده ، وحسن المعاملة ، والخلق الحسن ، وحسن القصد إلى مقاصد الحياة الدنيا ، بذلك يتحقق الاستخلاف الذى هو منحة مقررة من الله للإنسان لِيَلِىَ بها الأرض ، بالتمكين فيها بمنهج الإسلام ، وعند ذلك يبدلنا الله سبحانه من خوفٍ أمناً ، ويجعل لنا السيادة فى الأرض .

هذا وبالله التوفيق

د . السيد أحمد فرج السويدى

ميت سويد فى صباح يوم الأحد ٢٥ من شوال ١٤١٠ هـ .
٢٠ من مايـــو ١٩٩٠ م .

الفصل الأول

ما الإنسان ؟!

ما الإنســان ؟!

يحسُن عند الكلام فى الإنسان والتوحيد أن يكون الكلام فيه من خلال فهم آيات القرآن الكريم التى تكلمت فى الإنسان ، وفى ضوئها يجب أن يلتزم المرء بالفهم القرآنى الصحيح لدور الإنسان – كما صوره القرآن – فى الحياة الدنيا التى هي جسر يعبره الإنسان إلى الحياة الآخرة ، ومن ثم فليس على الإنسان أن يكون عقلانياً خالصاً وهو يتكلم في الإنسان ، ذلك لأن العقل المحض لن يعطيه – وحده – منظومة المعلومات الصحيحة عن جوهر الإنسان ، وإذا أصر الإنسان أن يكون عقلانياً خالصاً فلن ينفعه ما بلغه من تقدم فى مجال واردات العقل ، كما لن ينفعه ما بلغه من تقدم علمى ، وتفوق فى كل مجالات العلوم والصناعة والاقتصاد ، وكافة الدراسات الإنسانية ، لكى يصل إلى علم يقينى بحق الإنسان ، كذلك لن يفيده ما حققه من امتلاك وسائل التقنية ، بما أفاء الله عليه من منحة تفوّق العقل الإنسانى ومكتسباته ، وما تيسر له من قدرة على التصرف فى المادة الجامدة ، وغير الجامدة ، وتشكيلها وإنطاقها أو تحويلها إلى طاقة يسخرها لإرادته ، وللسيطرة على الأرض والفضاء الكونى .

ويخطئ الذين يعتقدون أن إنسان القرن العشرين ، الذى امتلك وسائل العلم ، هو المثال الذى ينشده القرآن الكريم للإنسان ، فإنسان القرن العشرين بهذا التصور ، لا يمثل إلا شقا واحدا من المثال القرآنى للإنسان[1] أى أنه – فقط – يمثل الجانب العملى فى الإنسان القرآنى : العالم المفكر ، الدؤوب المريد ، المعتز بعقله وإنجازاته فى هذا العصر .

وليعلم إنسان القرن العشرين هذا أن هذه المعطيات المادية كلها من الله ، فهو سبحانه وتعالى الذى هيأها للإنسان ، واختصه بها من دون خلقه ، وفى ذلك يقول ابن القيم رحمه الله : « فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه

(١) رأى عباس محمود العقاد أن إنسان القرن العشرين ، هو بعينه إنسان القرآن الكريم .
انظر العقاد : الإنسان فى القرآن ص ٩ كتاب الهلال ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م ، وهذا كلام لا يمكن التسليم به ، إلا بإقرار التوحيد لله ، وتسخير منح العقل ومكتسباته فى وجوه الخير لكل البشر .

بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق كل شيء له ، وخصه من معرفته ومحبته ، وقربه بما لم يعط أحداً غيره ، وسخر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته – الذين هم أهل قربه – استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ، ويقظته ، وظعنه وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسل إليه رسله ، وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء والخواص والأحبار ، وجعلهم موطن أسراره ، ومحل حكمته وموضع حبه ، وخلق لهم الجنة والنار ، فالخلق والأمر ، والثواب والعقاب مداره على النوع الإنسانى ، فإنه خلاصة الخلق ، وهو المقصود بالأمر والنهى وعليه الثواب والعقاب »[1] .

ولقد جعله عز شأنه قادراً مختاراً مريداً ، وكرمه سبحانه وتعالى . يقول عز من قائل : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾[2] بالتكليف الذى لا يختص به إلا عاقل عالم عامل ، ومن ثم فقد ألزمه عز شأنه بالتوحيد ، وفرض عليه الإقرار به ، وجعله غاية يسعى إليها ، فإن ألزم نفسه به – عن حب وإيمان وطواعية – صار جديراً بخلافة خالقه فى الأرض ، وإن جنح عنه ارتد إلى أسفل سافلين ، قال تعالى : ﴿ **والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾[3] .

يقول ابن القيم رحمه الله : « فالمؤمن من نوع الإنسان ، خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من العالمين ، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه ، وليتواتر إحسانه إليه ، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ، ولم يخطر على باله ولم يشعر به ، ليسأله عن المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة ، العاجلة والآجلة التى لا تنال إلا بمحبته ، ولا تنال محبته ، إلا بطاعته ، وإيثاره على ما سواه »[4] .

الإنسان من خلق الله ، وإلى الله يسعى ، وإليه جل شأنه يصير ، وما مواهبه وعطاياه الدنيوية إلا من لدن عزيز حميد ، فإن وفاها حقها ، فإنما حقق الغاية من

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين بين منازل ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ ١ / ٢٣٢ ، دار الحديث .

(٢) الإسراء : ٧٠ . (٣) التين : ١ – ٨ . (٤) نفسه : الصفحة نفسها .

خلقه : عبادة لله ، وعمارة لكونه ، وبها يكون له على الله حق ﴿ **أجر غير ممنون** ﴾ أن يدخله الجنة .

إن الذين شغلوا بالإنسان واهتموا بكينونته ، لم تكشف أبحاثهم إلا عن كونه كائناً حيوياً أما عناصره النفسية ، أو قواه المدركة ونحوها فلم يعرف عنها بعد إلا القليل . وهذه حقيقة أعجزت العلماء لدرجة أن العلماء المتخصصين فى علوم الإنسان لو كرسوا حياتهم لمعرفة كنه الإنسان كائنًا حيًا ـ معتمدين على العقل المحض ـ لأعجزهم معرفة ذلك .

وهب أن هؤلاء العلماء جميعاً استطاعوا التوصل إلى نتائج صحيحة عن مركبات جسم الإنسان العضوية فى جميع أطوار حياته ، ومع أن ذلك سيظل افتراضاً صعب المنال ، ذلك لأن الإنسان لا يمكن فهمه مادامت الدراسة ستظل مقصورة على الجانب الحيوانى فيه – فسيبقى اكتشاف الإنسان من هذه الوجهة مرهوناً باكتشاف أعقد ما فى الكون من مواد وتراكيب ، وصلتها ببعضها وبمبدعها جل شأنه ، وحتى لو توصلوا إلى نتائج مادية صحيحة – فى هذه الحالة – فستظل روح الإنسان سراً إلٰهياً خالصاً لله ؛ لأن التعامل الإنسانى فى الإنسان سيكون مع جثة بلا روح ، ومن ثم فإن العلماء الذين قاموا بتشريح جثة الإنسان لم يصلوا بعد إلا إلى بعض مكونات الإنسان ، وعناصره المتعلقة بالمادة كأى مادة ، من خلايا وأعضاء وأنسجة وغير ذلك .

ربما الذى ألجأ العلماء الطبيعيين إلى ذلك ، التذرع إلى إخضاع أفكار اجتماعية محددة لنتائج البحث (البيولوجى) فى الإنسان ، وحقيقة الأمر ـ كما يقول بعض علماء الأحياء البارزين –: « إن البيولوجيين الاجتماعيين يرتكبون خطأ التَّشَيُّؤ المعتاد حينما يأخذون مفاهيم خلقت لتنظيم الخبرة الاجتماعية البشرية ، وتعظيمها والحديث عنها ، ثم يضعون عليها حياة من عندهم لتصبح لها القدرة لأن تؤثر فى العالم وتتأثر به .

إن من الصعب أن نقرر تشريح كائن حى حتى نفسره بيولوجيا ، أفلا ينبغى أن نبذل مزيداً من الحرص بالنسبة للسلوك ، خصوصاً إذا كان سلوك كائن اجتماعى ؟ ومن المعروف أن بنية الذاكرة لا تماثل بنية المخ ، فالذكريات المعينة لا تختزن فى أجزاء معينة من قشرة المخ ، ولكنها تنتشر مكانيا على نحو ما ، ووظيفة الإدراك المتكاملة مازالت غامضة فى تنظيمها ، ومع هذا فإن البيولوجيين الاجتماعيين [لا يعوزهم افتعال

الذرائع] إلى تقسيم كل حضارة الإنسان إلى وحدات تطور متميزة »[1] .

إن العلماء الذين توقفوا عند تشريح جثة الإنسان الهامدة ، لم يقدموا – على سبيل المثال – بعد ، دراسة شافية حول عقل الإنسان ، فضلاً عن أنهم لم يلجوا حتى الآن مجال الروح ، بل لقد انتهوا إلى تجاهلها عمدا ؛ لأنها بزعمهم لا تقع فى مجال المحسوس .

لقد حاول (البيولوجيون) دراسة المخ مستعينين بأدوات التشريح المتطورة ، والمجاهر الضوئية والأليكترونية ، ثم قدموا لنا معلومات مثيرة عن عدد خلايا مخ الإنسان وقالوا فيما قالوا : « إنها تتراوح ما بين ١٠ – ١٤ ألف مليون خلية عصبية ، ولكن هذه الأعداد الهائلة من الخلايا لا تزال تشكل تحديا ضخماً لهم » .

« ورغم أن المخ هو مركز لعمليات معقدة وكثيرة ومتناقضة مثل : الجوع والشبع ، واللذة والألم ، والنوم واليقظة ، والهدوء والهياج .. إلخ ، ورغم أنه أمكن تحديد المناطق التى تتحكم فى مثل هذه الأحاسيس ، وأنه من اليسير التأثير عليها بمركبات كيماوية ، أو نبضات كهربائية ، وبحيث يمكن تثبيط عملية ما أو حثها، إلا أن أحداً لا يستطيع أن يميز بين خلايا المخ التى تقوم بهذه الوظائف التى تبدو متناقضة ، وهذا من شأنه أن يشكل تحدياً هائلاً للعلماء الماديين الذين ينادون بأن المخ ليس إلا آلة معقدة تستحق المزيد من الدراسة لفهم وظائفها المتناقضة ، ولكن العالم تايلور مؤلف كتاب التاريخ الطبيعى للعقل يشك فى إمكان التوصل إلى فهم هذا اللغز الكبير الكامن فى رؤوسنا »[2] .

إن الإنسان الذى يتعامل معه الاختصاصيون فى علوم الحيوان ، ليس هو الإنسان الحقيقى ، إنما هو رسم تخطيطى له ، فالجثة التى يقوم العلماء بتشريحها ، غير المشاعر التى كانت تمتلكها هذه الجثة ، التى تُراقب فى حالات النفس المتباينة فى التردد بين الحب والنفور ، والهدوء والهياج ، والتقوى والفجور ، وإن العلم لم يصل بعد إلى القدرة على إدماج حالات النفس الإنسانية ومشاعرها مع حالاتها المادية فى عمل

(١) استيفن روز وآخران : علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، عالم المعرفة ، رقم ١٤٨ ، الكويت رمضان ١٤١٠ هـ – إبريل ١٩٩٠ م .

(٢) جوردون راترى تايلور : التاريخ الطبيعى للعقل ، عرض وتعليق د . عبد المحسن صالح عن مجلة عالم الفكر م ١٢ العدد ٣ فى أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ١٩٨٢ م – ص ٣١٦ .

واحد ، أو إدراك واحد يدرك دفعة واحدة حالات الإنسان فى كل أحواله المادية والروحية جميعاً .

إن أحداً لا يبغى إغلاق باب معرفة حقيقية للإنسان ، ولا ينبغى له ، وإن كل ما يتمناه الإنسان العاقل أن يصل إلى حقيقة ذاته ، فيعرف الإنسان نفسه .

إن العلم يسير بخطى سريعة – ولكن فى مجال المادة – وهل استطاع العلماء اكتشاف كيف أن الأمشاج وسيلة ائتلاف لحفظ النوع الإنسانى ؟ وأنها أيضاً وسيلة اختلاف بين أفراد النوع ذاته ، لتحقيق التمايز بين أفراده ، وهل أدركوا أين يوجد العقل بالتحديد ، وهل هو فى الدماغ أم فى القلب ؟ وهل استطاعوا أن يلمسوا موضع العاطفة من القلب ؟ أو أن يقولوا : إن موضعها غير القلب .

إن كل ما توصلوا إليه من معرفة بالإنسان ، أنه مكون من أعضاء وأنه يتكلم ويحس ، ويحسن التصرف ، ولكن ما هى الأسرار والعلاقات التى تربط بين هذه الأشياء حتى صارت إنساناً يفكر ويتكلم ويريد ، ويحب ويكره ، وقبل كل ذلك يعتقد ، وإن ما يطلق عليه : الدراسات النفسية لا تزال تتخبط ، وعوالم النفسيين تتباعد ولا تتقارب ، وما عند بعضهم يخالف رؤى الآخرين منهم ، وعالم الإنسان الباطنى لا يزال مغلقا ، وربما ظل كذلك ما لم يقدموا ما يمكن به معرفة ما يحدث بداخل الإنسان من تسوية للنفس ، أو تشويه لها .

قال تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾[1] .

تقول الآيات الكريمة : إن الله خلق الإنسان من نطفة أمشاج ، وخلق فيها السمع والبصر ، فهما أهم أدوات الإدراك المادى ، المعين على الإرادة والعمل ، وهداه عز شأنه السبيل ، وجعل له القصد والإرادة والعزم ، فكان إما شاكراً لأنعم الله ، وإما كفوراً بها ، جحوداً لها ، وتلك أهم أدوات البصيرة الإنسانية .

* * *

---

(١) الإنسان : ١ – ٣ .

ولكن ما بال العلماء لا يكفون عن إطلاق التعريفات بالإنسان ، فابن خلدون يعرفه فيقول : « إن الإنسان حيوان اجتماعى يميل إلى العمران »[1] وهذا التعريف ليس قاطعاً مانعاً جامعاً ؛ لأن سباق التسليح ، وسباق تصنيع القنابل النووية والكيماوية ، واحتلال الأوطان ، وتعذيب الشعوب الضعيفة وتجويعها ، يؤكد سعى الإنسان المعاصر إلى التدمير ، وسفك الدماء ، لا للعمران فى كل الأحوال والأحيان .

إن ابن خلدون نفسه لو كان يعيش زماننا لحكم على هذا التعريف بنقيضه ، إلا أن يدرك إنسان هذا العصر أنه يسعى سعياً حثيثاً إلى حتفه ، فيبدل سعيه إلى العمران بسعيه نحو الدمار .

وبالمثل فلن يقبل وصف آخر للإنسان بأنه مفكر لمجرد أن أحدهم قال : « أنا أفكر إذن أنا موجود » أو لأنه أراد أن يقول : إنه لا يشعر بوجوده إلا لأنه يفكر ، وهذا التعريف لا يمكن أن ينفرد به الإنسان لاشتراك مخلوقات أخرى فى القدرة على التفكير .

ولقد عرف الجرجانى بالإنسان فقال : « الإنسان حيوان ماشٍ على قدمين عريض الأظفار ، مستقيم القامة ، ضحاك بالطبع »[2] أى أنه مكون من عناصر مادية بالرغم من أنه قال : إنه ضحاك بالطبع ؛ لأنه يمكن أن يكون بكاءً بالطبع أيضاً ، أو مفكراً بالطبع ، أو قادراً على الكلام بالطبع ، أو أنه مطبوع عليها جميعاً .

لقد حاول العلماء من قديم – ولم تنته محاولاتهم بعد – معرفة الخصائص التى تجعل الإنسان يختلف عن جميع الكائنات ، وهذا أمر طبيعى إذ إن الله سبحانه قد خلق المخلوقات وجعل كل نوع منها فريداً فى نوعه وخصائصه .

لقد حاول أحد علماء الأحياء المهتمين بحصر الخصائص المميزة للنوع الإنسانى ، أن يجعل التعريف بالإنسان مستنداً إلى معيار الروح ، ولكنه أقر بعجزه عن ذلك ، لتعذر ملاحظة تفاعلات الروح ، فغير التعريف مستنداً إلى معيار الحكمة والتعقل ، فلاحظ أن بعض الحيوانات تأتى بسلوك ينم عن أنه عقلانى ، فتحول إلى تعريفه

(١) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ص ٤١ ، الطبعة الثالثة ، المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٠ هـ .
(٢) الجرجانى : التعريفات – مادة إنسان – مطبعة مصطفى الحلبى ١٩٣٨ .

بالإنسان بأنه المخلوق الذى يستخدم الأدوات ، ولكن اكتشف أن أنواعاً من الحيوانات تستخدم الأدوات مثل ثعلب البحر الذى يعيش فى كاليفورنيا ، ويحمل حجرا تحت الماء يضرب به المحارات لينزعها من صخورها ويتغذى عليها[1] .

على أن مشاركة الإنسان المخلوقات الأخرى خصائصها دليل على تفرد نوعه ، فبينما هو قادر على التفكير والاكتساب والعمل ، فإن سلوك الحيوانات الأخرى يظل واحداً وآلياً ناتجاً عن ردود فعل مقدرة ومحددة وثابتة ، وملازمة لنوعه .

إن أحداً لم يعط التعريف الجامع المانع للإنسان ، وبهذه المناسبة فإن باحثاً مغربياً معاصراً ، شغل نفسه بالتعريف بالإنسان ، من خلال بحوث عدة طرحها تحت عناوين متعددة تدور كلها حول البحث عن تعريف بالإنسان مثل :

« الإنسان والتعبير » .
« الإنسان حيوان رامز » .
« الإنسان حيوان يتكلم » .
« وما الإنسان » .

وتحت هذه العناوين ملأ أبحاثه بالتعريفات ، ومما قاله فيها :

« الإنسان حيوان يتواصل بالطبع مع الآخرين ، والكائنات والعالم ؛ إنه حيوان مدفوع بالغريزة والتكوين العضوى إلى التعبير » .

أو « حيوان يعتمد على التفكير والإرادة والإشارة والكلمات » .
أو « حيوان يهتم بالدين والفن والعلم » .
أو « حيوان يستعمل الآلة » .
أو « الحيوان الذى يتكلم أى يصنع العالم بالألفاظ » .
و « الإنسان جسد وروح ولغة » .
و « الإنسان كائن حى يمشى دائماً إلى الإمام » .
و « الإنسان لغة أنا أتكلم إذن أنا أحيا » .

---

(١) انظر : بيتر فارب : بنو الإنسان ص ٦ ، ٧ ، سلسلة عالم المعرفة ، رقم ٦٧ ، رمضان ١٤٠٣ هـ - يوليو ١٩٨٣ م .

ولهذا الباحث الشغوف بتعريف الإنسان بحث بعنوان : ما الإنسان ؟ يقول فيه :

« إن الإنسان حيوان عاقل » .

« وحيوان ناطق » .

« وحيوان يلعب » .

« وحيوان يمشى على قدمين » .

« وحيوان يستخدم الرمز » .

« وحيوان يصنع آلات » .

« وحيوان مرتبط باللغة ويفكر » .

« ومرتبط بالتشخيص »(١) .

وقديماً قال بعض العلماء كلاماً أبلغ من هذا فى التعريف بالإنسان . قال الراغب الأصفهانى : « وإنما فضيلة (الإنسان) بالنطق ، وقواه ومقتضاه ، ولهذا قيل : ما الإنسان ؟ لولا اللسان لم يكن إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة ، فالإنسان يضارع الملك بقوة العلم والنطق والفهم ، ويضارع البهيمة بقوة الغذاء والنكاح »(٢) .

وفى العصر الحاضر قال مالك بن نبى أقرب تعريف بالإنسان فقال : « الإنسان حيوان دينى ، بشكل فطرى ، بسبب استعداد أصيل فى طبيعته »(٣) .

ومع « أن الإنسان وحده هو الذى ينفرد عن سائر الحيوانات بالسلوك الرمزى ، وبالقدرة على استعمال الرموز والتعامل عن طريقها ، فهو وحده الذى يتواصل مع غيره من الناس عن طريق اللغة والكلام المفصل ... ويصوغ القوانين ، ويراعى قواعد السلوك العامة وأصول اللياقة »(٤) وقبل كل ذلك التدين .

---

(١) انظر : أبحاث د . محمد عريز الجبابى فى دورتى مجمع اللغة العربية ٣٧ / ص ١٢٢، ١٢٥، ١٣١، ١٣٦، ١٣٨ ، ١٤٠ – و ٣٨ / ٦٨ ، ٧٩ . وانظر للباحث نفسه بحث : ما الإنسان ؟ ضمن مجموعة دراسات فلسفية ص ٢١٧ ، ٢٢٢ بإشراف د . إبراهيم بيومى مدكور ، القاهرة ١٩٧٤ م.

(٢) الراغب الأصفهانى : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٨٦ تحقيق د . أبو اليزيد العجمى ، نشر الصحوة ، والوفاء ١٩٨٥ م .

(٣) مالك بن نبى : الظاهرة القرآنية ص ٧٤ ترجمة د . عبد الصبور شاهين ، الطبعة الثالثة ١٩٦١ م .

(٤) د . أحمد أبو زيد : الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعى ، ص ٧ عالم الفكر الكويتية . م ١٦ ع ١٣ ديسمبر ١٩٨٥ م.

ومع أن الإنسان هو الفاعل للحضارة والثقافة ، وامتلاك ناصية العلوم ، وإنشاء المجتمعات بكل ما فيها من نظم سياسية واجتماعية واقتصادية ، وصنع الرموز التى تتميز بها الأشياء ، وكل ما هو إنسانى ، وكل ما هو غير إنسانى ، فستظل هذه التعريفات قاصرة عن التعريف الصحيح .

إن هذه النعوت تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات بلا أدنى شك . ولكن هل هى كافية للتعريف النهائى بالإنسان ؟ إن الذى يثير الدهشة أن أكثر الباحثين دأبا على طلب التعريف الصحيح ، اعترف فى آخر أبحاثه (ما الإنسان ؟) بأنه لم يصل إلى التعريف المرجو فقال : « إنه من العسير على الإنسان الإجابة عن سؤال : ما الإنسان ؟ ثم قال : إن المحاولات التى بذلت فى سبيلها غير نهائية »[1] .

إن الصفات التى أطلقت على الإنسان ووصف بها تدل عليه وعلى جوهره ، كما تدل سائر الصفات على أنواعها . وكما قال ابن تيمية رحمه الله : « إذا قدرنا عدم هذه الصفات التى هى لازمة للأنواع ، وذاتية لها لم يبق هناك ما يعقل كونه جوهراً ، فإذا نظرنا إلى هذا الإنسان ، وقدرنا أنه ليس بحى ، ولا ناطق ولا ضاحك ، ولا حساس ، ولا متحرك بالإرادة لم يعقل هنالك جوهر قائم بنفسه ... وإنما يمكننا تقدير هذا الشكل مع عدم كونه حيواناً ناطقاً ، لكن حينئذ يكون المقدر شكلاً مجرداً ، هو عرض من الأعراض »[2] لا جوهر من الجواهر ، وبذلك يكون ابن تيمية رحمه الله قد قرب تعريف الإنسان إلى الأفهام ، دون أن يجد حلاً للغز الكبير بطريقة حاسمة .

ولكن هل سيستطيع الإنسان يوما ما الإجابة عن هذا السؤال ؟ ما الإنسان ؟ مع استمرار التقدم العلمى المذهل الذى حققه فى هذا العصر ، وهل سيتمكن من أن يقوم بعمليات تشريحية تعينه على تغيير بعض الأعضاء فى جسم الإنسان ؟ وهل سيستطيع أن يؤثر عن طريقها فى تغيير أحوال الجنين أو يكتشف بها أسرار الروح ؟ أو يعدل بها الجبلة الإنسانية وغيرها ؟

وهل إذا فعل ذلك أيقدر عن طريقها على حل هذه الأسرار فيصل إلى تعريف

---

(١) د . محمد عزيز الحبابى : ما الإنسان ؟ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن تيمية : موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول ٤ / ١٤٥ ، ١٤٦ على هامش منهاج السنة ، المطبعة الأميرية ١٣٢٢ هـ .

صحيح بنفسه ؟ إن تحقق ذلك مستحيل ، إلا أن يحوز الإنسان قدرات يدرك بها أسرار الروح ، والمخ والمشاعر ، والميل الفطرى للدين ، وحب الخالق والإيمان به وتوحيده ، والتقوى وحب الخير وعمل البر ، أو الفجور وغير ذلك .

إن السبب فى عجز الإنسان عن حل لغز ذاته ، يرجع إلى محاولات التعامل مع الروح ، بالطريقة نفسها التى يعالج بها المادة الجامدة . أو العلوم البحتة ، أو المذاهب الفكرية ، والاقتصاد والتاريخ والسياسة ، والاجتماع ونحو ذلك . دونما اعتبار للحسابات الدقيقة للفروق بين ملاءمة الوسائل لعلاج الأشياء ، أو عدم ملاءمتها . والأمر كما يلخصه بعض العلماء أن « العقل الذى يبدو شديد المهارة فى معالجة المادة الجامدة ، يعلن عن قصوره الشديد بمجرد أن يعرض للأشياء الحية ، فإذا كان الأمر خاصاً بمعالجة حياة الجسم ، أو حياة العقل ، فإنه يسلك مسلك الصلابة والصرامة ، والعنف الذى تسلكه أداة لم تكن أعدت لمثل هذا الاستعمال »[1] .

ومع هذا فإن ذلك ليس المثال الصحيح الكامل ، الذى يبين عجز الإنسان عن إدراك كنه ذاته ، لقد أردنا فقط أن نبيّن أن المسألة بالغة التعقيد ، وأن الإنسان سيقف دائماً أمامها فى موقف العاجز المطلق ، إنها ليست من السهولة بحيث يكتفى بضرب الأمثال لتقريبها من الأذهان .

ولقد أثار عالم نفسى أمريكى معاصر دعوة تعليم التلاميذ الأمريكيين بطريقة مبتكرة ، بإعادة تنظيم المناهج الدراسية على نحو يفجر الطاقات الإبداعية العقلية لدى الدارسين فى مختلف مراحل الدراسة – هكذا يزعم – وهيأ له زعمه أن يذهب إلى أبعد من الفكرة التى يزعم بعض العلماء أنها تتحكم فى حركة التفكير فى الجسم ، وهى ما أطلقوا عليه جانبى الدماغ ، أو الدماع الأيسر ، والدماغ الأيمن من الجسم ، وهو المسئول عن التفكير التحليلى ، أما الجانب الأيمن من الدماغ والذى يتحكم فى الجانب الأيسر من الجسم ، فهو مصدر الحدس ، ولهذا فهو يرى أن الذكاء لا يمكن التنبؤ به أو تجريده ، إلا وفق التفكير الحدسى ، والتعبير الخلاق .

ولما كان هذا العالم يذهب إلى ما هو أبعد من فكرة جانبى الدماغ السابقة الذكر

---

(١) هنرى برجسون : التطور الخالق ، ص ١٩١ ترجمة محمود محمد قاسم – مراجعة نجيب يلدى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦٠ م .

فإنه « يصف الإنسان بأن له أكثر من عقل ، كل عقل هو خبير فى مجالات عديدة ، فهناك العقل الذى يهتم بالجانب الصحى ، وآخر هو الدليل العاطفى ، وهناك العقل الذى يفرز جانبا المعلومات غير الضرورية ، والعقل الذى يعقد الموازنات ، وهذه العقول المختلفة تعمل بطريقة اللاوعى »(1) .

ويرى هذا العالم أنه يجب أن نستند فى التعليم على الاعتراف بهذا التنوع العقلى بدءاً بمرحلة رياض الأطفال .

إن أحداً - ولا هذا العالم نفسه - يقدر أن يقول : إنه استطاع أن يحل اللغز الأزلى ، أو أنه فتح النوافذ التى كانت مغلقة أمام عقول العلماء ، وإن الدراسة التى قام بها لا تزيد عن كونها دراسة تضاف إلى الدراسات السابقة التى تجعل الغموض القليل - فى معرفة كنه الإنسان - غموضاً مركباً .

لقد تفوق الإنسان فى دراسة العلوم الطبيعية ؛ لأن عناصرها مادة جامدة لا تفكر ، ولأنها تسلم نفسها للإنسان فلا يخطئها ، أما الإنسان فإنه خاضع لطبيعة عقله ، فهى التى تجعله يصل إلى درجة التفوق فى شئون البناء ، وشئون الهدم على حد سواء ، وبكفاءة عالية فى الحالين .

وتفوق الإنسان فى دراسة المادة راجع إلى انشغال الإنسان بما يحيطه من أشياء ، قبل أن ينشغل بنفسه ، ولهذا أحرز تقدماً وتفوقاً فى دراسة الأشياء المادية ، قبل أن يعى كيانه المعقد .

إن الإجابة على سؤال « ما الإنسان ؟ » لن تحسم ، إلا أن يصل الإنسان إلي درجة قصوى من الوعى بميراثه الروحى ، ذلك الجانب الذى يملكه الخالق وحده . ومن ثم فمهما نمت معرفة الإنسان بالأشياء ، نتيجة لتقدمه فى العلم وتملكه لوسائله ، فستزداد خسارة الإنسان فى نفسه ، كلما تعمد الاندفاع بنفسه إلى الخطأ بتصوره أن بإمكانه دراسة الإنسان فى جانبه الروحى بالأسلوب نفسه الذى يعالج به المادة ، والسؤال الآن :متى يتجاوز الإنسان خطأه الكبير « إزاء الإصرار على معالجة الكائن

---

(١) روبرت أورنشتاين : بحث : حول عَالِم النفس الأمريكى ص ٨٤ مجلة الثقافة العالمية الكويتية ، العدد ٤٩ ، السنة ٩ جمادى الأولى سنة ١٤١٠ هـ - نوفمبر ١٩٨٩ م .

الحى [الروح والجسد معا] معالجة غير الحى [الجسد فقط] وفى التفكير فى كل حقيقة واقعية مهما كانت مرنة ، كما لو كانت فى صورة جسم ثابت صلب بصفة نهائية »[1] .

إن دراسة الإنسان ستكون ناقصة إذا عولجت من الوجهة المادية فقط ، ذلك لأن الإنسان لا يعرف من نفسه إلا بعض ظواهرها ، أما أسرارها فهى من أمر الله وعلمه .

* * *

وكما هو معلوم فقد خلق الله الخلق ، قبل أن يخلق الإنسان ، ولأنه لا كمال لهذا الكون بدونه ، فقد خلقه الله ليكون خليفة له سبحانه فيه ، وعلمه عز وجل أسماء مخلوقاته وجعله سيداً عليها ، ومن ثم فينبغى عند البحث عن كنه الإنسان ألا نفصله عما يحيط به من سائر المخلوقات ، فقد خلقه الله ليكون الوصل بين سائر المخلوقات ، دون أن نجرده من أثر الإيمان ، ومن قوى الخير والأخلاق فيه ، وتزكية النفس ، والمثل العليا المتأصلة فى فطرته ، وعند ذلك لن نجد للإنسان تعريفاً أصح من أنه : خليفة الله فى الأرض .

الإنسان فى القرآن وإنسان القرن العشرين :

تلك معادلة شغف بها الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابيه : (الإنسان فى القرآن) و (القرن العشرون ما كان وما سيكون) عادل فيها بين إنسان القرآن ، وإنسان القرن العشرين ، بما أفاء الله تعالى عليه من تقدم فى العلوم والفنون ، فى شتى مجالاتها .

ولعل العقاد كان مدفوعاً بدوافع كثيرة ، منها ما حل بكثير من المفكرين الإسلاميين فى العصر الحديث ، الذين دفعتهم رغبة قوية فى إظهار مجد الإسلام ، وإبراز الأمجاد التى حققها عظماء الإسلام فى عصور الازدهار ، لقد اندفع – كما اندفع غيره – لإبراز العظمة الذاتية فى الإسلام ، حتى لقد شغل بذلك أكثر من انشغاله بإنهاض المسلمين المعاصرين .

---

(١) هنرى برجسون : التطور الخالق ، ص ١٩١ .

ربما كان السبب فى هذا الاندفاع إحساس العقاد وغيره من مفكرى الإسلام ، بعجز المسلمين المعاصرين أمام تفوق الحضارة الغربية فى العصر الحديث . فراحوا يؤكدون للناس جميعاً أن الغرب بكل إنجازاته العلمية والتقنية والمدنية كان مسبوقاً بحضارة إسلامية ، كان لها الدور الأكبر فى تقدم الإنسانية ، وفى تقدم الغرب المعاصر على وجه الخصوص .

إن مثل هذه الدراسات – بالرغم من أنها مبهرة – إلا أنها تؤثر تأثيراً سلبياً على قارئها المسلم ، الذى يجب أن يوجه إلى كيف يتقدم ؟! لا إلى أن ينظر وراءه – ولو كان ذلك مشبعاً بالإحساس بالفخر – والواجب أن تدفع المسلم المعاصر إلى الأمام ، إلى العلم والعمل البناء ، لا إلى الوقوف فوق خط بين الماضى والحاضر ، لمجرد عمل موازنة بين أمجاد الإسلام وتفوق الغرب حديثاً ، ثم يكتفى بأن ينحاز عاطفياً إلى أمجاد الإسلام فى الأيام الخالية ، دون أن يهيئ النفس إلى الاستفادة من معطيات الإسلام ، والعمل بوعى كامل لإنهاض أمته ، وتحقيق ذاتيتها .

إن هذه الموازنات إذا لم تكن واعية ، فإنها تفعل فى الناشئة فعل المخدر ، فتميت طموحاتهم ، وهم يجترون سير المجد القديم ، دونما تفكير فى عز المستقبل .

إن هذه الموازنات أضر على الناشئة ، من كل المثبطات التى يُرْمَى بها المسلمون من كل أعدائهم .

هذا ولن ينفعهم انبهار العقاد بإنسان القرن العشرين ، وما حققه من إنجازات فى مجالات العلوم والمال والاقتصاد وغيرها ، الأمر الذى جعل العقاد يصدر حكمه فيقول : بأن إنسان القرن العشرين ، هو إنسان القرآن نفسه ؛ لأنّ القرن العشرين بزعمه قد ألزم الإنسان بالبحث عن مكانه فى الوجود حتى صار جماع الأسئلة إلى لا جواب لها بغير عقيدة دينية ، وليست أى عقيدة دينية ، فأنسب هذه العقائد لإنسان القرن العشرين ، هى عقيدة القرآن ، فهى العقيدة التى تدعو إلى الاطمئنان والاستقرار واليقين ، فى الوقت الذى خذلت فيه عقائد أخرى كثيرة أصحابها كالمادية والفاشية وغيرهما . ومن ثم كان إنسان القرن العشرين حرياً بأن يعتنق عقيدة القرآن ، وأن يدين بها .

إن كلام العقاد لا يفتقر إلى الحماس الدينى ، ولكنْ مع هذا ، فإن إنسان

العقاد – إنسان القرن العشرين – ليس إنسان القرآن فى كل شيء خاصة فى جانبه الروحى ، وإن كان حريا بالإنسان فى كل القرون أن يكون إنسان القرآن ، بحسب معطيات الزمان والمكان ، وبحسب اجتهاد الإنسان وتحكمه فى هذه المعطيات ، وقدرته على الانتفاع بها .

وكذلك لم يوفق العقاد عندما وضع الإسلام فى موازنة مع الفاشية والمادية وغيرهما من متواضعات البشر ، وإن انتصر للإسلام . ومثله كما قال الشاعر :

ألا ترى أن السيف يصغر قدره إذا قيل إن السيف خير من العصا

ومن دراسة العقاد أيضاً ، تبرز حقيقة أن إنسان القرن العشرين – وهو الإنسان الأوربى ، الأمريكى كما عينه الكاتب – لا يستمد تفوقه من المسيحية التى يدين بها ، وإنما يستمده من العلم ومعطياته ، فالعلم برأى الغرب الأوربى الأمريكى : « هو الملجأ والملاذ ولا شيء سواه ، ولقد صار العالم المتمدن يستفتيه فى كل صغيرة وكبيرة ، مدعياً أن العلم قادر على كل شيء مهما دق واستعصى »[1] .

وهذا المفهوم يتناقض مع المفهوم الإسلامى للفكرة نفسها ، ففى التصور الإسلامى أن الله خالق كل شيء ومنه الإنسان وما اكتسب من علم وعمل وغير ذلك ، يحرز به تفوقه على سائر المخلوقات قال تعالى : ﴿ **الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾[2] .

أما تصور العقاد للإنسان فيبدو أنه متأثر بتصور المثاليين من المفكرين الغربيين ، نراه واضحاً فى كتابيه : « القرن العشرون ما كان وما سيكون » و « الإنسان فى القرآن » بصفة خاصة ، وهذه الرؤيا جعلته يرى الإنسان برؤيا (طوباوية) فتمنى للنوع الإنسانى « وحدة عالمية ، وأن يتحقق للإنسان الفرد زيادة الكفاية والمعرفة ، وللجماعات المتفرقة من الناس أن تتقارب على سنة الإنصاف ، وأن تزول بينها فوارق الظلم والخنوع ، كى تكون المساواة تامة بين الناس »[3] .

---

(١) د . عمارة نجيب : الإنسان بين الأديان ص ٣ مطبعة حسان القاهرة سنة ١٩٧٥ م . وعباس محمود العقاد: القرن العشرون ما كان وما سيكون ص ٢٩٣ نشر دار المعارف بمصر مع مؤسسة فرانكلين د . ت وللعقاد أيضاً · الإنسان فى القرآن ص ١٧ ، ٥٩ دار الهلال – سلسلة كتاب الهلال .

(٢) طه · ٥٠ .

(٣) العقاد : القرن العشرون ما كان وما سيكون ص ١٠٣ .

وكل هذه المفاهيم التى ضمنها العقاد كتابيه : « القرن العشرون ما كان وما سيكون » و « الإنسان فى القرآن » تتضمن قيماً إنسانية ، ولكن هيهات أن توازن بتلك القيم القرآنية .

إن حماس العقاد للإسلام ، لا يقل عن حماسه للعلم والمدنية الذى يحمل الغرب لواءها فى هذا العصر ، تماماً كأستاذه ومرشده الشيخ محمد عبده الذى جعل الإسلام والمدنية بتصورها الغربى فى قرن واحد ، وقد جره إلى ذلك انبهاره بأثر العلم الغربى فى الإنسان المعاصر فى كل الأوطان والأديان ، خاصة بعد أن صارت الآلة التى صنعها إنسان هذا العصر أشد تحكماً فيه من أى عصر مضى ، ولقد كان الخيار ظالماً عندما رأى الإنسان الذى صنع الآلة ، هو نفسه قد تحكمت فيه الآلة ، وتلك مسألة شغلت تفكيره كثيراً حتى أودت به إلى الشك فى أمر ذلك الإنسان الذى ينتمى إلى القرن العشرين ، يقول العقاد : « الآلة من عمل الإنسان ، أم الإنسان من عمل الآلة » .

ولقد سيطرت عليه هذه المقولة فجعلها عنواناً لفصل مستقل من كتابه : « القرن العشرون » فنقض به الموازنة التى بناها بين إنسان القرآن وإنسان القرن العشرين من أساسها ، وإن حاول أن يبنى اعتقاده هذا على ركيزة « أن المقياس الذى ينبئ عن تكامل الشخصية الإنسانية فى حقوقها وتبعاتها قد دان لإنسان القرن العشرين ، كما اجترته الحضارة الغربية ، فصار إنساناً متحرراً من الفاقة ، وتخلص من مهانة التسخير وربقة الاستعباد »[1] .

ولكن لأن العقاد كان شديد التمسك بمدركات عقله وحده ، والاعتداد به دون سواه ، فقد وقع فى خطأ تطبيق مقاييسه العقلية هذه على الذين ترجم لهم من بنى الإنسان ، وقسمهم إلى عظماء ، وهم من وجهة نظره الشخصية يمثلون الطبقة العليا من العباقرة ، لا فرق فى ذلك بين نبى عبقرى كمحمد ﷺ ، أو خلفاء عباقرة : كأبى بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم ، أو قادة عباقرة كخالد بن الوليد رضى الله عنه ، أو أديب عبقرى مثل : جوته الشاعر الألمانى الشهير ، أو فقيه عبقرى يدعو إلى الإصلاح كالشيخ محمد عبده ، أو أفذاذ عباقرة وعلى رأس هؤلاء معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، وإن نعته بأنه قدير وليس عظيماً[2] .

---

(١) نفسه : الصفحة نفسها .

(٢) د . شوقى ضيف · مع العقاد ص ٨٦ دار المعارف سلسلة اقرأ والعقاد فى ذلك متبع متأثر بالكاتب الإنجليزى المشهور توماس كارليل الذى كان العقاد معجباً به إعجاباً شديداً خاصة فى كتابه : الأبطال وعبادة البطولة : Heroes and Hero - worship يقول كارليل عن مذهبه فى البطولة: «البطولة فى مذهبى=

وسواء كان الإنسان عبقرياً عظيماً ، أو أديباً نابهاً أو فذاً قديراً ، أو فقيهاً مصلحاً بحسب تصنيفات العقاد ، فالإنسان إذا وصف بالعظمة ، فإنما يوصف بها عنده لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة ، ولذلك فهو يقرر أن كتاب (عبقرية محمد) « إنما هو تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذى يدين كل إنسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى ، فمحمد هنا عظيم ؛ لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس »[1] .

إن هذه النظرة الإنسانية العقلانية فى ميزان العبقرية عند العقاد ، هى ما أطلق عليه الدكتور شوقى ضيف بالواقع الإنسانى الاجتماعى عنده ، وهذا صحيح فقد « مثل للعقاد من خلاله عبقرية محمد النبى الداعى بكل ما تختلف فيه من أشعة آدمية كفلت إبلاغ الدعوة التى ارتكزت على مخاطبة العقل ، وفصاحة اللسان ، وعبقرية محمد الرجل التام الرجولة فى شجاعته وحروبه وملكاته الإدارية ، وعبقرية محمد الإنسان فى رحمته وبره وعطفه وشرفه ونزاهته ، الذى عاش وفاقاً لأسمى مبادئ الخلق الاجتماعى والإنسانى ، معيشة لو لم تقترن برسالة النبوة ، لكان حقاً على الإنسانية أن تعده عبقرياً بملكاته النفسية العظيمة »[2] .

ولهذا رأى الدكتور شوقى ضيف بنظرته الصائبة أن التراجم الإنسانية عند العقاد « ليست سيراً بالمعنى التاريخى المألوف ، وإنما هى صور تشخيص الملكات والأخلاق »[3] ذلك لأن العقاد يرى فى الشخصية العبقرية ، الجوانب الإنسانية فى

= هى العروة المقدسة التى تعقد ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس ». (الأبطال ص ٢) ومن العظماء الذين كتبَ عنهم فى كتاب واحد : محمد ﷺ ، ودانتى الشاعر الإيطالى ،وشكسبير الشاعر الإنجليزى ، وروسو المفكر الفرنسى ، وكرومويل السياسى الإنجليزى . والقس البروتستنتى مارتن لوثر .

وكان كتاب الأبطال وعبادة البطولة قد ذاعت شهرته فى العقد الثالث من هذا القرن . أى قبل أن يكتب العقاد كتاباً واحداً فى العبقريات ، وكان لكتاب كارليل هذا تأثير كبير على العقاد فى كتابة العبقريات والتراجم .

انظر كارليل : الأبطال ــ تعريب محمد السباعى ــ نشر المكتبة التجارية . مصطفى محمد ــ الطبعة الثالثة ١٣٤٩ هـ ــ ١٩٣٠ م .

(١) مقدمة عقرية محمد للعقاد – طبعة كتاب الهلال .

(٢) د . شوقى ضيف : مع العقاد ص ٨٧ – ٨٨ دار المعارف سلسلة اقرأ .

(٣) نفسه : ص ٨٦ .

الرحمة والبر والعطف والشرف والنزاهة ، والخلق الاجتماعي الإنساني ما يسمو بصاحبها حتى وإن لم يقترن برسالة سماوية »[1] .

إن العقاد بموازينه تلك رام إقلاب موازين التربية مثله كمثل مرشده الشيخ محمد عبده ، وإن خالفه فى المنهج المؤدى للغرض نفسه ، فقد كان كل منهما يسعى إلى الكمال الإنساني - كما يراه هو - ويسعى إلى غرسه فى نفوس الشباب ، غير أن العقاد كان متأثراً بالإنسان البطل كإنسان كارليل ، وصنوه الأعلى المقتبس من إنسان بعض فلاسفة الألمان .

كذلك كان يرى رؤاهم فى أولوية الفرد ، ووضعه التاريخى كمحرك للأمم ، وبتلك النظرة أراد العقاد صياغة إنسان فذ عبقرى جديد ، هذا من ناحية ، ولعله من ناحية أخرى أراد بتلك النظرة « أن يطعن فى جدوى تنظيمات المد الإسلامى الجماعية ، التى بدأت مسيرتها مع مطلع الثلاثينات ، المتمثلة بصفة خاصة فى جماعة الإخوان المسلمين ، ويشوه إيمانهم بهذا الجانب الجماعى من الإسلام »[2] . ويشكك فى دورهم التربوى الجماعى فى توجيه الشباب ، فأسقط منازعه تلك فى تصوره للإنسان الفذ .

على أن المسألة - فوق كل ذلك - لم تتعد الإحساس بالهزيمة النفسية ، أمام الحضارة الغربية ، والمحاولة المتحمسة ، من قبل الشيخ محمد عبده ، ومن بعده العقاد للتحفز الذى يسبق الدفاع عن الإسلام وحضارته .

ومما لا شك فيه فإن العقاد كان يحمل الأمنيات الطيبة لأمته الإسلامية ، وكان يهدف بلا شك ، إلى هدف سام ، وغاية طيبة ، ولكن ذلك لم يحل بينه وبين الخطأ فى اختيار المثال ، عندما جعل الإنسان الغربى الذى صنفته الآلة ، هو مثال الشخصية المتكاملة فى تصوره ، ذلك لأن إنسان القرن العشرين ، صاحب التقدم العلمى والصناعى والاقتصادى ، والذى يمثل ثمرة حضارة الغرب فى العصر الحديث ، يعانى من تمزق نفسى من داخله ، ويبحث عن مخلص ، فلا يجد خلاصه ، لا فى المسيحية

---

(١) د . السيد أحمد فرج : الطابع الإسلامى فى أدب شوقى ضيف ، مجلة كلية التربية بدمياط سنة ١٩٨٥ ، ص ١٧٣ عدد خاص فى تكريم الدكتور شوقى ضيف .

(٢) غازى التوبة : الفكر الإسلامى المعاصر ، دراسة وتقويم ص ١٦٦ دار القلم - بيروت ١٩٧٧ م الطبعة الثالثة .

الذى تعمد مواجهتها منذ أن ثار (مارتن لوثر) على الكنيسة ، ولا فى الفاشية ، ولا فى النازية ، ولا فى الماركسية ، ولا فى تعاليم الرأسمالية البراجماتية ، ولا يزال فرض استحالة الخلاص قائم مادام الإنسان الغربى يصر على ترك حياة قوامها روح ومادة ، والأخذ بحياة هى مادة خالصة .

ربما لا يكون مغالاة لو قيل : إن صورة الإنسان عند العقاد ، كما هى عند مرشده الشيخ محمد عبده ، تستمد ظلالا من نظيرتها عند فلاسفة الغرب ، مما دفع العقاد إلى تصور إنسان تاريخى تطابق صورته – بزعمه – ما يمكن أن تكون عليه صورة الإنسان المثالية كما يتمثلها لإنسان القرن العشرين ، التى عادلها بإنسان القرآن ، وهى معادلة لا تجتمع أطرافها ، ولا تكاد بأى شكل من الأشكال .

لقد أراد العقاد أن يقيم مقاييس مثالية يرتضيها تركيب مزاجه الفكرى « لأناس يتساوون فى السعادة والرضا ، كما يتساوون فى السن والميلاد ، وفى الصحة والفكر ، والقوة والإخلاص والجمال »[1] وهى صورة الإنسان كما تصوره الأفكار الغربية المثالية المختزنة فى مخيلة الثقافة الغربية منذ (أفلاطون) حتى (نيتشه) ، وهى صورة تتواءم مع تخيلات أصحابها من فلاسفة الغرب ، أى تصح فى تصورهم ، لا فى تصور الإنسان القرآنى . وكما هو معلوم فإن القرآن الكريم ، هو كلّى الشريعة الإسلامية التى ارتضاها رب الناس للناس ؛ ولأنه وحى منزل من عند الله ، فلا يوازن بفكر بشرى ؛ ذلك لأن أفكار البشر وتصوراتهم تكون دائماً عرضة للخطأ والانتقاد ، بل والنقض من أساسها .

هذا وقد أغنانا القرآن الكريم عن البحث عن : ما الإنسان ؟ وخلقه والغاية من خلقه ، وكل شيء متعلق بالإنسان فى معاشه ومعاده ، والخصائص التى اختص بها الإنسان دون غيره من المخلوقات .

(١) العقاد . القرن العشرون ص ١٠٢ .

الفصل الثانى

الإنسان كما تحدث عنه العلماء المسلمون

الإنسان كما تحدث عنه العلماء المسلمون

أعان القرآن الكريم علماء المسلمين فى بحثهم فى الإنسان – فلم يتجاوزوا فى التعريف به – فهمهم لآيات القرآن الكريم التى ذكرت الإنسان ، وحتى عندما اختلفوا فى كلامهم فيه ، كان اختلافهم حول تساؤلهم : هل يقع التعريف بالإنسان على الجسد دون النفس ، أو النفس دون الجسد ، أو أنه يقع عليهما معا . وكل الذى قال بقولٍ فى ذلك إنما أخذه من فهمه لآيات من كتاب الله ، قال ابن حزم الظاهرى رحمه الله : « احتجت طائفة بقول الله عز وجل : ﴿ **خلق الإنسان من صلصال كالفخار** ﴾[1] .

وبقوله تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾[2] .

وبقوله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى** ﴾[3] .

وهذه الآيات بلا شك صفة للجسد ، لا صفة للنفس ، لأن الروح إنما تنفخ بعد تمام خلق الإنسان ، الذى هو الجسد .

واحتجت الطائفة الأخرى بقوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً** ﴾[4] .

وهذا بلا خلاف صفة النفس لا صفة الجسد ؛ لأن الجسد موات ، والفعالة هى النفس ، وهى المميزة الحية ، حاملة لهذه الأخلاق وغيرها .

قال أبو محمد : وكلا هذين الاحتجاجين حق ، وليس أحدهما أولى بالقول من الآخر ، ولا يجوز أن يعارض أحدهما الآخر ؛ لأن كليهما من عند الله ... فنقول فى الحى : هذا إنسان ، وهو مشتمل على جسد وروح ، ونقول للميت : هذا إنسان

(١) الرحمن ١٤

(٢) الطارق : ٥ – ٧

(٣) القيامة : ٣٦ – ٣٨ .

(٤) المعارج : ١٩ – ٢١ .

وهو جسد لا نفس فيه ، ونقول : إن الإنسان يعذب قبل يوم القيامة وينعم ، يعنى النفس دون الجسد »[1] .

وابن حزم يعرف بالكليات ، وكأنه يعظنا بأن هذا الذى يجب على الإنسان أن يعرفه من ذاته وكفى ، أما الأسرار الدقيقة فهى لله ، قال تعالى : ﴿ **يسألونك عن الروح قل الروح من أمرى ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾[2] .

فعلم الروح من أمر الله ، وأمره تعالى هو علمه وإرادته ، وكله لله وليس من أمر البشر الذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً ، وهذا القليل علم مادى ، متعلق بالمادة لا بالروح .

ولكن لابد للإنسان من صفات تميزه على سائر المخلوقات ، وتلك الصفات هى التى جعلته حقيقاً بخلافة الله فى الأرض . وقد أعد إعداداً إلٰهياً يؤهله لحمل هذه الأمانة .

لقد تحدث علماء المسلمين عن الإنسان من حيث كونه جسماً ونفساً ، وقد تقدم ذكر كلام ابن حزم الظاهرى فى ذلك ، ومن كلامه يعرف أن كلامهم فيه عن كونه جسماً ورد فى إشارات قليلة ، ذلك لأن جسم الإنسان ككل الأجسام والأعراض له حدود تحده فى الطول والعرض والعمق والخواص ، ومع أن الأجسام تختلف فى رسم الصور ، وأن كل جسم يمتلك صورته ، بحيث لا يقبل صورة أخرى ، فإن الأجسام بصورها وحدودها وخواصها مباينة للنفس تمام المباينة . فالنفس كما يقول ابن مسكويه : « ليس بجسم ، ولا جزء من جسم ، ولا عرضاً ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضاً فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ، ولا يلحقه فتور ، ولا كلال ولا نقص »[3] .

والنفس لا تصير بالمعانى جسماً البتة ، « إذا تصورت الألوان والطعوم والروائح ، لم تتصور بها ، كما تتصور الأجسام ، ولا يمنع بعضها قبول بعض من أضدادها ، كما

(١) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٥ / ٤١ ، ٤٢ مكتبة السلام ، مصورة عن نسخة ١٣٤٨ هـ .
(٢) الإسراء : ٨٥ .

(٣) أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، ص ١٣ حققه وشرح غريبه ابن الخطيب — المكتبة المصرية ومطبعتها رمضان ١٣٩٨ .

يمنع فى الجسم ، بل تقبلها كلها فى حالة واحدة بالسواء .

وكذلك حالها فى المعقولات فإنها تزداد بكل معقول تحصله قوة على قبول غيره دائماً أبداً بلا نهاية .

« وبالجملة كل ما يحس ويوصل إليه الحس والجسم ، يزداد بهذه الأشياء قوة ، ويستفيد منها تماماً وكمالا ؛ لأنها مادته وأسباب وجوده »[1] وهذا يباين طباع النفس .

« والنفس وإن كانت تأخذ كثيراً من مبادئ العلوم عن الحواس ، فلها من نفسها مبادئ أخرى ، وأفعال لا تأخذها عن الحواس البتة ، وهى المبادئ الشريفة العالية التى تنبنى عليها القياسات الصحيحة ...

وأيضاً فإن الحواس : تدرك المحسوسات فقط ، وأما النفس فإنها تدرك أسباب الاتفاقات ، وأسباب الاختلافات التى من المحسوسات ، وهى معقولاتها التى لا تستعين عليها بشيء من الحسم ، ولا آثار الجسم »[2] .

وقد يشارك الإنسان الحيوانات فى بعص القوى والملكات والأفعال ، ولكن هناك أفعال وقوى وملكات إنسانية خالصة « يختص بها من حيث هو إنسان ، وبها تتم إنسانيته وفضائله ، فهى الأمور الإرادية التى بها تتعلق قوة الفكر والتمييز »[3] .

والإنسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص به ، لا يشاركه فيه غيره ، وهو ما صدر عن قوته المميزة ، فكل من كان تمييزه أصح ، ورويته أصدق ، واختياره أفضل ، كان أكمل فى إنسانيته »[4] ومن ثم فإن أفضل الناس « من كان أقدر على أفعاله الخاصة وأشد تمسكاً بشرائط حوهره ، الدى تميز به عن الموجودات »[5] ومن ثم فإن كل مخلوق يساوى نظيره من جنسه فى سائر المخلوقات ، إلا فى بنى الإنسان فهناك رجل بألف رجل ، كما أن هناك رجلا بألف ألف رجل ، كما أن هناك امرأة تفضل كثيراً من الرجال ، فضلاً عن كثير من النساء بنات جنسها ، بالتمييز الصحيح

---

(١) نفسه : ص ١٥ .
(٢) نفسه . ص ١٥ .
(٣) نفسه . ص ١٩ .
(٤) نفسه : ص ٢٠ .
(٥) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٢٠

والروية الصادقة ، والاختيار الأفضل ، والإرادة القوية ، عن الأعمش عن أبى ظبيان عن سلمان رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس شىء خيراً من ألف مثله إلا الإنسان »(١) .

ولقد أصاب الراغب الأصفهانى إذ قال : « الإنسان مركب من جسم مدرك بالبصر ، ونفس مدركة بالبصيرة »(٢) وإليهما أشار تعالى : ﴿ **إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾(٣) .

ونفخ الروح هو الذى شرف به الإنسان على سائر خلق الله ، وشرف الإنسان من إضافته تعالى الروح إليه تشريفاً للإنسان ، وتفضيلاً على سائر خلقه ، كما أضاف عبده تشريفاً له ﷺ فى آية الإسراء فى قوله تعالى : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا** ﴾(٤) .

وبقدر ما تسمو روح الإنسان ، يشرف صاحبها ، ويتفوق على بنى جنسه والدليل على ذلك أن القرآن الكريم أشار إلى الإنسان باعتباره نفساً كله ، بروحه وبدنه قال تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾(٥) .

وفى مثل قوله تعالى : ﴿ **قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** ﴾(٦) .

وقال تعالى : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾(٧) .

---

(١) الحافظ أبو الشيخ الأصفهانى : الأمثال فى الحديث النبوى ص ١٧٣ حديث رقم ١٣٧ ، تحقيق د . عبد العلى عبد الحميد حامد ، الدار السلفية بالهند الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

(٢) الراغب الأصفهانى . الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٧٥ ، نشر الصحوة والوفاء .

(٣) الحجر . ٢٨ ، ٢٩ .

(٤) الإسراء ١ .

(٥) الأنعام : ٩٣ .

(٦) التحريم ٦ .

(٧) الذاريات : ٢١ .

وقال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[1] .

قال الراغب الأصفهانى : « وهى التى بحصولها [الروح] فى الجسم ، تحصل الحياة والحركة ، والحس والعلم والرأى والتمييز ، ويكون الجسم متصرفا بها ، وحاملاً ومستحسناً ومستطاباً ومحبباً ، وبفقدها عدم هذه الأشياء ، فيصير جيفة يحتاج إلى عدة تحمله .

وهى محل الأعراض الروحانية ، مثل الجسم فى كونه محلاً للأعراض الجسمانية »[2] .

وركب فى البدن من قوى العذاء والحس ،والتحيل والنزوع والتفكر ما به يسعد أو يشقى « والإنسان إدا نقصت أفعاله ، وقصرت عما خلق له أعنى أن تكون أفعاله التى تصدر عنه ، وعن رويته غير كاملة أحرى بأن يحط عن مرتبة الإنسانية إلى مرتبة البهيمية »[3] وبقدر كمال هده الصفات يتفوق الإنسان على سائر المخلوقات . وبقدر كمالها أو نقصها يتميز الإنسان عن غيره من بنى جسه ، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ: « ليس شىء خيراً من ألف متله إلا الإنسان »[4] .

وعن سعيد المخزمى حدثنا سفيان عن معمر ، والزهرى عن سالم عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « الناس كإبل مائة لا توجد فيها راحلة »[5] .

والإنسان – بالقوى التى ركبت فيه – قادر بإرادته أن يسمو بإنسانيته ، أو يسفل إلى بهيميته ، خاصة وقد منحه الله أدوات الإدراكات جميعاً من أدناها كالإدراكات الحسية التى يستعين بها لإدراك ما يصلح البدن ، وبها يتغذى ويسىل ، وأرفعها كالعقل والفكر والتخيل والسمع والبصر ، والقلب الذى حعله الله قوام الجسم كله .

وهذه الإدراكات كلها – وإن تفاوتت فى الأهمية – فلا غناء لأحدها عن الآحر .

---

(١) فصلت : ٥٣ .
(٢) الراعب الأصمهانى الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٧٥
(٣) ابن مسكويه : تهديب الأحلاق ص ٢١
(٤) الحديث سبق تخريجه .
(٥) الحافظ أبو الشيح الأصمهانى · الأمثال فى الحديث السوى ص ١٧٠ ، ١٧١ حديث رقم ١٣١ ، ١٣٢ .

والقلب معقلها جميعاً فى احتواء القوة المفكرة التى تساعد الإنسان على تبين الهداية إلى سواء السبيل ، فى تحصيل الغذاء الذى يصلح الجسم ، ويساعد على بقاء النفس ، ودوام النسل ، وكذلك الحصول على قدرات : الفهم والتخيل والتفكر ، ولهذا عبر القرآن على أن العقل هو المدرك لماهية الأشياء ونفعها ، كما عبر بالقلب والقلب أشمل فهو يحتوى على القوى المؤثرة فى إدراكات العقل والبدن جميعاً قال تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[1] .

قال فى صفوة التفاسير : « وعبر عن العقل بالقلب لأنه موضعه »[2] .

كما قال تعالى : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾[3] .

ذلك لأنه لو تعطل القلب — لتعطلت كل القوى المدركة فى الإنسان .

ولهذا رأى بعض أعلام فقهاء المسلمين كمالك والشافعى رحمهما الله ، أن العقل فى القلب »[4] .

ولهذا قال ابن كثير رحمه الله فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ أى لب يعى به ، وقال مجاهد : عقل ، أى استمع الكلام فوعاه ، ونعقله بعقله ، وتفهمه بلبه »[5] .

لقد منح الله عز وجل هذه القوى المدركة نفسها للحيوان ، ولكن ليسخرها فقط فى الإدراكات الحسية ، كالقلب لتوزيع الدم على الجسم ، لا للفهم ، والأذنين للسمع فقط ، والعينين لبصر الأشياء لا غير . وركب فيه غرائز حفظ النوع والنسل والهجوم والدفاع والفرار وغير ذلك .

---

(١) ق ٣٧ .

(٢) محمد على الصابونى صفوة التفاسير ٣ / ٢٤٧ ، دار القرآن بيروت ١٤٠٢ هـ — ١٩٨١ م .

(٣) الحج ٤٦

(٤) أبو اليزيد العجمى هامش الذريعة ص ١٧٧ يقول : والقلب يؤدى وظائف العقل ويتموق عليه بالفقه والفطنة — وفى اللسان العقل القلب ولفلان قلب عقول ، أى فهم . مادة عقل ٤ / ٣٠٤٦ طبعة المعارف

(٥) ابن كثير . تفسيره ٤ / ٢٢٩ مكتبة الدعوة الإسلامية ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م

وهذه القوى ذاتها فى الإنسان لها إدراكات تباين نظائرها عند الحيوان ، فمن استعملها فى مواضعها الصحيحة ، حُمد على ذلك ، ومن قصرت عن ذلك همته و لم تعنه فأهملها كان مذموماً من الله والناس قال تعالى : ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾[١] .

وقال تعالى فى ذم من لا ينتفع بها : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[٢] .

فأهمية قوى الإدراكات هذه فى الإنسان غيرها عند الحيوان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **صم بكم عمى فهم لا يعقلون** ﴾[٣] .

قال الراغب الأصفهانى : « أى لا يفهمون المعنى ، لا أنهم لا يسمعون الأصوات ، أو لا يبصرون الذوات ، وجعلهم بكما من حيث إنهم لا يوردون معنى مستنبطاً بالفكر مدركاً بالعقل »[٤] .

ولهذا بين الفرق بين استعمال الإنسان لأدوات الإدراكات ، واستعمال الحيوان لها . خاصة العقل .

وسواء كان منشأ العقل فى القلب ، أو فى الدماغ ، فهو أرفع الإدراكات التى سما بها الإنسان على الحيوان ، ولهذا قال الماوردى : « العقل أس الفضائل ، وينبوع الآداب ، جعله الله تعالى للدين أصلاً ، وللدنيا عماداً ، فأوجب التكليف بكماله ، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه ، وألف به بين خلقه ، مع اختلاف هممهم ، ومآربهم ، وتباين أغراضهم ومقاصدهم ، وجعل ما تعبدهم به قسمين : قسماً وجب بالعقل فوكده الشرع ، وقسماً جاز فى العقل ، فأوجبه الشرع ؛ فكان العقل لهما عماداً ، وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « لكل شيء عُمل دعامة ، ودعامة عمل المرء عقله » ، فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار : ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾[٥] .

---

(١) النحل : ٧٨ (٢) الأعراف : ١٧٩ .
(٣) البقرة : ١٧١ . (٤) الراغب الأصفهانى : الذريعة ص ٨٠ .
(٥) الماوردى : أدب الدنيا والدين ص ١٩ . والآية ١٠ من سورة الملك

وبذلك فإن الناس – وإن تساووا فى الخلق – يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح والقوة ، وصدق العزيمة ، قال الشاعر :

ولم أر مثل الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عد ألف بواحد

بل قد ترى واحداً بعشرة آلاف ، وترى عشرة آلاف دون واحد ، كما قال عليه الصلاة والسلام وهو أصدق الناس قيلاً . عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة »[1] « ولفظ الإبل فى تعارفهم اسم لمائة بعير ، فمائة إبل هى عشرة آلاف ، بل لو قيل : قد ترى واحداً كعالم ، وعالماً مثل واحد لجاز »[2] .

وكما قال ﷺ فى حديث طويل : « فلما كنت عند الباب أتيت بكفة فوضعت فيها ، ووضعت أمتى فى كفة فرجحت بها »[3] .

وقال تعالى فى الذين لا يعقلون : ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** ﴾[4] .

وقال عز من قائل : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾[5] .

والذين لا يعقلون هم شر الدواب . قال تعالى : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون** ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون** ﴾[7] .

فبدون العقل والتعقل يصير الإنسان كسائر الدواب ﴿ **صم بكم عمى فهم لا يعقلون** ﴾ « وبالعقل صار الإنسان خليفة الله ، ولو توهم مرتفعاً لارتفعت الفضائل عن العالم فضلاً عن الإنسان ، وبما غرسه الله تعالى منه فى الإنسان اهتدى من وفقه

---

(١) رواه البخارى : اللؤلؤ والمرجان ٣ / ١٨٣ باب رفع الأمانة

(٢) الراغب الأصفهانى : الذريعة ص ٨٨ .

(٣) رواه أحمد فى مسنده ٥ / ٢٩٥ .

(٤) الفرقان : ٤٤

(٥) الأنفال : ٢٢ .

(٦) الأنفال : ٥٥ .

(٧) البقرة : ١٧١

الله تعالى إلى تزكية نفسه المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾[1] وحصل به حرث الآخرة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه** ﴾[2] .

وثمرة حرث الآخرة على التفضيل سبعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وقدرة بلا عجز ، وعلم بلا جهل ، وغنى بلا فقر ، وأمن بلا خوف ، وراحة بلا شغل ، وعز بلا ذل »[3] .

ولهذا فإن العلماء يرون أن الإنسان لكى يهتدى إلى الحق يحتاج إلى العقل ، كما يحتاج إلى الوحى ، وبالعقل تعرف صحة دعوة الرسل عليهم السلام ، ولولاه ما لزمت الحجة على الناس . « ولهذا أحال الله من يشكك فى وحدانية الله ، وصحة نبوة أنبيائه على العقل ، فأمره بأن يفزع إليه فى معرفة صحتها . فالعقل قائد والدين مدد ، ولو لم يكن العقل ، لم يكن الدين باقياً ، ولو لم يكن الدين لأصبح العقل حائراً ، واجتماعهما كما قال تعالى : ﴿ **نور على نور** ﴾[4] .

وهذا لا يناقض ما ذهب إليه ابن تيمية رحمه الله من أن الشرع المنزل من عند الله ثابت فى نفسه سواء علمناه بعقولنا أم لم نعلمه ، فهو مستغن فى نفسه عن علمنا وعقلنا ، ولكن نحن محتاجون إليه ، وإلى أن نعلمه بعقولنا ، فإن العقل إذا علم ما هو عليه الشرع فى نفسه صار عالماً به ، وبما تضمنه من الأمور التى يحتاج إليها فى دنياه وآخرته ، وانتفع بعلمه به وأعطاه ذلك صفة لم تكن له قبل ذلك ، ولو لم يعلمه لكان جاهلاً ناقصاً »[5] .

وإذا كان الدين أقوى قاعدة فى الأخذ بيد العباد إلى صلاح الدنيا واستقامتها وذلك بالتكاليف الشرعية ، حتى لا يسقطوا حتف أهوائهم ، فإن ذلك لا يكون إلا بكمال العقل . « لأنه بكمال العقل يستدل على صحة الشرع . وقد قال الله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾[6] وذلك لا يوجد منه إلا عند كمال عقله ،

---

(١) الشمس : ٩ ، ١٠ . (٢) الشورى : ٢٠ .

(٣) الراغب الأصفهانى : الذريعة ص ١٦٨ . (٤) نفسه ص ٢٠٧ .

(٥) ابن تيمية : تقريب درء تعارض العقل والنقل ص ٦٩ . (٦) القيامة : ٣٦ .

فثبت أن الدين من أقوى القواعد فى صلاح الدنيا ، وهو الفرد الأوحد فى صلاح الآخرة ، وما كان به من صلاح الدنيا والآخرة ، فحقيق بالعاقل أن يكون به متمسكاً ، وعليه محافظاً »[1] .

وعن عائشة رضى الله تعالى عنها : كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ : « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »[2] .

والإنسان العاقل نزاع إلى الكمال ، ولعل منبع هذا النزوع الدائم فيه من أشرف ما شرفه به خالقه عندما نفخ فيه من روحه . قال تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين** ﴾[3] .

ففى هذه الآيات :

١ – أصل الإنسان من صلصال من طين آسن كريه الرائحة . ولعل الإنسان إذا جنح بشهواته يرتد إليه .

٢ – أن فيه من روح الله ما يسمو به . ويرق به إذا ارتفع بدينه وزكا بنفسه .

٣ – وفيه أن الله عز شأنه كرم الإنسان العالِم العاقل ، فأسجد له الملائكة . فإذا جهل رد إلى أرذل العمر .

وهذا الإنسان الذى أسجد الله له الملائكة – سجود تحية – لا يسجد إلا لله ، وفى ذلك غاية التكريم ، وكمال الحرية .

وبذلك « يجد المسلم فى أساس كل تجاربه (أنا) يتعرف بنفسه على ذاته ، بوصفه كرامة صادرة عن الله . ويحيا وجوده بالتقاء مباشر مع ذاته ، ويكّون معرفة عنها فى الذات بتركيز الوعى بالذات ، إذ هى الكينونة الصحيحة للفكر ، وهو يمارس العبادات

---

(١) الماوردى . أدب الدنيا والدين ص ١٣٦

(٢) رواه البخارى ، كتاب الدعوات ، باب قول النبى ﷺ « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة . » ٨ / ١٠٣ ورواه مسلم ١٧ / ١٦ كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الدعاء .

(٣) الحجر : ٢٨ – ٣١

والمعاملات ، طبقاً لأصول التشريع الإسلامى »[1] .

والمسلم الفرد ، وهو يمارس العبادات ، إنما يحمل مسئولية الأداء كاملة ، بلا واسطة من أى سلطان دينى كائنا ما كان ، فلا واسطة فى الإسلام بين المخلوق والخالق إلا عمله ، الذى يُسأل عنه ويجنى ثماره . ابتداء من النية التى هى أول فروض العمل إلى تمام العمل ، وبذلك يكون كل عمل يعمله المسلم سواء فى العبادات أو المعاملات أو تزكية النفس يكون عبادة ويكون لله تعالى فيه حق ، كما لعامله فيه حق .

إن كل عمل أو قول إقرار يقر به المسلم ابتداء من الإيمان بالله والإقرار له بالعبودية وحده . ثم أداء العبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وكذا المعاملات فى التجارة ، والسلوكيات مع الآخرين من أفراد الجماعة المسلمة وغير ذلك ، إنما يكتسب صلاحية بالنية الخالصة لله تعالى ؛ روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

ذلك لأن المسلم ، وهو يؤدى العبادة ، ويؤدى العمل ، وكذلك وهو يتعامل مع الناس لا يصح عمله إلا بنية صادقة ، وهو يواجه به خالقه . لقوله تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾[2] .

والمسلم فى كل أحواله يحافظ على دنياه وآخرته ، ويوازن بينهما . قال تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾[4] .

وجاء فى الأثر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وكل مسلم مسئول عن عمله سواء كان ظاهراً أو باطناً . وسواء كان مما ينظف النفس ويزكيها ، أو مما ينظف البدن .

والمسلمون إنما يحاسبون بأعمالهم المثمرة فلا رهبانية فى الإسلام ، ولا اعتقاد بالخطيئة الأصلية – كما فى النصرانية . قال تعالى : ﴿ **قل إن تخفوا ما فى صدوركم**

---

(١) د . محمد عزير الحبابى : الشخصانية الإسلامية ص ٢٥ دار المعارف ١٩٨٣ م .
(٢) الحديد : ٤ . (٣) القصص : ٧٧ . (٤) القصص : ٧٧ .

أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السمٰوات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير * يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد * قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[1] .

قال تعالى : على لسان رسوله ﷺ : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾[2] .

ذلك لأن الرسول بشر يوحى إليه ، ورسول ككل الرسل عليهم السلام . قال تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾[5] .

ومن هذه الآيات يستبين قيمة الالتزام الشخصى لكل فرد مسلم – من خلال الجماعة – قِبل خالقه فى العبادات . وقِبل خالقه فى المعاملات .

وتحديد قيمة النفس إنما يكون على أساس أنها ككل ذات فاعلة ملتزمة أمام خالقها ، بشرط أن تكون مسئولة عن أفعالها ، يقول رب العزة فى حديث قدسى : « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[6] .

(١) آل عمران : ٢٩ – ٣٢ . (٢) الأنعام : ٥٠ . (٣) آل عمران : ١٤٤ .
(٤) آل عمران : ٦٤ . (٥) الأنعام : ١٣٥ .
(٦) الأحاديث القدسية ١ / ٢٦٤ – ٢٦٥ عن أبى ذر رضى الله عنه .

وفى صحيح مسلم : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

فالمسلم ابتداء بالنية له مقصود من عمله ، يتحمل مسئوليته كاملة، ولا يطلب من غيره أن يتحمل عنه أوزاره .

ومن ثم تتحدد المسئولية الإسلامية إذ تدور بين طرفين واضحين من الحلال والحرام.عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

وكل مسلم راع فيما استرعاه الله لقوله ﷺ : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » .

والمسلم فى كل أحواله يعمل بوعى كامل ، بعيد عن كل ريبة . عن إبراهيم ابن يزيد عن عطاء عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[2] .

وترك ما يريب يجعل كل إنسان فاعل مسئول فى كل أحواله وأفعاله قال تعالى .
﴿ قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[3] .

والمسلم كلّى : العبادة والعمل والقصد ، لا يلغى منه شيئا من أجل شىء ، فهو أمام العبادات والمعاملات والقيم الإخلاقية ، التى تزكى النفس سواء . يتجلى أمامها جميعاً كقوة متوازنة ، فيتغلب على غرائزه بتعديلها ، دون الاستغناء عنها ، أو نبذها ، ويحرر هواه من الجموح والهوى ، إلى السكينة ، والاطمئنان الداخلى .

---

(١) رواه البخارى ومسلم اللؤلؤ والمرجان ٢ / ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) الحافظ أبو الشيخ الأصفهانى : الأمثال فى الحديث النبوى ص ٧٢ وإسناده ضعيف لوجود إبراهيم بن يزيد ولكن الحديث روى من طرق كثيرة .

(٣) الأنعام . ١٦٤ .

وهو فى كل الأحوال مسئول أمام خالقه ، تقوده أعماله إما إلى الجنة ، أو إلى النار ، فى شهود ووعى كاملين .

الفصل الثالث

خلـق الإنسـان
فى مزاعم الطبيعيين والدهريين

خلق الإنسان

فى مزاعم الطبيعيين والدهريين

خلق الحياة وخلق الإنسان :

اهتم الإنسان من قديم بقصية الخلق ، وكانت أفكاره ، تدور – فى الغالب – حول نشأة الحياة على كوكب الأرض ، الذى استخلف فيه الإنسان واستعمره .

كان السؤال المطروح دائماً : كيف بدأ الخلق ؟ قال تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ **أمن خلق السمٰوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلٰه مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإلٰه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإلٰه مع الله قليلاً ما تذكرون * أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإلٰه مع الله تعالى الله عما يشركون * أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإلٰه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من فى السمٰوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾[1] .

وكانوا يتساءلون كذلك كيف تطور خلق الإنسان . قال تعالى : ﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾[2] .

هذا بيان من القرآن الكريم فى خلق الحياة ، وخلق الإنسان .

ولكن الطريق الذى سلكه العلماء الماديون ، يخالف تماماً ما جاء فى بيان القرآن الكريم .

والإنسان الذى ظل آلاف السنين يبحث عن حقيقة خلقه ، لم يصل إلى أسرارها

---

(١) النمل : ٦٠ – ٦٥ .

(٢) نوح : ١٤ .

إلا عندما أعانه العلم بوسائله فى العصر الحديث ، خاصة وأنه جعل القرآن الكريم حاكماً على كشوفه فى الخلق .

ولكن ماذا قال الطبيعيون من قديم وحتى العصور الحديثة فى خلق الحياة ؟ عندما عجزوا عن معرفة أصل نشأة الإنسان ، ونشأة المخلوقات الأخرى ، اعتقدوا فيما أطلقوا عليه (بالتولد الذاتى للمخلوقات) معتقدين فى أن كل الأحياء قد نشأت من تراب الأرض بمعجزة عجز العقل البشرى عن تفسيرها ، وقد وقع فى هذا الخطأ من علماء الأمم القديمة فى مصر والهند وبابل وغيرهم ، وظل هذا الاعتقاد مسيطراً على الإنسان حتى فى أوربا إلى القرن السابع عشر « ولقد سيطرت فكرة التولد الذاتى ، أو نشأة الحياة من مادة غير حية biogersis على عقول الناس فى بلاد ما بين النهرين ، ومصر القديمة وغيرها »[١] .

وفى موسوعة (حضارة العراق) قالوا : « شغل العراقيون القدماء بخلق الإله والإنسان ، وناقشوا فكرة الإله والإنسان فى ملاحمهم وأساطيرهم التى عدت الإله (أنليل) الخالق للكون والإنسان ، وعد البعض الآخر الإله (انكى) هو الخالق للإنسان ، وعدت مجموعة أخرى (مردوخ) هو الخالق للكون والإنسان والطبيعة التى يرومها لحياته ومتطلباتها ، وتعكس كيفية تقديسه للطبيعة من جراء خوفه من عوامل الطبيعة التى سادت فى الألف الرابع قبل الميلاد ، وعلى كل حال فإن الملحمة التى صورت طبيعة هذه المرحلة ، كما صورت فكرتهم عن خلق الإنسان تقول :

« عندما بدأ الإنسان يظهر ، ظهر مثل الحشيش من الأرض » .

« وهذه الملحمة تؤكد فكرة السومريين عن أن الإنسان قد ظهر مثلماً يظهر الحشيش من باطن الأرض بذاته »[٢] .

وكذلك اعتقد المصريون القدماء بأن الضفادع والثعابين والجرذان والتماسيح نشأت فجأة من طمى النيل ، كما اعتقد غيرهم بأن الديدان والذباب والخنافس تنشأ هى الأخرى من الأسمدة العضوية ، والقاذورات ، كما أن القمل ينشأ من عرق الإنسان »[٣] .

(١) د أنور عبد العليم : نشأة الحياة على الأرض ، ص ١٧٢ تراث الإنسانية ، المجلد ٢ ، الجزء ٣

(٢) موسوعة حصارة العراق : ١ / ١٦٦ .

(٣) د . أنور عبد العليم : نشأة الحياة ص ١٧٢ ، المجلد ٢ ، الجزء ٣ .

واعتقد اليونانيون القدماء الاعتقاد نفسه ، فقد رأى أرسطو « أن الأحياء وحتى الفقاريات منها مثل ثعبان البحر مثلاً ، نشأت بالتولد الذاتى من الطين ومواد الأرض »[١] .

ولقد حاول أرسطو أن يجد تعليلاً منطقياً لمقولته تلك فقال : « إن جميع الكائنات الحية قد خلقت باتحاد مصدرين : هما المادة وهى مصدر غير فعال ، والشكل أو الهيولى ، وعلى ذلك فالمادة فى حد ذاتها لا تملك الحياة ، ولكنها قد تأويها وتعتبر لها مستقراً »[٢] .

ومع هذا فثمة مقولة أخرى سومرية كانت فى الألف الرابع قبل الميلاد أى قبل أرسطو بثلاثة آلاف سنة ، فى القسم الجنوبى من بلاد ما بين النهرين (العراق) تقول : « إن الإنسان قد خلق من الطين كامل النمو والتطور مرة واحدة »[٣] « وفيه من حكمة الإله الخالق »[٤] .

وأيا كانت التفسيرات ، فهناك فرق كبير بين أن يكون تخلق الإنسان بالتولد الذاتى ، وبين أن يخلقه الإلـٰه (أنكى) من الطين ، كاملاً متطوراً ، وفيه من حكمة الإلـٰه الخالق ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على وجود التوحيد حنباً إلى جنب مع غيره من الديانات الوثنية .. ولهذا تقول الأسطورة : إن الإلـٰه (أنكى) خلق الإنسان ليعمل بدلاً من الآلهة . ومما تقول هذه الأسطورة :

« جلب الإلـٰه (أنكى) الأيدى وصاغ صدر الإنسان » .

« أنكى الخالق وضع داخل مخلوقه شيئا من حكمة » .

« ثم نادى على أمه الإلهة (نمو) وقال لها :

« أمى المخلوق الذى أوجدتـِه اربطى به عمل الآلهة » .

« وبعد أن تخلطى الطين الذى تأخذينه من مياه الآبو » .

---

(١) د . محمد جمال الفندى و د . محمد يوسف حسن : قصة الكون من السديم إلى الإنسان ص ٦٠ كتاب الشعب سنة ١٩٦٨ م .

(٢) د . أنور عبد العليم : المرجع السابق ص ١٧٢ ، المجلد ٢ ، الجزء ٣ .

(٣) حضارة العراق . ١ / ١٦٩ .

(٤) نفسه ٠ ١ / ١٧٠ .

« عليك أن تصوغى الأعضاء وتكونى الإنسان » .
« أمى قررى مصير الإنسان » .
« فأجابت الإلهة ننماح :
« عسى أن يكون العمل مصيره »[1] .

ماذا قال رجال الكنيسة فى العصور الوسطى فى أوربا :

لم تنجِ أوربا النصرانية فى العصور الوسطى من تأثير نظرية التولد الذاتى فى أصل الحياة ، وكان من بين الذين تواترت للناس أقوالهم من كبار رجال الكنيسة القديس بازل **Sant Bazil** والقديس أوغسطين **Sant Augustine** بأن الأرض قد أخرجت أعشابها وأشجارها وجرادها وحشراتها وهوامها وطيورها عندما أذن الله لها ، ونهج على منهاجهم القديس توماس الأكوينى **Sant Thomas Acquinas** وغيره من رجال الكنيسة »[2] .

ولقد ظلت فكرة التولد الذاتى هذه مسيطرة على العقلية الأوربية حتى القرن السابع عشر الميلادى عندما ظهر العالم الإيطالى فرنسيسكو روى **Francesco Roi** وكان أول عالم فى هذا الميدان يخضع أفكاره للتجربة ، فقد أجرى تجاربه على حالة نشوء ديدان اللحم من اللحم . وهى مثل ما نراه فى حالة نشوء (ديدان المش) التى منها أطلق المثل الشعبى المصرى (دود المش منه فيه) وقد استطاع هذا العالم أن يثبت بالتجربة أن الديدان لم تنشأ من اللحم ، ولكنها تنشأ من بويضات الذباب الدقيقة التى تقع فى اللحم ، نتيجة لوقوع الدباب عليه »[3] .

ولكنه وُوجِه بمعارضيه الذين واجهوه بحقيقة لم يستطع إنكارها ، وأوقع فى حيرة ، بل وكاد أن ينسف بنفسه النتيجة الحاسمة التى وصل إليها ، وذلك بأن ووجِه بوجود ديدان فى مخ الأغنام لم تنشأ من بيض الذباب .

غير أن باستير سنة ١٨٢٢ م – ١٨٩٥ م « أثبت أن الميكروبات هى السبب

---

(١) موسوعة حضارة العراق : ١ / ١٧٣ .
(٢) د . أنور عبد العليم . المصدر السابق ص ١٧٢ .
(٣) د . الصدى ، و د . محمد يوسف حسن : قصة الكون ، ص ٨٢ ، وقصة السمٰوات والأرض ص ٦٠ ، ود . أنور عبد العليم : المصدر السابق : ص ١٧٢ .

فى التحلل والتعفن وليست نتيجة له »[1] .

وعلى كل حال فقد كانت النتائج العلمية الباهرة التى وصل إليها كل من روى وباستير فى هذا المجال بمثابة الدليل الذى اهتدى به العلماء فى هذا الطريق نفسه .

ولكن فى القرن التاسع عشر راج افتراض آخر عن نشأة الحياة على الأرض نتيجة انتقال بذور الحياة إلى الأرض من الكواكب الأخرى ، نادى بهذه الفكرة العالمان الألمانيان ريختر Richter وهيلم هولتز Helm Holtz من بعده فقالا : « إن بذور الحياة انتقلت إلى الأرض مع الشهب والنيازك ، أى مع الرماد الكونى الذى تساقط على سطحها »[2] .

ولكن هذا الافتراض قضى عليه بالفشل ، كالافتراضات السابقة عليه ؛ لأن جراثيم الحياة المزعومة فى رحلتها الكونية المفترضة لن تسلم من الأشعة فوق البنفسجية القاتلة ، التى تنبعث من الشمس والنجوم الأخرى بغزارة « لوجود الإشعاعات النووية التى تقضى على الحياة فى أحزمة طبقات الجو العليا ، ولاحتراق أغلب المواد عند ملامستها لجو الأرض بالاحتكاك »[3] .

ولقد جعل فشل هؤلاء العلماء فى الاعتقاد الصحيح للأصل السماوى للحياة ، العودة إلى الاعتقاد بنظرية الأصل الأرضى للحياة ، وإن اختلفوا إلى وجهتين فى طريقة إثبات صحة نظرياتهم .

كانت الوجهة الأولى : مادية .

والثانية : ميتافزيقية .

ولم يفطن أولئك وهؤلاء إلى خلق الخالق للحياة .

ولقد رأى أصحاب الوجهة الأولى : أن الحياة عند ظهورها كانت خاضعة لقوانين فيزيقية وكيميائية بحتة .

---

(١) د . العندى ، و د . محمد يوسف حسن : قصة الكون ٨٤ وقصة السمٰوات والأرض ٦١ ، و د. أنور عبد العليم ص ١٧٢ .

(٢) د . أنور عبد العليم : تراث الإنسانية ٢ / ٣ / ١٩٧٣ م – و د . الفندى ، د . محمد يوسف حسن . قصة السمٰوات والأرض ص ٦٢ .

(٣) د . أنور عبد العليم : المرجع السابق ٢ / ٣ / ١٩٧٣ م .

أما أصحاب الوجهة الثانية : فقد رأوا خضوع نشأة الحياة لهذه القوانين الفيزيقية والكيميائية . ولكنهم قالوا أيضاً بوجوب قوة خالقة توائم بينها حتى يتم الخلق .

وعلى كل حال فالأصح التماس أصل الخالق من عقيدة التوحيد ، ذلك لأن العلم التجريبى وحده عجز عن تفسير ظواهر كونية لا صلة لها بالمادة البحتة كالروح ، وحدوث الحياة من الموات . ولهذا فإن الإيمان حتمى وضرورى لمعرفة القوة العليا القادرة على إحداث أشياء تختلف فى كنهها عن تراكيب المادة وخواصها .

قال تعالى : ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شىء حى** ﴾[3] .

وعندما يَعِى الإنسان حقيقة المعانى فى هذه الآيات ، سيصل إلى حقيقة كيف بدأ الخلق ، وكيف ارتقى بمشيئة الله وإذنه وقدرته .

ظن الماديين فى تطور الخلق وارتقائه :

ظن الماديون أن بدء الخلق كان كائناً دقيقاً ، وحيد الخلية ، حيواناً أو نباتاً ، ثم أخذ فى التطور حتى وصل إلى أرقى أنواع المخلوقات وهو الإنسان .

وهذا الاعتقاد اعتقاد قديم ، كان منتشراً بين شعوب الشرق : بابل وآشور ومصر ، فقد تصوروا أن الإنسان لم يكن إلا كتلة لزجة من المادة لا شكل لها ، ولا صورة . ثم أثّرت الطبيعة فى تلك المادة ، فتقلبت فى أطوار من النشوء والارتقاء ، بلغت فى حدها الأخير الصورة البشرية »[4] .

وثمة فكرة يونانية قديمة أعلنها انكسمندر اليونانى سنة ٦١٠ ق.م تقول : « إن نشأة المخلوقات الحية منسوب إلى تأثير الشمس فى الأرض ، وتمييز العناصر المتجانسة فى الحركة الدائمة »[5] .

(١) العنكبوت : ٢٠ . (٢) الحج : ٤٦ . (٣) الأنبياء : ٣٠ .

(٤) مقدمة أصل الأنواع لداروين ; ص ٣ ترجمة إسماعيل مظهر – مراجعة عبد الحليم منتصر – المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر . د . ت .

(٥) نفسه : ص ٤ .

ومثل هذه الفروض لا تقوم على أساس صحيح من نقل أو عقل ، ولكنه مجرد فروض ظنية من صنع خيال بشرى .

العلماء العرب والتطور :

أولاً : إخوان الصفا :

بينما كانت أوربا تفكر بطريقة ساذجة فيما يتعلق بخلق الإنسان وتطوره ، كان علماء المسلمين قد قطعوا شوطاً كبيراً من البحث فى هذا الميدان ، وقد مهد إخوان الصفا فى رسائلهم ، وابن مسكويه فى « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ، والراغب الأصفهانى فى « تفضيل النشأتين » وفى « الذريعة إلى مكارم الشريعة » . وغيرهم .

لقد سبق هؤلاء العلماء العرب العلماء الأوربيين ، وربما مهدوا لهم فى البحث فى النشوء والارتقاء ، مع الفارق بين منطلقات العلماء المسلمين فى البحث ، والعلماء الغربيين ابتداء من بوفون **Buffon** الفرنسى (١٧٠٧ – ١٧٨٨ م) ثم مواطنه لامارك سنة ١٨٠٩ م ، الذى يعد أول من أرسى قواعد النظرية التى انتهت بوالاس ودارون عام ١٨٥٩ م ، فكان لظهور نظريتهما بدء الأبحاث التى أقرت مذهب الداروينية ، هذا بصرف النظر عن القيمة العلمية الصحيحة لأبحاث العلماء العرب ، أو العلماء الأوربيين على السواء .

ثم إنه يجب التنبيه إلى أن إخوان الصفا وإن لم تكن لهم القدرة على المعالجة العلمية ، التى ملكها نظراؤهم الغربيون من علماء العصر الحديث ، فإن مراتب الخلق عند إخوان الصفا تبدأ من المادة الجامدة التى لا حياة فيها ، ثم تبدأ الحياة من حيث تنتهى المرتبة العليا من الجماد ، فيبدأ أخس أنواع النبات ، وهى خضراء الدمن ، ويعتقد إخوان الصفا أن خضراء الدمن لا أصل لها ولا بذور ، فهى كما يقولون : « ليست بشىء سوى غبار تلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم أصابها المطر فتصبح بالغداة خضراء ، كأنه نبت وحشائش »[1] .

وهذا القول الذى قال به إخوان الصفا يؤكد استمدادهم من أصحاب فكرة

(١) الرسالة العاشرة من رسائل إخوان الصفا .

التولد الذاتى من السومريين والبابليين والآشوريين والمصريين القدماء واليونانيين وغيرهم من أصحاب ثقافات العصور القديمة .

وبعد أحس أنواع النبات – خضراء الدمن – يأخذ النبات فى الارتقاء حتى يصل فى مملكة النبات إلى أرقاها وأشرفها وهو النخيل ، ولأن النخيل ، أرقى مراتب النبات وأشرفها ، فقد اعتبروه أول مراتب الحيوان بزعمهم ، فقالوا : « إن النخيل نبات وحيوان معاً ، لأن بعض أحواله وأفعاله ماين لأحوال النبات ، وإن كان جسماً نباتيـــاً »[1] .

وربما أوقع إخوان الصفا فى هذا القول : الأثر الذى يقول : « أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من فضلة طينة آدم . وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ابنة عمران »[2] .

ولأن إخوان الصفا أرادوا وصل سلسلة الخلق ، فقد عدوا النخيل نباتاً حيوانا ، بعضه متصل بعالم النبات ، وبعضه متصل بعالم الحيوان . ثم عدوا أخس عالم الحيوان وهى دودة الحلزون كالنحلة ، بعضها نباتى من حيث ثبوته فى الصخر ، وبعضها الخارج عنه حيوانى . يقول إخوان الصفا : « فتلك الدودة تخرج نصف شخصها من جوف الصخر ، وتنبسط يمنة ويسرة ، تطلب مادة تغذى بها جسمها ، فإذا أحست رطوبة ولينا انبسطت إليه ، وإن أحست بخشونة أو صلابة انقبضت وغاصت فى جوف تلك الأنبوبة حذراً من مؤذ لجسمها ، ومفسد لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ، ولا ذوق ولا شم، إلا ذوق اللمس فحسب ؛ لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضواً لا يحتاج إليه ، فهذا النوع حيوان نباتى ؛ لأنه ينبت جسمه ، كما ينبت بعض النبات ، ومن أجل أنه لا يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن حيث إنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص الحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضاً التى يشاركها النبات فيها ، وذلك لأن النبات له حس اللمس فحسب »[3] .

---

(١) نفسه

(٢) هذا الأثر ذكره السخاوى فى المقاصد الحسنة برقم ١٥٦ صفحة ٧٩ ، وقال . ذكره أبو نعيم فى الحلية واللفظ له والرامهرمزى فى الأمثال . وأبو يعلى فى مسنده كلهم من حديث مسرور بن سعيد التميمى عن الأوزاعى عن عروة بن رويم عن على مرفوعاً بهذا ، ومن هذا الوجه أخرجه أبو يعلى فى مسنده لكن بلفظ . « فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم ، وليس من الشجرة يلقح غيرها » و كذا أخرجه =

(٣) إخوان الصفا . الرسالة العاشرة

ويرى إخوان الصفا – بالطريقة نفسها – أن الارتقاء يسير من أحس أنواع الحيوان إلى أشرفه .

وإخوان الصفا يتخبطون فى وهم الخيال ، وهم يوصلون مراحل الحياة بعضها ببعض – بزعمهم – فأصل الحياة عندهم يأتى من ماء المطر الذى منه كل شىء قال تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شىء حى** ﴾[1] .

ولعلهم بهذا الحس راموا حقيقة علمية ، فبلغوا بعض الحق فيما ذهبوا إليه من وجود المشاركة بين النباتية والحيوانية فى الكائن الواحد ، ويؤكد الدكتور عبد المحسن صالح أستاذ الكائنات الدقيقة هذه المشاركة فى بعض الكائنات فيقول :

« لا تستطيع أن تؤكد إن كانت بعض الكائنات الدقيقة تتبع المملكة النباتية ، أو المملكة الحيوانية ؛ لأنها تجمع الصفتين معاً ، إنها نبات وإنها حيوان »[2] .

إن الذى اكتشفه عالم الكائنات الدقيقة فى القرن العشرين ، يؤكد ما كان لإخوان الصفا من حس علمى . ولولا أن فروضهم يعوزها الدليل العلمى البرهانى لاعتبرت كشفا علمياً فائقاً . إنهم أرادوا ببساطة أن يعرضوا للحياة على الأرض ، فتوصلوا إلى أن معرفة حياة كل الكائنات واحدة ، ولا يزال هذا الزعم معتبرا من كثير من العلماء يأخذون به حتى الآن فيقولون : « إنها حياة واحدة تجرى على أنماط واحدة ، وراءها مخطط واحد هو مدبر الكون وخالقه ومبدعه عز شأنه ، وملايين الخلايا الكونية كلها

= المستغفرى فى الطب النبوى وغيره ، وهو عند عثمان الدارمى فى الأطعمة بزيادة " وأطعموا نساءكم الرطب فإن لم يكن رطب فالتمر ، وهى الشجرة التى نزلت مريم ابنة عمران تحتها

وفى سنده ضعف وانقطاع .

ورواه فى كتاب الأمثال فى الحديث النبوى وفيه . « وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » حديث رقم ٢٦٢ ، ص ٣١٠ ، وقال محققه : إسناده ضعيف .

وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات ١ / ١٨٣ ، ١٨٤ ، وقال. هذا حديث لا يصح

وقال الشيخ محمد نصر الدين الألبانى: موضوع

راجع سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١ / ٢٨٣ برقم ٢٦٣

(١) الأنبياء : ٣٠

(٢) د عبد المحسن صالح : هل لك فى الكون نقيض ص ١٨٦ ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة سنة ١٩٧٠ م .

تقتبس من حياة الجسم الإنسانى درجات ، ويأتى النبات ولا تزال الخلية فيه هى الأصل ، وهى الفرد والشجرة والدولة ... إنها الوحدة الشاملة تلاحق الحياة حيثما وجدت على هذه الأرض » [1] .

على أن عملية التطور عند إخوان الصفا لا تقف عند افتراض التفاعل الذاتى فى تطور المواد أو ارتقائها ، فهم لم ينكروا تدخل قوة عظمى مؤثرة فى هذه العمليات وارتقائها .

وقد يحلو لبعض الماديين المعاصرين أن يجعل إخوان الصفا ماديين طبيعيين ، وهم يفترضون أن يسير التطور وفقاً « لعملية داخلية تسير بنظام مستقل . تتفاعل ذاتياً بآليتها الداخلية »[2] وفقاً للتولد الذاتى الارتقائى - المزعوم - من الأدنى إلى الأعلى ، كأن يتولد النبات من المعادن ، ثم الحيوان من النبات على افتراض حتمية حاجة الأعلى إلى الأدنى .

ولكنهم فى الحقيقة لم يجردوا فرضيتهم من الأثر الإلهى الفاعل فيها ، ذلك لأن كل حركة تحدث فى العالم الحادث إنما تكون بقدرة الله تعالى .

ولعل تصورهم للتطور خاضع لما يعتقده المسلمون فى أن الله وحده كان ولم يكن شىء معه ، ثم أحدث العالم ، وكل ما حوى بطن الفلك يتحرك بقدرته تعالى .

ثانياً : الراغب الأصفهانى :

ويأتى الراغب الأصفهانى بعد إخوان الصفا ، ولكنه لا يعالج التطور لغاية سامية ، فهو يرى أن التطور والارتقاء لم يكن عبثاً ، أو بلا غاية ، وإنما هو ارتقاء الخلق ، ومن أجل خلق الإنسان ، فهو مقصود الخالق لخلافته فى الأرض .

رأى الراغب الأصفهانى أن التطور الذى حدث لكل المخلوقات ، كانت غايته إيجاد مخلوق أسمى من كل المخلوقات ، ذلك هو الإنسان . يقول الراغب : « المقصود من العالم وإيجاده شيئاً بعد شىء ، هو أنْ يوجد الإنسان فالغرض من الأركان أن يحصل

---

(١) د. أحمد زكى . بحث الخلية الوحدة الصغرى التى بنى منها كل حى كيانه ص ٥٠ ، مجلة العربى الكويتية عدد ١٨١ ، ديسمبر ١٩٧٣ م

(٢) حسين مروة . النزعات المادية فى الفلسفة الإسلامية ٢٠ / ٤٢٣ - دار الفارابى بيروت سنة ١٩٨٥ م .

منها النبات ، ومن النبات أن يحصل الحيوانات ، ومن الحيوانات أن تحصل الأجسام البشرية ، ومن الأجسام البشرية ، أن يحصل منها الأرواح الناطقة ، ومن الأرواح الناطقة أن يحصل منها خلافة الله تعالى فى أرضه ، فيتوصل بإيفاء حقها إلى النعيم الأبدى لقوله تعالى : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾[1] وجعل تعالى الإنسان سلالة العالم وزبدته ، وهو المخصوص بالكرامة »[2] لقوله تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممَّنْ خلقنا تفضيلاً** ﴾[3] .

فكأن الراغب قال : إن تطوير المخلوقات وتحسينها ، إنما من أجل إعداد الكون لكى يسكنه المخلوق الأسمى ، صاحب المقام الأسنى من بين جميع المخلوقات ذلك هو الإنسان .

ومع هذا فلم ينج الراغب الأصفهانى من أسر الذين سبقوه كإخوان الصفا فقال : « أما الإنسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ، ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة فى جدار »[4] .

ولكن فى مقالة الراغب على وجازتها تنبيه إلى أن دراسة الإنسان لا يجب أن تقتصر على الجانب الحيوانى فيه ، وإن اشترك فيه مع جميع الأحياء ، وإن ما يجب النظر فيه ذلك الجانب الروحى القائم على أسس يستمدها من عقيدته ، ولهذا فإن إخوان الصفا ، وهم يأخذون بكل أطراف العلوم ، قصروا فى معالجتهم للإنسان ، فكانت أفكارهم فى النشوء والارتقاء لا تزيد عن كونها درجة من درجات التفلسف ، أما هى عند الأصفهانى فغاية طيبة ؛ ذلك لأن ارتقاء المخلوقات برأيه ليست إلا وسيلة وأطواراً يمر بها الخلق للوصول إلى حتمية خلق المخلوق صاحب المقام الأسنى بين المخلوقات – أى الإنسان – ذلك المخلوق الجدير بالخلافة والتكريم .

---

(١) البقرة : ٣٠ .
(٢) الراغب الأصفهانى : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص ٢٤ ، ٢٥ سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ٢٨ أبريل ١٩٦١ م .
(٣) الإسراء : ٧٠ .
(٤) الراغب الأصفهانى : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٨٦ .

ثالثاً : ابن مسكويه :

ويكاد ابن مسكويه يرى فى تطور الإنسان وارتقائه فى قصد الإنسان تحقيق الكمال، للنوع الإنسانى كله بخبراته الإنسانية التى اختص بها من دون المخلوقات كلها ، بملكاتها الكثيرة التى لا يحوزها إنسان واحد ، « فيتم للجميع بمعاونة الجميع الكمال الإنسانى »[1] « بالحكمة وهى معرفة الأمور الإلهية وتعلمها ، والأمور الإنسانية ، وأن يتعرف المفعولات أيها يجب أن يفعل ، وأيها يجب أن يغفل »[2] .

وإن أسمى ما يرمى إليه الإنسان – فى رأى ابن مسكويه – هو تحقيق العدل بين الناس ، الذى لا يقدر على تحقيقه مخلوق من بين المخلوقات سوى الإنسان والعدل « فضيلة لا تتحقق للنفس إلا من حيازة الفضائل الثلاث التى لا تتحقق للإنسان وحده دون سائر المخلوقات وهى : الحكمة والعفة والشجاعة .فبالعدالة يحدث للإنسان سمة يختار بها أبداً الإنصاف من نفسه على نفسه أولاً ، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله »[3] .

إذن فالارتقاء عند ابن مسكويه أساسه : « صناعة الأخلاق التى تعنى بتجويد أفعال الإنسان بحسب ما هو إنسان »[4] .

ولقد بنى ابن مسكويه أفكاره على فرض التسامى بين الأجسام الطبيعية حتى فى النوع الواحد : « فإن الأجسام الطبيعية كلها تشترك فى الحد الذى يعمها ، ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة ، والصور التى تحدث فيها ، فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التى لا تقبل تلك الصورة ، فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات ، صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد »[5] .

وكما يتفاضل الجماد يتفاضل النبات : « لأن كرام الشجر كالزيتون والرمان

---

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ٢٣ .
(٢) نفسه : ص ٢٦ .
(٣) نفسه : ص ٢٧ .
(٤) ابن مسكويه المرجع السابق ص ٤٦ ويلاحظ أنه سابق للراغب الأصفهانى ، والراغب لاحق له .
(٥) نفسه : ص ٧٦ .

والكرم وأصناف الفواكه تفوق غيرها من النبات الذى ينبت من غير زرع ولا بذر ، ولا يحفظ نوعه بالثمر والبذر »[1] .

« والنخل هو أكرم النبات لما يتميز عن غيره من النبات ، عندما يطل فى أفق الحيوان ، بما يتميز به من ذكورة وأنوثة ، ولا يرى بين النخل وبين الحيوان إلا مرتبة واحدة ، وهى الاطلاع من الأرض والسعى إلى الغذاء »[2] .

وكحال الجماد والنبات يكون حال الحيوان ، فهو يظل يتفاضل ويحوز الشرف حتى « يحاكى الإنسان من تلقاء نفسه ، ويتشبه به من غير علم كالقرود وما أشبهها ... وأول المراتب من الأفق الإنسانى المتصل بآخر ذلك الأفق الحيوانى ، مراتب الناس من الأعم التى لا تميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة ... وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل ، واقتنائها بالإرادة والسعى والاجتهاد ، حتى يصل إلى آخر أفقه ، فإذا صار إلى آخر أفقه ، اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى مراتب الإنسان »[3] .

إن التطور - كما استبان من كلامهم - ليس تطوراً عضوياً للأحياء ، أو ارتقاء فحسب ، وإنما هو ارتقاء متواصل للإنسان الذى يخضع لفعل الطبيعة ، والذى يقبل الفضائل باستمرار ، ولقد سار علماء المسلمين على هدى ثقافاتهم وفكرهم الدينى ، فأسسوا أفكارهم وواءموا بينها وبين نشأة الكون والحياة عليه ، ولقد سيطر هذا التفكير على نظرتهم للأشياء الكونية كلها ، حتى أخضعوا لها طرقاً كثيرة من طرق التعبير عندهم .

يقول الغزالى فى الإحياء : « إن الإنسان من حيث يتغذى وينسل فهو نبات ، ومن حيث يمشى ويتحرك بالاختيار فحيوان ، ولا تتحقق الإنسانية ، بل والملائكية فيه إلا بامتلاك خاصية ؛ وهى معرفة حقائق الأشياء باستعمال جميع أعضائه وقواه ، على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل »[4] وبقدر عمله بما علم يكون ارتقاؤه غير محدود إلا بحدود ما يحصل عليه من علم مادام يحصل العلم ويعمل بما علم .

---

(١) نفسه : ص ٧٧ .
(٢) نفسه : ص ٧٧ .
(٣) نفسه : ص ٧٩ - ٨٠ .
(٤) الإمام الغزالى الإحياء ٣ / ٩ وهذا الكلام مأخوذ من كلام الراغب فى الذريعة ص ٨٦

لو علمنا أن الإمام الغزالى كان يمهد بهذا الكلام لاستنباط مسألة فقهية لعلمنا مبلغ اهتمام العلماء المسلمين فى شتى المجالات بقيمة العلم والعمل فى الارتقاء الإنسانى ، وسيطرتهما على قيم الارتقاء فى الإنسان .

وربما أعوز العلماء العرب المسلمون فى ذلك الوقت أدوات البحوث التجريبية الدقيقة ، كما هو متاح لنظرائهم فى العصر الحديث ، إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة دورهم وأهميته فى السعى للرقى الإنسانى ، ومع هذا قد أسسوا قواعد نظرية بدأت ذهنية ؛ لتكون بمثابة خطة علمية دقيقة لنشوء الأحياء وتطورها وارتقائها ، كما جاء عند لامارك ووالاس ودارون ففكرة لامارك ١٨٠٩ م التى رأى فيها : « أن الحياة بدأت من مادة هلامية ، تشكلت وتطورت على مر الأزمنة البعيدة إلى مراتب وفصائل من الكائنات معقدة التركيب »[١] توافق ما جاء عند إخوان الصفا فى مقولتهم عن خضراء الدمن وهى أصل الحياة – بزعمهم – ولا أصل لها « فهى ليست بشىء سوى غبار تلبد على الأرض والصخور والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بالفداة خضراء كأنه نبت وحشائش »[٢] .

كذلك يوجد شبه بين ما نادى به لامارك من « أن تطور الأعضاء يتم وفقاً لمقتضيات البيئة وحاجة الحيوان لها »[٣] وأن الانتخاب الطبيعى فى رأى (دارون) يعطى الحيوان صفات نافعة له بالذات ... أما إذا اعترى الحيوان أى تغيير من شأنه أن يضر بتكيفه بالبيئة ، كأن ينقل جسمه فى بيئة تحتاج إلى الحركة السريعة والخفة ، أو رقّ جلده فى بيئة باردة تحتاج لجلد سميك ، فإن هذا الحيوان لا محالة هالك »[٤] ، وبين ما قال به علماء المسلمين منذ قرون طويلة ، ففى كلام العلماء المسلمين وجوه شبه كبيرة بذلك يقول إخوان الصفا : « إن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضوا لا يحتاج إليه » [٥] ، ويقول ابن مسكويه – فى المعنى نفسه – : « فأما أنه لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله ، ولقلة شجاعته ، ونقصان قوته العضبية ، ولأنه لو أعطيه

---

(١) د . أنور عبد العليم · قصة التطور ص ٤١ سلسلة كتب ثقافية .
(٢) الرسالة العاشرة من رسائل إخوان الصفا .
(٣) د . أنور عبد العليم : قصة التطور ص ٤١ .
(٤) د . السيد بدوى : أصل الأنواع لدارون ، تراث الإنسانية ، المجلد ٢ ص ٩٨٨ .
(٥) الرسالة العاشرة لإخوان الصفا

لصار كلا عليه ، فقد أعطى آلة الهرب »[1] .

ولقد اعتقد كل من ابن مسكويه ، وداروين أن الإنسان لم ينحدر مباشرة من القرد ، ولكن من إنسان أدنى أقل مرتبة من الإنسان المتطور ثم اختار مرحلة تطور فائقة اكتسب فيها العقل »[2] .

ويظل الإنسان يرتقى بالعقل والفهم والمعرفة والتوسع فيها ، والتوسل منها ، إلى العلوم الإلهية ، وبذلك يتم ارتقاء الإنسان الذى عبر عنه ابن مسكويه فقال : « وحين إذن تستعد (أيها الإنسان) لقبول مواهب الله عز وجل ، وعطاياه فيأتيك الفيض الإلهى ، فتسكن عن قلق الطبيعة ، وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية ، وتلحظ المرتبة التى ترقيت فيها أولا فأولا من مراتب الموجودات » .

« وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما قبلها فى وجودها ، وعلمت أن الإنسان لا يتم له كماله إلا بعد أن يحصل له ما قبله » .

وإذا صار إنسانا كاملاً ، وبلغ غاية أفقه ، أشرق نور الأفق الأعلى عليه ، وصار إما حكيماً تأتيه الإلهامات ، فيما يتصرف فيه من المحاولات الحكمية ، والتأييدات العلوية فى التصويرات العقلية .

وإما نبياً مؤيداً يأتيه الوحى على ضروب المنازل التى تكون له عند الله تعالى ذكره فيكون حينئذ ، واسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل »[3] .

وليس فى ذلك أدنى مبالغة ففى الحديث القدسى : « وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى عبدى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره

---

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٧٨ .

(٢) ابن مسكويه ص ٧٩ وأنور عبد العليم : قصة التطور ص ٦٩ وإسحق اسيموف · الحقيقة والخيال ص ٣٠٦ ترجمة د . جمال الفندى ، د . جابر عبد الحميد جابر ، دار المعارف مع مؤسسة فرانكلين سنة ١٩٦٢ م .

(٣) ابن مسكويه . تهذيب الأخلاق ص ٨٠ – ٨١ .

مساءته »[1] .

ولكن ثمة فرقاً جوهرياً بين أصل الأفكار عند المسلمين ، وبينها عند غيرهم من التطوريين ، لقد كانت نقطة الانطلاق عند العلماء المسلمين طلب البرهان على تكريم الإنسان في خلقه وخُلقه وارتقائه ، قاصدين في الوقت نفسه الوصول إلى أدلة العلم الاستدلالي ، ليزيد إيمانهم ويقينهم بالعلم الضروري ، أما الطبيعيون من علماء الأحياء الأوربيين ، فقد راموا العلم الاستدلالي ليقفلوا به باب العلم الضروري ، فشتان بين مقصود كل من الفريقين ، فالفريق الأول : سعى باليقين الإيماني ، أما الفريق الثاني : فإنه سعى لنبذه وتجاهله .

هناك مسافة مذهبية كبيرة بين هؤلاء وهؤلاء ، وهي أن مفكري الإسلام إلهيون - وسواء وفقوا إلى نتائج علمية حاسمة ، أم لم يوفقوا ، وسواء تقبل أفكارهم أو ترفض من الإسلاميين أو غيرهم « فقد وضعوا نصب أعينهم الوحي ومعطيات الدين ، مع الاستعانة بالعقل والحس في فهم الكون والحياة ، أما مفكرو الغرب وعلماؤه فقد انطلقوا في بحوثهم من الحس والمحسوس ولم يعولوا على الغيبي »[2]الإلهي .

هذا ولقد أرجع بعض العلماء جذور نظرية التطور الدارونية إلى منظومة طويلة من التطورات السياسية والاقتصادية بدخول العالم الغربي العصر الصناعي ، وما ترتب عليه من تطورات جذرية في بنية المجتمع الغربي حتى قضت سلسلة التطورات على البيئة الاجتماعية ذات الأصول الإقطاعية لكي تحل محلها البيئة الاجتماعية البرجوازية ، فالتطورية البيولوجية التي سبق إليها (سبنسر) و (بوفون) و (لامارك) وغيرهم حتى انتهت إلى (دارون) ، إنما هي حلقات في منظومة التطور العام في العالم الغربي ، وكانت بمثابة متوالية لأفكار سياسية واقتصادية عند (لوك) في القرن السابع عشر ، وتبريره للثورة في إنجلترا سنة ١٦٨٨ م ، والتي تمخض عنها إعلان حقوق الإنسان ، الذي برر بعد ذلك قيام الثورة الفرنسية ، ثم كتابات الموسوعيين الفرنسيين أمثال : (ديدرو) و (روسو) و (مونتسكيو) و (فولتير) وغيرهم حتى إعلان الاستقلال الأمريكي .

---

(١) أخرجه البخاري جـ ٨ / ١٣١ كتاب الدعوات - باب التواضع .

(٢) د . كارم السيد غنيم في نقده لكتاب نظرية التطور عند مفكري الإسلام - دراسة مقارنة ص ٢٩٦ ، مجلة المسلم المعاصر السنة ١٣ العدد ٥١ ، ٥٢ .

وباختصار كان كل ذلك بمثابة « إضفاء الشرعية على اللامساواة »[1] وإن نادت كلها فى الظاهر بأن الناس كلهم متساوون ، وأن من حقهم التمتع بالحرية ، ذلك لأن الإنسان فى المفهوم السياسى الغربى ابتداء من (لوك) ١٦٣٢ – ١٧٠٤ م خضع أولاً لقانون الطبيعة ، ثم حدث له تطور اجتماعى جذرى وتطور إلى حال : « يفترض فيها على الإنسان أن يكون على بينة من القانون المدنى ، ويتحتم عليه حينئذ أن يلتزم فى كل تصرفاته حدود هذا القانون »[2] .

ثم كانت تطورية (دارون) حلقة كبرى فى سلسلة التطور تلك ، لتبرز دور الأيديولوجيات التى تبين اختلاف الناس فى أصل اللامساواة فى مدركاتهم الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية ، على أن يكون الدليل على إبراز هذا الدور قائماً على أساس الفروق البيولوجية الأصلية فى تكوين الإنسان فى حلقات تطوره .

لسنا – ههنا – فى مجال الموازنة بين إنجاز علماء المسلمين القدامى ، وإنجاز الغرب فى العصر الحديث فى علم الارتقاء الحيوانى للكائنات – فلكل من العرب المسلمين ، والغرب ظروفهم الخاصة ، وإمكاناتهم وملابسات حياتهم ، ومسار حضارتهم ومقصوده . ذلك بأن المسلمين قصدوا الارتقاء ، وكان مقصودهم من فهم قرآنهم الذى نشد تكريم الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾[3] أما الآخرون فأنانيون لا يرومون إلا مصالحهم الذاتية ، وإن أدى ذلك إلى تدمير غيرهم من بنى البشر .

ولكن يبقى شىء هام ظل يؤكد سمو الهدف عند علماء المسلمين ، فارتقاء الإنسان وتطوره عند علماء المسلمين ، إنما هو نشدان تجويد أفعال الإنسان المؤمن بفطرته وحيازته لسائر الفضائل ، أما الهدف عند علماء الغرب فلا يزيد عن كونه رصد مسيرة حيوان نشأ وتطور وارتقى – بزعمهم – إلى مرتبة عليا من مراتب الثدييات أو الفقاريات ، فهم من بدايتهم حتى الدارونية ، لم يهتموا بالإنسان إلا من حيث كونه

---

(١) روز : علم الأحياء والأيديولوجيا الطبيعية البشرية ، ص ٢٩١ عالم المعرفة رقم ١٤٨ رمضان سنة ١٤١٠ هـ

(٢) لوك : الحكومة المدنية ص ٥٣ ، سلسلة اخترنا لك رقم ٨١ .

(٣) الإسراء . ٧٠ .

مخلوقاً يعود بنسبه السلالى إلى عالم الحيوان ، دون ما اعتبار إلى الجانب الفكرى أو الشعورى أو الخيالى ، لقد كان كل همهم أن يثبتوا نسب الإنسان السلالى إلى أسلافه الحيوانيين الغارقين فى أغوار التاريخ .

وكانت النظرية التى صاغها المسلمون قد وضعت فى القالب العلمى ، وهى فى الثقافة الإسلامية تخضع لكثير من المقولات العقلية ، وللتصورات الدينية التى تتصل اتصالا مباشراً بالصورة الكريمة للخلق فى القرآن ، وعلى رأسها الإنسان ، ولهذا يقول بعض الباحثين : « إن مفكرى الإسلام لم يقصدوا التطور الذى قصده (داروين) وإنما قصدوا تبيين التدرج فى خلق الكائنات بحيث وجدت المعادن أولاً ، ثم وحد النبات ، وبعده الحيوان ، ثم احتل الإنسان أرفع المراتب وأشرفها ، فالترتيب هنا قائم على مبدأ الأفضلية والشرف ، وحتى لو أنطقنا مفكرى الإسلام بنظرية (داروں) سيبقى اختلاف آخر بينهم وبينه ، وهو أنه يعتبر الإنسان الدنيوى غاية مراحل التطور ، ولكنهم يعدون الموت الدنيوى فى النهاية « طورا من أطوار التطور العام ومراحله إلى الحياة الدائمة »[1] .

وهذا بالتأكيد يخالف الغاية التى رامها (داروں) ومں جاء بعده من التطوريين البيولوجيين الاجتماعيين الذيں أسسوا للدعاوى الثلاث لحتميتهم البيولوجية المزعومة لتدعيم مجتمع اللامساواة ، وأرجعوا دلك إلى طبيعة تطور أفراد النوع الإنسانى فى ثلاث دعاوى وهى :

الأولى : أن أوجه اللامساواة فى أى مجتمع هى نتيجة مباشرة لا يمكن تجنبها لوجود فروق بين الأفراد لما جبلوا عليه من جدراتهم وقدراتهم ، ويستطيع أى فرد أن ينجح فى الوصول إلى القمة ، لكن وصوله أو عدمه أمر يترتب على القوة أو الضعف الفطريين للإرادة الشخصية .

الثانية : إنه بينما تترتب الأيديولوجية الليبرالية على حتمية ثقافية تؤكد على البيئة والتعليم ، فإن الحتمية البيولوجية تعيد ما يحققه المرء من نجاح وإخفاق فى الإرادة والشخصية إلى الشفرة الموجودة فى جينات الفرد ، فالجدارة والقدرة تمران من جيل إلى جيل من خلال العائلات .

---

(١) د كارم السيد غنيم : المرجع السابق ص ٢٩٨ .

الثالثة : إن وجود هذه الفروق البيولوجية بين الأفراد يؤدى بالضرورة إلى خلق المجتمعات الطبقية ؛ لأن تكوين طبقات فى الوضع الاجتماعى ، والثروة والسلطة جزء من الطبيعة البشرية المجتمعة بيولوجيا .

وهذه العناصر الثلاثة كلها ضرورية للتبرير الكامل للتنظيمات الاجتماعية الحالية »(1) .

وهكذا أوجد البيولوجيون الاجتماعيون فى نظرية دارون مبرراً من وجود الفروق البيولوجية التى زعموا أنها مجتمعة فى أفراد الجنس الإنسانى تؤدى بطريقة حتمية إلى خلق طبيعة بشرية غير متساوية فى المواهب والقدرات ، ومن ثم تكون ذريعة لتبرير الفوارق السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين البشر ، وبين شعب وشعب ، بل بين أفراد المجتمع الواحد الذين تتاح لهم فرص متساوية ويتحركون فى مجتمعهم كذرات اجتماعية ، فيرتفعون أو يسفلون كل بحسب قدراته الفطرية المركبة فيه بيولوجيا . وهكذا يزعمون وفقاً لنظريتهم التى هيأت لهم الاعتقاد بمزايا شعوب - كالشعوب البيضاء - وتفوقها على شعوب أخرى ، ومن ثم يتسنى لها طبقاً لهذا المفهوم أن تسود عليها وتسخرها ، وتسلب خيرات أرضها .

لم يكن (دارون) إلا الحلقة الأخيرة فى نهاية الحلقات فى هذه السلسلة المعقدة التى مهدت لحتمية الصراع التنافسي المعاصر ، اعتماداً على نظرية الانتخاب الطبيعى ، وحتمية الفور للأقوى ، سواء استند على شرعية ، أم استند على قانون الغاب بعد تزييه وتزييفه .

السياسيون الاحتماعيون مثل (هوبز) وأتباعه ، والدارونيون الاجتماعيون ، يؤكدون على حتمية صراع الكائنات من أجل البقاء ، وأن التنافس بين الكائنات يكون نتيجة تكاثرهم الذاتى ، ومن ثم سعى الأقوى للبقاء ، وفى هذه الحالة يفترض أن تكون البيئة أحد طرفى الصراع « ودارون نفسه ومعظم أتباعه كانوا يؤكدون على الصراع التنافسي بين الكائنات الحية ، ويجب ألا نندهش لذلك فسيطرة مبدأ (الهوبزية) على فكر دارون دليل أيضاً على الأصول (المالتوسية) لكتابه (أصل الأنواع) وعلى انتشار

---

(1) استيفن رور وليون كارمن - وريتشارد ليونتن : علم الأحياء والأيديولوجيا الطبيعية البشرية ص ٩٧ ، ٩٨ عالم المعرفة رقم ١٤٨ رمضان ١٤١٠ هـ - أبريل ١٩٩٠ م .

العلاقات التنافسية فى المجتمعات ، فقد نقل (دارون) فكرة التنافس من المجتمع إلى البيولوجيا ، وكان (سبنسر) قد صاغ من قبل مصطلح البقاء للأصلح فى مؤلفه « ثوابت اجتماعية » عام ١٨٦٢ م.

من الأفضل إذن أن نطلق على الدارونية الاجتماعية بشكلها الذى اتخذته فى أواخر القرن التاسع عشر (المذهب السبنسرى) أما تبرير رأسمالية (دعه يعمل) على أساس من النظرية الدارونية ، فقد أكمل الحلقة التاريخية فقط ، وهكذا أصبحت الدارونية تستخدم فى أواخر القرن التاسع عشر ، وبدايات القرن العشرين لتدعم عن طريق الاشتقاق الثانوى ، النظرية (الهوبزية - المالتوسية - السبنسرية) التى تقول : إن المجتمع يتقدم ببقاء الأصلح فى صراع تنافسي ، والنشاط الذى يحسن استغلال الفرص ، وإخضاع جماعة لأخرى ، وإخضاع الأعراق الدنيا كلها (للأعراق الأعلى) لأنها كلها جزء من الطبيعة البشرية ، يخضع لقانون كلى للبقاء ، ولكن أليس من الغريب أن يصر الدارونيون على ثمة عملية من الارتداد (الاشتقاق اللغوى) والتنظير البيولوجى ، حتى تنطبق الأعراف البشرية الاجتماعية على الحيوانات بصورة استعارية مجازية ، ثم يعاد استقاء السلوك البشرى من الحيوانات ، كما لو أن الأمر حالة خاصة من ظاهرة عامة تم اكتشافها على نحو مستقل فى الأنواع الأخرى »[1] .

« إن انبعاث الدارونية الاجتماعية فى عصرنا يقوم على قاعدة أن المعتدى الناجح هو الذى يهيمن على المجتمع ، وأن هذه السمة الموروثة لابد أن ترسخ من يملكها ، فيما يترتب على الضعيف أن يتعلم الرضوح ويعتاده ويتقبله .

إن هذه النظرية تطرح بوصفها دعما بيولوجيا للمذهب الفردى التنافسى إلا أنها يمكن أن تكون أيضاً نظرية مستندة إليه ، ومشتقة منه ؛ لأن (دارون) اقتبس الفكرة من (مالتوس) الذى ذكر أن الحرب والمرض والمجاعة عملت باستمرار على تقليص فائض السكان ، كما لقى المذهب الفردى التنافسى دعما اقتصاديا من (آدم سميث) وهكذا كان يوجد مناخ أيديولوجى كان فيه الصراع ، وبقاء الأصلح وظهوره بمثابة مفاهيم تحظى بدرجة كبيرة من القبول ، وأصبحت النظرية بدورها مبرراً للنظام

(١) رور وآخرين : مرجع سابق ص ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٤٨ .

الاجتماعى ، وشجعت على توسعه وتطوره »[1] .

وعلى كل حال فإن حقيقة الخلق كما تصوره العلماء والفلاسفة فى الشرق والغرب منذ العصور القديمة حتى عصر العلم الحديث ، لم تكتمل بالصورة التى يقبلها العقل دون أن يتداعى إليه الشك ، ودون أن تنتابه الحيرة ، فالمشكلة الكبرى تتمثل فى أنه لم يوجد عالم استطاع أن يسط أو يتسىئ تفسيراً يوضح سبب التطور ، ونظرية (دارون) لا تسلم من النقد الموجه إليها من الدارونيين أنفسهم ، وإن الآراء الكثيرة التى تحاول أن تصور نشأة الحياة والأحياء على الأرض لا تزيد عن كونها « فروضاً عامة قابلة للتصور ، كما أنها قابلة للنقض ، والمطلوب قلب هذه الآراء إلى فروض عامة متمرة ، تنتج من النتائج الفكرية ما يمكن تحقيقه فى حقل أو معمل ، فهذا هو الإثمار »[2] .

العلماء ينظرون إلى نظرية (دارون) بوصفها مجرد افتراض علمى ، لم ترق أبداً إلى مستوى الحقيقة العلمية ، وإن النشوئيين قد تبنوا موقفاً غير علمى فى قبولهم لها ، وهو رفض الإيمان بوجود الخالق لهذا الكون ، وبقدرته وصفاته . ثم هى قد صادفت هوى وقبولاً لدى كثير من الناس لما تنطوى عليه من إيحاءات قوية بحيوانية الإنسان »[3] وغاب عن هؤلاء وأولئك جميعاً أن الخلق كله لله عز شأنه ، وأن كل ما خلا ذاته سبحانه وتعالى من صنعه ، وقد بين القرآن الكريم ذلك وفصله ، كما بينته السنة الشريفة ، وهو ما يجب أن يلتزم به المؤمن .

الإنسان فى ضوء نظرية دارون :

الإنسان طبقاً لهذه النظرية لا يزيد عن كونه حيواناً ، بل قد يتفوق أى حيوان عليه ، إذا ما حقق نجاحاً تطورياً يفوق تطوره ، أو على حد تعبير البيولوجى الداروني (جوليان هكسلى) : « إن كل الكائنات الحية الموجودة فى الكون متساوية القيمة ،

---

(١) جون لويس : الإنسان ذلك الكائن الفريد ص ١٢٢ ، ترجمة د صالح جواد الكاظم ، سلسلة الألف كتاب الثانى ، رقم ١٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ م .

(٢) جيمس كونانت : مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ص ٤٠٧ ترجمة د . أحمد زكى – المعارف سنة ١٩٦٣ م .

(٣) د. كارم السيد عيم . المرجع السابق ص ٢٩٧ .

وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية ، ومن المسلم به أن الإنسان بمفهوم الدارونية — فى الوقت الحاضر فقط — .هو سيد المخلوقات ، ولكن قد تحل محله النملة أو الفأر » إذا تجاوز بتطورها تطوره وفاقه يوماً ما .

وهكسلى عالم بيولوجى مادى مغرق فى المادية ، ودارونى أكثر من دارون نفسه ، فهو يرى أن نظرية دارون لم تكتمل بعد ، ولهذا يلتمس لدارون العذر فيزعم أن دارون « كان قادراً على إدارك التطور ، ولكنه لم يستطع رسم الخطة التى يتبعها التطور فى مسيرته ، ولقد ترك ذلك لعلماء الأحياء من الأجيال العديدة المقبلة »[1] .

إن هكسلى يرى الإنسان فى إطار هذه النظرية عاجزاً عن تجنب كونه حيواناً فقد « رأى نفسه حيواناً غريباً جداً »[2] ومن جهة أخرى فهو لا يرى فى القيمة البيولوجية أى تفاضل للإنسان على أى حيوان آخر ، فالإنسان قد نصب نفسه سيداً على هذا الكون ، وقد يكون ثمة تسليم من قبل المخلوقات بذلك ، ولكن إلى متى تستمر هذه السيادة ؟ ذلك هو السؤال الذى أرق هكسلى ، فقد ينتهى التطور على مر الأزمان بنقل هذه السيادة ، وعند ذلك تسلب منه فتحل محله النملة أو الفار .

ولأن هكسلى مادى مغرق فى ماديته ، يرفض الأديان ومعطياتها الطيبة بخلق الإنسان ، ولا يعبأ بالسيادة « التى أنعم بها الله تعالى على الإنسان من قبل الأديان » فقد أراد أن يخلخلها ليضع مكانها ولى نعم آخر ، هو التطور ، فهو الذى منح الإنسان تلك السيادة ، فالجسم الإنسانى هو المخلوق الوحيد الذى منحه التطور ، بزعمه مخاً قادراً على التفكير التصويرى والتعبير ، وامتلاك قدرة التجميع لعمليات العقل ، ومنها القدرة على التجريد والتحليل ، وتمسكه بتقاليد وموروثات اجتماعية وعقائدية ونحو ذلك .

والفكرة التى أقلقت (جوليان هكسلى) هى : ماذا سوف يحدث للإنسان سيد المخلوقات فى المليون سنة القادمة ؟ وهى الفكرة التى أقلقت إخوان الصفا منذ أكثر من ألف عام ، ولكن بتصور آخر ، ولغاية أخرى ، فأفردوا لها أكبر رسائلهم ، وهى الرسالة الحادية والخمسون التى ختموا بها رسائلهم (رسالة الإنسان والحيوان)

---

(١) جوليان هكسلى . الإنسان فى العالم الحديث ص ٢ سلسلة الألف كتاب الأولى د ت .
(٢) نفسه ص ٢٨١ .

ودللوا بها على جماع فكرهم ، وغاية أهدافهم وهى : أن الحيوان لم يخلق لكى يستعبده الإنسان – على الأقل – من جهة نظر علم الحيوان – ولكن شتان ما بين مقصودهم منه عند (جوليان هكسلى) فقد كان هدفهم أسمى ؛ لأنهم راموا دعوة الإنسان كى يكف عن الاستبداد ، فلا يكون جبلة فيه ، يظلم به البشر أو الحيوان ، ولما لم يقدروا على التصريح ، لجأوا إلى الرمز والتلميح ، فسردوا كل أفكارهم عن استئناس الإنسان للحيوان والطير ثم استعباده وتسخيره بعد استئناسه ، وإذاقته صنوف العذاب ، فى محاكمة هى غاية فى الرمز والدقة ، والدلالة على المقصود »[1] .

أما هكسلى وإن اتخذ الوسيلة نفسها ، وتذرع بنفس الذريعة ، إلا أن غايته كانت بيولوجية صرفة . وإن قال : « إن الحيوانات لم تخلق لخدمة الإنسان ، ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة ، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس »[2] وهو بذلك لم يفرق بين الإنسان ونملة ودودة .

إذن فأين الإنسان الفذ الذى يُفاضل بينه ، وبين إنسان فرد آخر فى النوع الإنسانى نفسه ، وإن التفاضل يكون بين إنسان وإنسان بمدى إيمانه وعلمه وعمله بما علم . وبمدى الالتزام بأخلاق الجماعة ، وما يؤديه لبنى جنسه فى العالم الإنسانى كله من خير ومنفعة .

ومهما يكن من أمر ، ومهما قيل ، فإن نظرية التطور ، سواء عند العلماء المسلمين ، أو عند علماء الغرب حتى الدارونيين ، ومحاولة إيجاد التفاسير العلمية لها ، أو التبرير أو الأخذ بها كمسلمة أمر فى غاية الصعوبة ، فالمسألة عند هؤلاء جميعاً لا تزيد عن كونها كمّاً من الملاحظات الدقيقة للأنواع وأصولها ، وبعض الافتراضات التصورية التى لا تؤيدها الأدلة القاطعة ، ولا تؤيدها قوانين علمية دقيقة كتلك التى استقرت عليها القوانين الطبيعية والرياضية ، إنها فقط فروض أرسلت بطريقة مقبولة عقلاً ، ولكنها لا يمكن التسليم بها ، وإن ظلت فروضاً تصورية فى كل الأحوال ، و (دارون) نفسه لم يقل أكثر من ذلك عندما أعلن نظريته إذ انحصر دوره كما أقر فى « جمع المعلومات وترتيبها ، للاستفادة منها فى الوقت المناسب »[3] وسيظل ما قدمه

(١) الرسالة ٥١ من رسائل إخوان الصفا .

(٢) هكسلى : الإنسان فى العالم الحديث ص ٦

(٣) السيد بدوى · أصل الإنسان لدارون ، تراث الإنسانية ، ٢ / ٩٧٧ .

داروں غير كافٍ للتثبت من كل تطورات الحياة منذ آلاف الملايين من السنين . ولهذا رأى العالم البيولوجى (روز) ورفاقه فى العمل : « أن مزاعم نظرية دارون تبدو ظاهريا كأنها نظرية علمية ، ولكنها لا تزيد عن كونها اختباراً منهجياً ، أو سوء تمثيل ، أو استقراء غير سليم للأدلة ، وأنها محملة بالانحياز ، ومنسوجة فى نظرية يائسة »[١] .

وتكاد تكون رؤية (روز) لهذه النظرية كأنها أقرب إلى الأيدلوجيات منها إلى العلم البيولوجى فى تفسير التقسيمات »[٢] لتبرر فوارق طبيعية بين الأعراق والطبقات الاجتماعية ، والشعوب أيضاً .

إن أحداً لا يقلل من قيمة الدور العلمى الذى قام به التطوريون ، ولكن هناك أشياء كثيرة لا يقدرون على إرغامنا على تصديقها أو قبولها ، ومن ثم فإن الأمر نفسه يضعف موقفهم العلمى ، وعلى سبيل المثال ، قولهم : « لم يطرأ أى تحسن على أعضاء الطيران فى الطيور منذ ١٥ مليون سنة (خمسة عشر مليوناً من السنين) أو ٣٠ مليوناً من السنين »[٣] . فهل تستطيع أدوات العلم مهما تفوقت ، وعقول العلماء مهما تقدمت ، أن تحقق أشياء كهذه بدون سند علمى يرصد تطورها فى خلال الثلاثين مليوناً من السنين ، إنها أشياء لا يمكن تصورها ، إلا من حيث هى دات سابحة فى هذا الكون لمخلوقات انقضى دورها منذ عشرات الملايين من السنين !

لقد انتهى الأمر بالتطوريين أنفسهم ، وهم يتهمون نظرياتهم بالتصورات ، خاصة فيما يتعلق بالإنسان ، ووضعه اللائق به بين الكائنات ، ومن بين القائلين بهذا القول (تشارلز دارون) الحفيد – حفيد تشارلز دارون صاحب النظرية – « فهو لا يأخذ بقول القائلين : بأن الإنسان حيوان خاضع لقانون تنوع الأنواع ، الذى يحكم على الإنسان بالبقاء بغير تبديل يذكر إلى مدى مليون سة ، ولو أخذنا بقول القائلين : بأن الإنسان حيوان يسرى عليه ما يسرى على الحيوانات المدجنة ، وهو قول مقرر فى شئون الحيوان ، غير أنه لا يؤبه به في الشئون الإنسانية ، لقضينا على فكرة امتياز الإنسان عن سائر المخلوقات »[٤] وتفسير وجوده الاجتماعى والبيولوجى .

---

(١) روز وآخرون . مرجع سابق ص ١٨٧ .

(٢) نفسه : الصفحة نفسها .

(٣) هكسلى : الإنسان فى العالم الحديث ص ٢٨٤

(٤) العقاد . القرن العشرون ، ص ٧١ .

لقد عجز دارون والتطوريون بعده عن تفسير سلوك الأفراد رغم صلاحية نظريتهم لتفسير بعض الجوانب فى سلوك البشر ، ولعل أهم ما يوضح ذلك بحث البروفسور إدوارد نلسون الأستاذ بجامعة هارفارد الذى صدر عام ١٩٧٨م والذى يؤكد فيه أن الإنسان نوع متميز منذ بدء الخليقة ، وأن امتيازه متطور فى خلاياه ، التى تتضمن صفات خاصة به وحده ، ينقلها إلى أبنائه وأجياله ، وتتطور هذه الخلايا حاملة خصائصه الوراثية تطوراً خاصاً ... ولقد أكد العلم أن الإنسان له صفات خاصة ثابتة لا يلحقها أى تغيير ؛ لأنها صفات تحملها خلاياه الوراثية ، كأنها بصمات أصابع شخص واحد لا تتغير طوال عمره ، وأن المكتشفات الجديدة تضاف إلى تلك الصفات الثابتة ولا تمحوها »[١] .

وقول الدكتور (إدوارد نلسون) أقرب إلى الصواب ، من أقوال التطوريين ، ولا يتعارض مع البيان القرآنى لخلق الإنسان .

ومن نافلة القول فإنه يجمل توضيح أننا لسنا فى مجال عمل موازنة بين آيات القرآن التى ذكر فيها خلق الإنسان ، ونظرية التطور ، فلا يستوى الطيب والخبيث .

ومنذ زمن استفتى بعض المسلمين فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر عن خلق الإنسان فى القرآن ، وهل له علاقة بالتطور كما ورد فى نظرية (دارون) فقال رحمه الله : « ونظرية التطور التى هى موضوع السؤال ، أو التى يراد بها تطور الإنسان من نوع آخر من أنواع الحيوانات ، بطريق النشوء والارتقاء لم يرفضها علماء الدين تزمتاً أو تعسفاً ، وإنما رفضوها على أساس من الدين ونصوصه الواضحة ، وعلى أساس مما قرره الدين فى رفض ما لم يدل عليه برهان أو يشهد بصحته حس أو تجربة .

ولقد جاء صريحاً فى القرآن الكريم عن خلق الإنسان [آدم أبو البشر عليه السلام] فقال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[٣] .

---

(١) ورد ضمن مقال على القاضى : الإنسان فى ميزان التربية الإسلامية ، ص ١٢٧ مجلة منار الإسلام – دولة الإمارات السنة ٥ عدد ١ محرم ١٤٠٠ هـ .

(٢) الحجر : ٢٦ . (٣) الحجر : ٢٨ ، ٢٩ .

وفى خلق الإنسان [بنى آدم] قال تعالى : ﴿ **إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾[1] وفى تطور خلق الإنسان يقول تعالى : ﴿ **يـٰأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم** ﴾[2] .

فهذا ونحوه خبر الله الصادق الذى قامت على صدقه المعجزات ، يحدث بأن الإنسان خلق نوعًا مستقلاً ، ليس متطوراً عن نوع آخر من أنواع الحيوانات ، أيا كان ذلك النوع ، وكيفما كان التشابه بينه وبين الإنسان بطريق الارتقاء عن نوع آخر ، لكان الحديث الذى ساقه القرآن عن خلقه حديثاً لا يطابق الحقيقة ، ولا يتفق والواقع ، وهو حديث صريح لا يحتمل غير مدلوله المفهوم من عباراته وألفاظه — الوحى وحده مصدر العلم بالمسائل الغيبية .

والمسألة بعد مسألة غيبية لا يتناولها الحس ، ولا محل فيها للتجربة ، وليس ثمة مقدمات عقلية يصل بها العقل إلى معرفة واقعها ، ومثل هذه المسألة من المسائل التى ينحصر مصدر العلم بها فى خصوص الخبر الصادق المؤيد بالمعجزات ، الواصل إلى الناس من عالم الغيب ، ومكون الأنواع والمخلوقات .

وقد نفى القرآن الكريم أن يكون مبدأ الخلق عامة مما يعلمه الإنسان بنفسه ، وما منح من قوى الإدراك قال تعالى : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السمـٰوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً** ﴾[3] »[4] .

وخلق الإنسان مركب من جسم مدرك بالبصر ، ونفس مدركة بالبصيرة ، وإليهما أشار تعالى بقوله : ﴿ **إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[5] ؛ لأنه بحصول النفس فى الجسم تحصل الحياة والحركة والعلم والتفكير ، والإدراك والتمييز والإرادة ونحو ذلك من القوى

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) الحج : ٥ . (٣) الكهف : ٥١ .

(٤) الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت : الفتاوى ص ٤٠٢ - ٤٠٤ ، دار الشروق ، الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٣ هـ .

(٥) ص : ٧١ - ٧٢

المركبة فى جسم الإنسان ، وهى الآيات التى تكون معرفتها مقرونة بقدرة الله تعالى على الخلق والتكوين .

قال تعالى : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[1] .

وقال عز من قائل : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[2] .

---

(١) الذاريات ٠ ٢٠ ، ٢١ .

(٢) فصلت : ٥٣ . الراغب الأصفهانى . الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٧٥

الفصل الرابع

خلق الإنسان فى القرآن ومقصوده

خلق الإنسان فى القرآن ومقصوده

يقول ابن القيم رحمه الله : « الله سبحانه بذاته وصفاته الخالق ، وما سواه مخلوق ، وكان الله ولا شيء معه ، فخلق الخلق – أى العالم – ثم صار كل ما سوى الله عالماً ، وكل ما وجوده ليس من ذاته يسبح بحمده »[1] .

وأخرج البخارى من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا : يا رسول الله جئناك لنتفقه فى الدين ، ونسألك عن أول هذا الأمر فقال ﷺ : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء »[2] .

وكتب فى الذكر كل شيء فلم يكن مع الله أرواح ، ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ، بل هو الأول وحده لا يشاركه غيره فى أوليته بوجه قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾[4] .

صور الله الجسد ، ثم نفخ فيه الروح بعد أن صوره ، فلما دخلت الروح فيه صار لحماً ودماً حياً ناطقاً .

وقال ابن القيم كذلك : « والقرآن والحديث والآثار تدل على أنه سبحانه وتعالى نفخ فيه من روحه بعد خلق جسده ، فمن تلك النفخة حدثت فيه الروح ، ولو كانت روحه مخلوقة قبل بدنه ، مع جملة أرواح ذريته لما عجبت الملائكة من خلقه ، ولما تعجبت من خلق النار ، وقالت : لأى شيء خلقتها ؟ وهى ترى أرواح بنى آدم ، وفيهم المؤمن والكافر ، والطيب والخبيث »[5] بعد أن أخذ عليهم ربهم الحجة والميثاق قال عز من قائل : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾[6] .

---

(١) ابن القيم : الروح ص ١٤٦ ، مكتبة المتنبى بالقاهرة د ت

(٢) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق ٤ / ١٢٨ ، ١٢٩

(٣) الأعراف . ١١ .

(٤) الصافات : ٩٦ (٥) ابن القيم . الروح ص ١٧٣ (٦) الأعراف ١٧٢

« وزاد على من بلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها فى نفسه ، وفى العالم ، وبالرسل المنفذة إليهم مبشرين ومنذرين ، بالمواعظ المنقولة إليهم أخبارها ، غير أنه عز وجل لا يطالب أحدا منهم من الطاعة إلا بقدر ما لزمه من الحجة ، وركب فيهم من القدرة ، وآتاهم من الأدلة »[1] .

كذلك بين القرآن الكريم أن القاعدة الجليلة التى كان عليها الخلق هى تكريم الإنسان قال تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[2] .

والتكريم بصيغة الدوام أى جعلنا لهم دوام الكرامة والفضل أولاً فى الخلق ، فقد خلقهم الخالق سبحانه فى أحسن تقويم ، أى فى الاستقامة وحسن الصورة وسخر لهم البر والبحر والجو ، والحصول على طيبات الرزق ، وهيأهم لأن يعملوا بإرادتهم وقصدهم ، وحسن تدبيرهم ، ثم فضلهم على خلقه بالعقل الذى هو عماد التكليف ، الذى به يعرفون ربهم ، ويصدقون رسلهم ، ويميزون بين الطيب والخبيث ، والكسب وتدبير الكون وحفظه .

كان الخلق من نفس واحدة قال تعالى : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾[3] أى بث تعالى منها بنى آدم فمرقهم فى الأرض كلها .

وقال تعالى : ﴿ **وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾[5] .

إن هذه الآيات الكريمة تبين أن قصة خلق الإنسان فى القرآن الكريم تخالف مثيلتها

---

(١) ابن القيم : الروح ص ١٦٤ (٢) الإسراء : ٧٠ (٣) النساء : ١

(٤) الأنعام : ٩٨ (٥) الإنسان ١ - ٣

عند التطوريين . فبينما يذكر القرآن الكريم أن الله خلق الإنسان مستقلاً من مادة جامدة هى الطين ، ونفخ فيه من روحه فصار بشراً سوياً ، بنى التطوريون نظريتهم على فرض أن الإنسان أصله كائن صدر عن حيوان ثديى لا يختلف عن سائر الثدييات فى عالم الحيوان ، ثم تطور فاكتسب بعض الصفات التى ميزته عن الحيوانات الأخرى فى أزمان طويلة . من خلال تطوره كاستقامة الجسم ، والمشى على قدمين ، واتساع فراغ الجمجمة ، وغير ذلك من الصفات التى ميزته على غيره من المخلوقات وسودته عليها .

إن أكبر وجوه الخلاف بين ما ذكره القرآن الكريم ، وما زعمه التطوريون : أنهم رأوا أن الإنسان طور أعلى فى تطور الثدييات .

ولكن القرآن الكريم أكد أن الإنسان نوع مخصوص بذاته من الخلق ، ونفى القرآن الكريم أن يكون الإنسان نوعاً منتقى ، أو ارتقى عن نوع آخر من المخلوقات غير نوع الإنسان نفسه ، وهذا ما توضحه الآية الكريمة : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً** ﴾ .

ولهذا يؤكد القرطبى رحمه الله فى تفسيره المعنى المقصود من هذه الآية فيقول : « إن الإنسان لم يكن شيئاً مذكوراً فى الخلق ، وإن كان عند الله مذكوراً »[١] لأنه كان مقصود العالم وعمارة « فما نعلم خليفة لله جل ثناؤه خلق بعد الإنسان»[٢] قال تعالى: ﴿ **الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾[٣]

وهذا هو خلق آدم أبى البشر ، أما بنوه فقد خلقوا أطوارا كما قال تعالى : ﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾[٤] ﴿ **خلقاً من بعد خلق** ﴾[٥] .

أول خلق الإنسان من ماء :

الإنسان مثله كمثل كل المخلوقات ، أصله الماء ، وليس الماء المقصود هنا هو (الماء المهين) الذى ورد ذكره فى قوله تعالى : ﴿ **ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾[٦] كذلك ليس فى قوله تعالى : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾[٧] .

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ٦٩١٠ طبعة الشعب
(٢) نفسه الصفحة نفسها (٣) السجدة ٧ (٤) نوح ١٤
(٥) الزمر ٦ (٦) السجدة ٨ (٧) المرسلات ٢٠

كدلـك ليس من الماء الدافق الذى ورد فى قوله تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾[1] .

فالماء الدافق ههنا كان طوراً آخر تالياً من أطوار الخلق ، ولكن الماء المقصود هو ذلك الماء الذى هو أصل الحياة ، الذى جعله الله أصل كل شىء فى قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شىء حى** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً** ﴾[4] .

خلق الإنسان من طين :

وجاء طور خلق الإنسان من طين ، بعد طور خلقه من الماء ، ويفرق القرآن الكريم بين طورين من أطوار الخلق فى الإنسان : طور الخلق من الطين ، وطور الخلق من الماء المهين . فالأول : خاص بالإنسان أبى البشر آدم عليه السلام ، أما الآخر : فهو خاص بالإنسان من سلالة آدم ، فآدم كما صوره القرآن الكريم بدأ خلقه من الطين ، ولو كان للطين درجات بين الليونة واليبوسة فهو طين فى كل الأحوال ، وسواء رمز له بالأرض أو التراب ، أو الطين أو الصلصال أو الفخار ، فكلها مادة واحدة فى حالات مختلفة . قال تعالى : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب** ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾[7] .

---

(١) الطارق . ٥ – ٧ (٢) الأنبياء : ٣٠ (٣) النور ٤٥
(٤) الفرقان . ٥٤ . (٥) طه ٥٥ (٦) الحج . ٥
(٧) الروم ٣٠

﴿ والله خلقكم من تراب ﴾[1] .

﴿ هو الذى خلقكم من تراب ﴾[2] ..

﴿ هو الذى خلقكم من طين ﴾[3] .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾[4] .

﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناكم من طين لازب ﴾[5] .

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ﴾[6] .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾[7] .

﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾[8] .

ولقد رأى المفسرون أن الإنسان المذكور فى هذه الآيات ، هو آدم عليه السلام ، أول مخلوق من البشر ، قال القرطبى رحمه الله: « يعنى خلق أباكم آدم من الطين ، وخرج اللفظ على الجمع »[9] .

والغالب على كلام المفسرين فى ذلك ، أنه سبحانه وتعالى أنشأ آدم من كل طين الأرض ، على اختلاف هيئتها ، فكان بعضهم أنور من بعض ، وبعضهم أشد سواداً من بعض »[10] .

وهذا ما نص عليه الإمام القرطبى رحمه الله فى تفسيره إذ قال : « خلقهم من سلالة سلت من كل بقعة ، ولذلك اختلفت أخلاقهم »[11] وألوانهم .

ولعل اختلاف درجات اللونة واليبوسة فى الطين ، يعنى أن الطين ذاته مر بأطوار ، فسلالة الطين نفسه كما رأى بعض المفسرين : « أنها الطين نفسه إذا عصرته

---

(١) فاطر : ١١ (٢) غافر ٦٧ (٥) الصافات ١١

(٣) الأنعام ٢ (٤) المؤمنون . ١٢ (٨) الرحمن . ١٤

(٦) ص ٧١ . (٧) الحجر ٢٦

(٩) القرطبى . الجامع لأحكام القرآن ص ٦٢٧٩ ، طبعة الشعب

(١٠) القشيرى - تفسير لطائف الإشارات ٤ / ٢٤١ تحقيق د إبراهيم بسيونى - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - الطبعة الأولى د ت .

(١١) القرطبى - الجامع لأحكام القرآن ص ٤٥٠١ طبعة الشعب

انسل من بين أصابعك ، فالذى يحرح هو السلالة »[1] .

إذن فهدا هو الطين الرطب ، ثم كان الطور التانى «الصلصال من حمأ مسنون قبل أن يسوى بالنار فيصير كالفخار .

كان هذا شأنه عز وجل فى خلق آدم من طين . أعد سبحانه مادة الطين ليكون أصل مادة الإنسان ، تم صوره ربه عز وجل فى أحسن صورة ، وبث فيه الحياة . قال تعالى: ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ أى صور آدم الذى عنى به الإنسان وأكرمه بالسجود ، وقد اختلف المفسرون فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ فقال بعضهم معناه : خلق آدم ثم صور بنيه فى ظهره .

ولكن الطبرى – الذى عُرف بجودة النظر فى كتاب الله – رأى أن الخلق والتصوير كانا لآدم عليه السلام فقال قوله : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ معناه · ولقد خلقنا أباكم آدم تم صورناه ، وإنما قلنا هذا القول أولى الأقوال فى ذلك بالصواب ؛ لأن الذى يلو ذلك قوله : ﴿ **ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ ، ومعلوم أن الله تبارك وتعالى قد أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يصور ذريته فى بطون أمهاتهم ، بل قبل أن يخلق أمهاتهم »[2] تم ورثت الأبناء صورة أبيهم آدم وهو بنسلهم فربط الشكل بالشكل[3] .

ويجتهد الطبرى رحمه الله فى تعليل أسباب خلق الإنسان من الطين فيقول : « وكان معلوماً أن جوهر الطين · الرزانة والأناة ، والحلم والحياء ، والتثبت »[4] وفوق ذلك القوة فهو أقوى مواد الأرض . وكذلك قابليته للبث ، أى التفرق والانتشار فى كل أركان الأرض .

ولكن الإمام القشيرى رحمه الله ينحى باختياره من التراب منحى تربوياً بجانب منحاه المادى الحيوى فيقول « خلقهم من سلالة من طين ، والقدر للتربية لا للتربة »[5] . وهذا الكلام لا يعارض ما جاء على لسان الطبرى . ولعل القشيرى

---

(١) نفسه ص ٢٦٠٤

(٢) الطبرى تفسيره بتحقيق محمود شاكر ١٢ / ٣٢١

(٣،٤) نفسه الصفحه نفسها

(٥) القشيرى لطائف الإشارات ٤ / ٢٤١

أبرز لنا القيم الإنسانية السامية فى خلق الإنسان ، الذى خلقه ربه ورباه أحسن تربية . كذلك أبرز القشيرى رحمه الله بهذه العبارة استعداد الإنسان للتعلم بفطرته ، وهى قيمة تعلو تكوينه السلالى الذى أشير إلى أنه من الطين فقال : « خلقهم من سلالة من طين . ولكن معدن المعرفة ، ومرقع المحبة ، ومتعلق العناية منه لهم ، قال تعالى : ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾[1] أى أنه سبحانه وتعالى « خلقهم ثم من حال إلى حال نقلهم يغير بهم ما شاء تغييره »[2] فى الأرض فهم خلفاؤه تعالى فيها .

كانت غاية المفسرين بأقوالهم هذه : أن يبينوا – وهم يفسرون آيات خلق آدم على هذه الصورة – تخطئة إبليس فى قياسه الخاطئ ، بتفضيله النار على الطين باستثناء بعضهم مثل القشيرى الذى كانت غايته التدليل على أن الإنسان مخلوق كريم على الله لا تجوز موازنته بمخلوق آخر ، وكان على حق فيما ذهب إليه ، ذلك لأن الإنسان هو المخلوق الأمثل الذى صنعه الله بيده ، ومنحه العقل ، وأسند إليه الرسالات ، وحمّله الأمانة ، وسخّر له الكون بما فيه وجعله عليه سيدا ، ليرتقى به إلى أحسن صورة وأرقاها وأزكاها .

وبعد أن خلق الله سبحانه آدم من تراب ، خلق منه زوجه حواء ليسكن إليها ، وليسل منها ذريته التى هى مقصود العالم وعماره. قال تعالى : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾[3] وخلقه سبحانه من تراب ؛ لأنه أكثر مواد الأرض قبولاً للبث ، أى التفرقة والانتشار فى الأرض . وموائمة لكل ما خلق الله ، وقبولاً له .

وهذه الآية تؤكد أن النوع الإنسانى نوع مستقل بذاته ، لم يتفرع من نوع آخر ، أو ينسل منه ، فهو نوع متميز عن بقية الأنواع ، منذ بدء الخليقة ، وأن امتيازه متطور فى خلاياه التى تتضمن صفات خاصة به وحده ينقلها إلى أبنائه وأجياله »[4] المتعاقبة ، وهو ما قال به علماء العرب المصعون بعد خمسة عشر قرناً من نزول القرآن الكريم ، وهو ما فهمه علماء السلف مثل القشيرى رحمه الله قال : « فيه حكم الحق

(١) المائدة ٥٤ .
(٢) القشيرى : لطائف الإشارات ٤ / ٢٤١ .
(٣) النساء : ١ .
(٤) د عبد المحسن صالح لماذا نموت ؟ ص ١٦ ، سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٧٤

سبحانه وتعالى بمساكنة الخلق مع الخلق لبقاء النسل ، ولرد المثل إلى المثل ، فربط الشكل بالشكل ، فخلق جميع هذا الخلق من نسل شخص واحد على اختلاف هيئتهم ، وتفاوت صورهم ، وتباين أخلاقهم »[1] .

هذا ولما تقدمت العلوم قال العلماء فى أسباب خلق الإنسان من طين أقوالاً تنحصر فى آيات ثلاث :

الأولى : فى قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً** ﴾[2] .

الثانية : فى قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾[3] .

الثالثة : فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾[4] .

ففى الآية الأولى : خلق الإنسان من ماء ، ومن الماء كل شىء حى .

وفى الثانية : خلقه من تراب لتنتشر فى الأرض . لأن من خواص التراب الانتشار والتفرق .

وفى الثالثة : خلقه من طين ، والطين مزيج من التراب والماء .

وفى الآيات الثلاث إشارة إلى معدن الأرض الأساسى الذى منه الإنسان ، أى أن أصل الإنسان من خلاصة هذه الأرض، ومعدنها من سلالة من طين .

ولو أن جسم الإنسان حُلل إلى عناصره الأولية المكونة له ، لوجد أن هذه العناصر هى ذاتها المكونة للطين[5] .

---

(١) القشيرى · لطائف الإشارات ٢ / ٧ (٢) الفرقان : ٥٤

(٣) الروم ٢٠ (٤) المؤمنون : ١٢

(٥) قام بعض العلماء بتحليل جسم الإنسان إلى عناصره الأولية فوجدوا فى تركيبه اثنين وعشرين عنصراً تم اكتشافها حتى الآن ، وتتوزع كالآتى

١ ــ أوكسجين وأيدروجين ، وهما يكونان الماء ، والماء يؤلف ٦٥ ــ ٧٠ / من جسم الإنسان

٢ ــ الكربون والهيدروجين والأكسجين ، وتؤلف هذه العناصر الثلاثة أساس المركبات العضوية من سكريات ودسم ، وبروتينات ، وفيتامينات ، وهرمونات وأنزيمات

٣ ــ سبع مواد جافة هى الكلور والكبريت والفسفور ، والمغنسيوم والكالسيوم والبوتاسيوم ، والصوديوم وهى =

وكلام المفسرين القدماء لا يتعارض مع كلام العلماء ، ويمكن القول بأن الله تعالى خلق الإنسان من الطين ليتواءم مع البيئة والأرض المشتملة على العناصر المكونة له – وهذا ما يساعد الإنسان دائماً على التأقلم السريع مع جميع بيئات الأرض .

وثمة قول آخر ، « وهو أن الله سبحانه خلقه من الطين ، لأن الطين معدن القوة والرزانة والحكمة والتثبت »[1] .

الطور الثانى من خلق الإنسان :

وهذا الطور بدأ فى ظهر آدم عليه السلام ، وبصورته انتقل إلى ظهور بنيه من الذكور ، وهو ما بينه الإمام الطبرى رحمه الله إذ قال : « خلقهم فى ظهر آدم » وأخذ عليهم الميثاق . وقرأ : ﴿ **وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ منْ ظُهُورِهم ذُرِّيتَهُم وَأَشْهدهُم عَلَى أنفُسِهم ألستُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى شَهِدْنا أَنْ تَقولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إنَّا كُنَّا عنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾[2] فكسبهم العقل ، وأخذ عليهم الميثاق .

الطور الثالث من خلق الإنسان :

وهذا الطور هو طور الماء الدافق ، والماء المهين ، ذلك هو الإنسان الذى نَسَلَه آدم عليه السلام . قال تعالى : ﴿ **ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾[3] . و ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **خُلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾[6] .

= تؤلف ٦٠ – ٨٠ / من المواد الجافة فى الجسم

٤ – سبع مواد أخرى جافة نسبتها أقل وهى الحديد والنحاس واليود ، والمنجنيز ، والكوبالت والزنك ، والموليبديوم

٥ – عناصر أخرى نادرة وعددها ستة . وهذه العناصر ذاتها ، وهى المكونة للطين

ارجع إلى بحث د عصام حمدى · « القرآن والإعجاز العلمي فى خلق الإنسان » ص ٣٤ منشور بمجلة الجهاد الليبية العدد ٨٤ جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ – يناير ١٩٩٠ م

(١) الطبرى · تفسيره ١٢ / ٣١٧ بتحقيق محمود شاكر

(٢) الأعراف ١٧٢ . (٣) السجدة · ٨

(٤) المرسلات . ٢٠ (٥) الطارق . ٦ ، ٧ . (٦) النجم · ٤٥ ، ٤٦ .

وقال تعالى : ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾[2] .

وقال تعالى . ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منى يمنى ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾[5] .

وكل هذه الآيات تصور كيف نُسِل الإنسان فى أطوار خلقه حتى جاء إلى الدنيا بلقاء الذكر والأنثى من منى الرجل ، الذى يصب ويراق فى رحم المرأة . قال تعالى : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى ﴾[6] . و ﴿ ألم يك نطفة من منى يمنى ﴾[7] .

القرآن الكريم يصور كيفية اتصال الرجل بالمرأة ليصب فى رحمها منيُّه حيث يهاجم حيوان الرجل المنوى ، بويضة الأنثى ، لينشئ حياة جديدة لإنسان جديد . « وفى الرحم تستقر البويضة الملقحة ، وتصبح فى هذه الحالة بمثابة كائن طفيلى يسحب الغذاء من الأم ، كما يسحبه أى طفيلى آخر يسكن الأمعاء ، أو بعض أعضاء خاصة من الجسم »[8] قال تعالى : ﴿ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ﴾[9] .

والرحم هو القرار المكين الذى يقر فيه الجنين فترة الحمل ، حتى يكتمل فيخرج إلى الدنيا . قال تعالى : ﴿ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾[10] .

وتصور آيات سورة « المؤمنون » أطوار قصة الخلق كاملة قال تعالى : ﴿ ولقد

---

(١) الحج ٥ — (٢) المؤمنون : ١٣ .
(٣) فاطر : ١١ — (٤) القيامة : ٣٦ ، ٣٧ .
(٥) الإنسان ٩ . — (٦) النجم ٤٥ - ٤٦ .
(٧) القيامة ٣٧ — (٨) د عبد المحسن صالح لماذا نموت ؟ ص ١٦ سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٧٤ .
(٩) الحج ٥ — (١٠) المؤمنون ١٣

خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1] .

والآيات مفصلة لا تحتاج إلى تفسير ، وليس فى مقدور المفسرين أن يقدموا لنا تفصيلات أكثر من ذلك الذى بيَّنه القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرناً ، وذلك الذى لم يعرفه الغرب إلا منذ عهد قريب ، وكانت معرفة العرب به مرتبطة بتقدم علم التشريح ، واكتشاف المجاهر ، والخبرة فى استعمالها ، كذلك ارتبط بتقدم علم الأحياء الدقيقة ، وعلم الوراثة ، وعلم الأجنة ، ووظائف الأعضاء ونحوها .

وإذا أضيف إلى الآيات السابقة من سورة « المؤمنون » قوله تعالى : **﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾**[2] لاستبان للناس أن التصوير يتم بعد تمام الخلق قال تعالى : **﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾** فرتب سبحانه مراتب الخلق بالمرور بأطوار النطفة ، ثم العلقة فالمضغة ، فرتب جل شأنه بهذا كله أطوار الجنين فى قرار مكين حريز إلى وقت الولادة . قال تعالى : **﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾**[3] .

كيف يتناسل الإنسان :

لم يكن فى مقدور المفسرين أن يقدموا فى هذا السبيل فوق ما فهموه من ظاهر الآيات الكريمة ، فلم يكن لهم من الأدوات ؛ إلا إيمان بالكتاب الكريم ، وفهم للعربية ، ووعى بما وصلت إليه العلوم الاستدلالية فى عصورهم المختلفة .

والآن فى عصر العلم ، قدم لنا العلم شروحاً دقيقه لأطوار التناسل موافقة لما جاء فى القرآن الكريم . فأضاف فوائد علمية إلى تلك الفوائد التى جاءت فى كتب المفسرين فى العصور السابقة .

تنص الآيات الكريمة ، ويشرح المفسرون ، ويقول العلماء : « يهيئ الله سبحانه

---

(١) المؤمنون ١٢ - ١٤

(٢) الأعراف ١١

(٣) المرسلات . ٢٠ - ٢٣

وتعالى الزوجين : الذكر والأنثى للإنسان « فتبدأ فتيات المبيض [البويضات] بالاستعداد ليكون عروس الشهر ، فتكبر فى الحجم بشكل ملحوظ وتتكاثر الخلايا المحيطة بها ، وتفرز هرمونا معيناً هو (oestrogen) جزء منه يتبقى داخل البويضة ، والجزء الآخر يمتص ، ويحمله الدم لبقية أجزاء الجهاز التناسلى ، خاصة المهبل والرحم والبوقة ، فيحدث فيها تغيرات استعداداً للحفل الموعود[1] (استقبال الحيوان المنوى) .

ويغزو الحيوان المنوى للذكر بويضة الأنثى التى تكبره آلاف المرات ، وكلاهما لا يسمع ولا يرى ، ولكنه يحس فقط بما يوافق هواه ، فأحاسيس كل من الحيوان المنوى مع البويضة لا يكون إلا لما كان من جنسه ، يسعى الحيوان المنوى إلى أنثاه البويضة قبل أن يطمسها أحد قبله ، ويدخل فى غشائها كى يعشش فيه ، فلا يخرج منه أبداً ، ومع هذا فلا يتم هذا إلا بعد تعارف يتم بينهما ، فكل منهما لن يقبل ولوج كائن لا يجانسه ولا يستجيب له ، ولايبادله حباً بحب « والواقع أن التفاهم يتم عن طريق الجدار أو الغشاء الرقيق غاية الرقة الذى يحيط بهذه الخلية الجنسية أو تلك ، فكما نعرف الناس ببصمات أصابعهم ، أو اختلاف أصواتهم – حتى قبل أن نراهم – كذلك فلكل نوع من أنواع الكائنات الحية بصماته الكيميائية التى جاءت بها جدر خلاياه الجنسية أو الجسدية ، بحيث لا تتشابه هذه البصمة بين نوع ونوع من ملايين الأنواع التى ظهرت على هذا الكوكب . لكن العلماء يقفون أمام هذه البصمات ، وكأنهم بمثابة أطفال يتعلمون ألف باء شفرة الحياة »[2] .

وبهذه البصمات الكيميائية تتحالف الكائنات الحية الذكرية ، وتتآلف مع إناث جنسها ، وتختلف مع نظائرها من غير جنسها وتتنافر ، فلو أن الرياح أو النحل مثلاً حملت نوعا من أنواع اللقاح الذكرية ، وهبطت به فى مزرعه متنوعة النبات والأزهار لما سمح جسم زهرة لحبة لقاح ليست من نوعها بالدخول ، فهى ليست من جنسه ، ولا تحمل لغة بصماته وأحاسيسه ، وهكذا يبدأ سريان الحياة ، فالحياة تبدأ من خلية حية واحدة ، هى امتداد للخلية الأولى للحياة ، تلك التى كانت غارقة فى بحر العماء .

---

(١) د عصام حمدى القرآن والإعجاز العلمى ص ٣٤

(٢) د عبد المحسن صالح · لغة الخلايا الحسية – مجلة العربى ص ٩٦ العدد ٢٤٥ أبريل ١٩٧٩ م

إذن فقد نشأت بإذن ربها الخلية الأولى المخصبة ، التى ستنشأ منها أول خلايا التكوين فى الإنسان ذكراً أو أنثى .

هذا ولقد تنبه بعض المفسرين إلى حقيقة هامة يجدر ذكرها : وهى أن تحديد نوع الذكورة أو الأنوثة فى الجنين إنما يأتى من نطفة الرجل وحده . قال تعالى : ﴿ **وأنه خلق الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾[1] .

قال القرطبى رحمه الله : « أى من أولاد آدم ، ولم يرد آدم وحواء بأنهما خلقا من نطفة »[2] و ﴿ **إذا تمنى** ﴾ « تصب فى الرحم وتراق »[3] .

أى فإذا كان أصل الجنين ذكراً أم أنثى فذلك من منى الرجل .

إذن فما دور الأنثى وقد بين القرآن الكريم أن لها دوراً لا يمكن تجاهله قال تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مما خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ أى من المنى المصبوب فى الرحم . و﴿ **يخرج من بين الصلب** ﴾ وهو ظهر الرجل ﴿ **والترائب** ﴾ وهو ما بين تديبى المرأة ، أى من ماء دافق ،، هو ماء الرجل وماء المرأه ، لأن الإنسان مخلوق منهما ، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما »[4] .

والقرطبى رحمه الله لم ينقل إلا الصحيح ؛ لأن من أخلاط المائين ، كانت الأمتاج ، فالأصل : الذكورة أو الأنوثة ، ماء الرجل ، ولكن الجنين يرث من أخلاطهما جميعاً ، أى يرث من أخلاط المائين . وإن الذى توصل إليه المفسر القديم إنما هو من فهم أوتيه لكتاب الله الكريم ، الذى بين أن النطفة للرجل فقط ، ذلك بأن المرأه لا تمنى ، وأن نطفة الرجل تحتوى على الزوجين الذكر والأنثى ، ولهذا بيّن القرآن الكريم أن الزوجين من النطفة ، أى من منى الرجل . قال تعالى : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾ .

وهذا ما فهمه العرب وردده فى شعرهم ، قالت شاعرتهم امرأة أبى حمزة الضبى[5] :

---

(١) النجم : ٤٥ ، ٤٦

(٢) تفسير القرطبى ٦٢٧٨ – الشعب

(٣) نفسه ص ٦٢٨٨

(٤) نفسه ص ٧٠٩٤

(٥) الجاحظ البيان والتبيين ١ / ١٠٤ - ١٠٥ ، عيسى الحلبى سنة ١٣٣٢ هـ

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يليا
غضبان أن لا نلد البنينا   تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا   ونحن كالأرض لزارعينا
نبت ما قد زرعوه فينا

إذن فنطفة الرجل تحتوى على خلايا لها صفة الذكورة ، ومثيلات لها تحمل صفة الأنوثة ، فإذا سبق الحيوان المنوى الذكرى إلى البويضة الكامنة فى الرحم كان المولود ذكراً ، وإذا سبق الحيوان المنوى الأنثوى ، كان المولود أنثى .

والتصنيف النوعى ذكراً أو أنثى ، يبدأ من النطفة ، أما التصوير أو تحويل الخلية الواحدة المخصبة إلى ملايين الخلايا التى تشكل الإنسان فهى تبدأ من العلقة ، تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة بالرحم قال تعالى : ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وهو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾[2] .

قال الطبرى فى تفسير هذه الآية : « عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى قوله ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ قال : « إذا وقعت النطفة فى الأرحام طارت فى الجسد أربعين يوماً ، ثم تكون علقة أربعين يوماً . ثم تكون مضغة أربعين يوماً ، فإذا بلغ أن يخلّق (يصور) بعث الله ملكاً يصورها ، فيأتى الملك بتراب بين إصبعيه فيخلطه فى المضغة يعجنه بها ، ثم يصورها كما يؤمر فيقول : أذكر أو أنثى ؟ أشقى أو سعيد ؟ وما رزقه ؟ وما عمره ؟ وما أثره ؟ وما مصائبه ؟ فيقول الله ، ويكتب الملك فإذا مات ذلك الجسد ، دفن حيث أخذ ذلك التراب » .

« وعن قتادة قوله : ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ قادر والله ربنا أن يصور عباده فى الأرحام كيف يشاء من ذكر أو أنثى ، أو أسود أو أحمر تام خلقه أو غير تام »[3] .

---

(١) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ .
(٢) آل عمران : ٦ .
(٣) الطبرى تفسيره ٦ / ١٦٧ ، ١٦٨ بتحقيق محمود شاكر

وهكذا تسير أطوار الخلق كما بينتها الآيات الكريمة . قال تعالى : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقاراً * وقد خلقكم أطواراً** ﴾[1] وهذه الأطوار هى التى أشار إليها التنزيل الحكيم فى سورة (المؤمنون) يقول تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[2] .

وهنا يمكن طرح السؤال التالى : هل مادة الأرض أو التراب أو الطين ، أو الصلصال الذى بدأ الله منها خلق آدم عليه السلام تخص آدم وحده ، أم تخص آدم وذريته .

لقد رأى معظم المفسرين أن آدم خلق من طين خالص ، أما سلالته فهى من نطفة ، أى من منى الرجل ، غير أن بعض المفسرين ومنهم الإمامان الطبرى والقرطبى ، فقد قالا «إن آدم خلق من طين خالص ، فأما ولده فمن طين ومنى »[3] كما هو مبين فى قوله تعالى : ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾[4] وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من طين** ﴾[5] .

يقول الطبرى رحمه الله : « إذا وقعت النطفة فى الأرحام طارت فى الجسد أربعين يوماً ، ثم تكون علقة أربعين يوماً ، ثم تكون مضغة أربعين يوماً ، فإذا بلغ أن يخلّق بعث الله ملكاً يصورها ، فيأتى الملك بتراب بين أصبعيه فيخلطه فى المضغة ثم يعجنه بها ، ثم يصورها كما يؤمر »[6] .

وهذا الذى رواه الطبرى ، قبس منه القرطبى فقال رحمه الله : « هو مبين فى قوله تعالى فى أول سورة الأنعام ﴿ **هو الذى خلقكم من طين** ﴾ أى أن تكون النطفة

(١) نوح ١٣ - ١٤ .
(٢) المؤمنون ١٢ - ١٤
(٣) الطبرى : تفسيره ٦ / ١٦٧ ، وتفسير القرطبى ٤٥٠١ ، الشعب .
(٤) آل عمران ٦
(٥) الأنعام : ٢ .
(٦) الطبرى : تفسيره ٦ / ١٦٧ تحقيق محمود شاكر .

حلقها الله من طين على الحقيقة ، ثم قلبها حتى كان الإنسان منها »[1] « وعلى هذا يكون كل إنسان مخلوقاً من طين ، وماء مهين »[2] .

ليس من قبيل الصدفة البحتة أن تكون الإشارات العلمية فى القرآن موافقة لما وصل إليه العلم الحديث . وأن يكون القرآن الكريم حاكماً عليها . قال تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من طين** ﴾ أى أن تكون عناصر الطين مكونة للنطفة ، أى أن تكون النطفة قد حلقها الله من الطين على الحقيقة ، ثم حولها سبحانه وصار حس الإنسان منها . ولا يمكن أن يقال إن المقصود بضمير الجمع هنا آدم ، أو أبناؤه مصورين فيه . وقال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب** ﴾[3] .

إن الجمع فى كل هذه الآيات لا يقتصر على الواحد [آدم] وفى ذلك قال الإمام القشيرى رحمه الله : « أثبت الأصل من الطين ، وأودعها عجائب السر ، وأظهر عليها ما لم يظهر على مخلوق ، فالعبرة بالوصل لا بالأصل ، فالوصل قربة ، والأصل تربة »[4] .

وخير ما قيل فى هذا الباب ما ورد فى كلام ابن حزم الظاهرى رحمه الله إذ قال : « والطين هو التراب والماء ، وإنما خلق تعالى منه أجسامنا فصح أن منه عنصر أجسامنا »[5] .

هذا ما فهمه علماء السلف الكرام من بيان الكتاب المبين ، حتى كانت بداية النصف الثانى من القرن العشرين ففى عام ١٩٥١ م كانت بداية مرحلة حاسمة فى تاريخ علم الأجنة ، ففى هذا العام أعلن هارفى Harvy عالم الأجنة المشهور : « أن كل شئ حى يأتى أولاً من بويضة ، وأن الجنين يتخلق تدريجياً جزءاً من بعد جزء فى هذا العصر . فى هذا الوقت كان العلم قد أفاد من اختراع المجهر الألكترونى ، فقد اكتشف العلماء بواسطته : « أن خلايا الإنسان تحتوى على أشرطة دقيقة غاية فى الدقة [عرض الشريط يساوى عشرين جزءاً من عشرة ملايين جزء من المليمتر .

---

(١) القرطبى الجامع لأحكام القرآن ص ٢٣٨٤ الشعب

(٢) نفسه ص ٢٣٨٥ (٣) الروم ٦

(٤) القشيرى لطائف الإشارات ٢ / ١٥٥ .

(٥) ابن حزم الفصل فى الملل والنحل ٣ / ١٢٢

تحتوى على ملايين الأزواج ... أصلها من تراب الأرض] »[1] .

وهدا يوافق قوله تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً** ﴾[2]

وقال تعالى : ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً** ﴾[3]

وقال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب** ﴾[4]

وهذه الخيوط الدقيقة ، أو الأشرطة الدقيقة من وحدات الوراثة جاءت من أمشاج ، أى أخلاط من بين الرجل والمرأة ، تحتوى على صنوف متراصة من وحدات وراثية ، يوجد منها فى الخلية الواحدة آلاف ، بل وعشرات الآلاف من هذه الوحدات الوراثية ، وكل وحدة وراثية منها تكون بمثابة معلومة مستقلة تورث الكائن صفة محددة ، ومن مجموعها يتكون كل إنسان سوى ويشكل ويصور ، من خلق المبدع العظيم »[5] . وبها يتفق الإنسان في الجنس والنوع من حيث هو إنسان متميز ، وبها أيضاً يختلف كل إنسان عن بقية بنى جنسه ، فيكون متفرداً فى ملكاته وقدراته ، ونزوعه وميوله ، وإرادته بما يوافق ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾[6] .

وهذه الوحدات ، وإن لم تكن كل شيء فى تكوين الخلية ، فهى أهم شيء فيه فهى : « إحدى الجزيئات الوراثية والبروتينية التى أهمها جزيئان هما أثمن ما فى الحياة وأعقد ما فيها :

أولهما : حامض نووى (نسبة إلى النواة التى يسكنها) اسمه الكيميائى : « حامض دى أوكس ريبو نيوكليك » . واختصاره الاصطلاحى هو : ح.د.ن .

---

(1) د . عبد المحسن صالح : بحث سبحان من خلق الأزواج كلها ص ٣٢ ، ٣٣ الوعى الإسلامى الكويتية ، عدد فبراير ١٩٧٩ م

(2) نوح : ١٧

(3) فاطر ١١ .

(4) الروم ٢٠ .

(5) د عبد المحسن صالح . بحث سبحان من خلق الأزواج كلها ص ٣٢ ، ٣٣ الوعى الإسلامى عدد فبراير ١٩٧٩ م

(6) الإنسان . ٢ ، ٣

وثانيهما : حامض نووى آخر هو : حامض ريبو نيوكليك . واختصاره الاصطلاحى : ح.ر.ن .

ومعنى (دى أوكس) : (ينقص أوكسلجين) أى أن الثانى يحتوى على أوكسجين ، لا يحتوى عليه الجزىء الأول . فكان لهذه الإضافة سياسة كيميائية حكيمة ، جعلت لهذين الحزيئين فى عالمهما الدقيق نظاماً رائعاً بديعاً ، فأصبح (ح.د.ن) بمثابة الباعث ، أو صاحب السلطة العليا فى عالم الخلية ، وهو يمثل الحياة على الأرض ، لأنه يستطيع أن يضاعف نفسه ، أو أن يصنع من ذاته نسخة طبق الأصل تنتقل من حلية إلى حليه ، عبر ملايين السنين »[1] .

وهده الحقائق العلمية الدامغه تهدم كلام النطوريين من أساسه .

الجنين فى ظلمات ثلاث :

بيّن القرآن الكريم مادا يحدث لمادة الخلق حتى تصير حياً يتخلّق بإذن الله ، ويُصور فى بطن أمه – بصنع الله أحسن الخالقين – فى ظلمات ثلاث ثم يولد ، ثم تتواصل شئون حياته حتى يودع الدنيا .

والذى يعرفه الناس – بواسطة العلماء – أن الرجل يقذف فى رحم أنثاه بملايين من الحيوانات المنوية فى دفقة واحدة . قال تعالى : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى** ﴾[2] .

وتدخل تلك الحيوانات المنوية المنبثة من النطفة فى سباق محموم كما تغزو بويضة المرأة وتلتحم بها . وفى نهاية هدا السباق المحموم لا يفوز بهذا الغزو إلا حيوان واحد فقط ، يخترق جدار البويضة ويعشش فى داخلها . قال تعالى : ﴿ **ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى** ﴾[3] . ثم يصير هدا الحيوان مع البويضة نطفه . قال تعالى : ﴿ **ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين** ﴾[4] .

---

(١) موريس بوكاى القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ص ٢٣٠ دار المعارف ١٩٧٩ م

(٢) النجم : ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) الحج : ٥

(٤) المؤمنون ١٣

وأصل النطفة – بويضة مخصبة – خلية واحدة بنواة واحدة ، ويتحقق استقرار البويضة بالرحم بواسطة امتدادات حقيقية ، كما لو كانت بذوراً تضرب بجذورها فى الأرض ، وتنهل من جدار الرحم ما يلزم لنموها ، وهذه الامتدادات هى التى تجعل البويضة تتعلق بالرحم »[1] وتحتوى هذه البويضة المخصبة على صبغيات بعضها من الأب ، وبعضها من الأم . قال تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾[2] ومن بين هذه الأجسام الصبغية يوكل اثنان فقط بتحديد جنس الجنين ، أما الباقيات فتحمل ميراث البلايين من صفات الجسم غير تحديد الجنس ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج** ﴾[3] والصبغان الجنسيان من نواة الخلية ، إن كانا سيصيران أنثى كانا متشابهين (س س) وإن كانا سيصيران ذكراً كانا مختلفين أحدهما (س) والآخر (ى) .

ثم بعد ذلك تبدأ الخلية فى الانقسام ، حتى تصل إلى مئات الآلاف من الخلايا ، تحمل كل خلية فى نواتها ما كانت تحمل الخلية الأولى ، وهكذا تكون العلقة ، أى نقطة الدم الجامدة ، العالقة بالرحم ، ثم تصير مضغة مخلقة ، أى بعض أعضائها متناسب نسب الخلق مع ما سيكون عليه الفرد ، ثم تتحول المضغة إلى عظام ﴿ **فجعلنا المضغة عظاماً** ﴾ ثم تكسى العظام لحماً : ﴿ **فكسونا العظام لحماً** ﴾ ثم لا يحدث بعد ذلك إلا النماء فى الحجم ، والنضج فى الأعضاء ، مع الانتقال إلى حالة جديدة هى السباحة فى سائل هيئ له وهذه التهيئة تشمل تهيئة القرار كى يكون ملائماً لهذا الساكن ، وموائماً لتطور تكوينه داخله ، كما أنه هيئ كعامل استمرار وبقاء ، حتى يخرج من بطن أمه إلى الحياة الوسيعة ، وكلما ازداد حجم الجنين يأخذ السائل يضيق حول الجنين نسبياً ، وذلك فى الشهر الرابع ، فتبدأ الحركة والصدام برحم الأم ، ويغتذى من الأم عن طريق المشيمة حتى الأشهر الأخيرة . قال تعالى : ﴿ **ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً** ﴾[4] حيث يولد فى الأغلب عند تمام الشهر التاسع[5] .

---

(١) موريس بوكاى القرآن والتوراة والإنجيل والعلم مرجع سابق
(٢) الطارق ٥ – ٧ (٣) الإنسان ٣
(٤) الحج ٥
(٥) د . حسان حتحوت مذكرات جنين بحث نشر بمجلة العربى الكويتية ص ٧٢ وما بعدها العدد ٢٠٨ مارس ١٩٧٦ م

وهدا ما قررته الآية الكريمة : ﴿ **يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث** ﴾[1] أى يصوركم ويركب أحوالكم فى ظلمات ثلاث : هى ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ... من أمشاج متشاكلة مختلفة الصور فى الأعضاء ، سخر بعضها محالاً للصفات الحميدة : كالإيمان والعلم والقدرة والإرادة والعمل ، وغير ذلك من أحوال القلوب ، وسخر بعضها محالاً للحواس : كالسمع والبصر والشم وغير ذلك .

ثم يرسل الله تعالى إليها الملك فينفخ فيه الروح ففى الصحيحين : من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله وشقى أو سعيد . فوالله الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[2] .

قال ابن القيم رحمه الله : « والذى دل عليه الوحى الصادق عن خلق البشر ، أن الخلق ينتقل فى كل أربعين يوماً إلى طور آخر ، فيكون أولاً نطفة أربعين يوماً ، ثم علقة كذلك ، ثم مضغة كذلك ، ثم ينفخ فيه الروح بعد مائة وعشرين يوماً ، كأنك تشاهده عياناً »[3] .

---

(١) الزمر ٦

(٢) الحديث أخرجه البخارى : كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** ﴾ ٩ / ١٦٥ - ١٦٦ - طبعة الشعب . ومسند الإمام أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه ١ / ٣٧٤ ، ٣٨٢ . ومسلم فى كتاب القدر ، باب (كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه) . عن ابن مسعود ١٦ / ١٨٩ كما رواه مسلم عن وكيع وعن حذيفة بن أسيد وأنس بن مالك وجمهرة من الصحابة رضوان الله عليهم ١٦ / ١٨٩ - ١٩٩ واللفظ له وابن ماجه باب فى القدر ١ / ٢٩ من المقدمة وفى الأحاديث القدسية جمعت هذه الأحاديث فى باب ما جاء فى خلق ابن آدم فى بطن أمه عن ابن مسعود وجمع من الصحابة رضوان الله عليهم والأحاديث القدسية ١ / ١٠٧ - ١١٥ طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

(٣) ابن القيم الروح ص ١٧٤ - ١٧٥

ويقول ابن القيم أيضاً : « فالملك وحده يرسل إليه فينفخ فيه الروح ، فإذا نفخ فيه كان ذلك سبب حدوث الروح فيه ، ولم يقل يرسل إليه الملك بالروح فيدخلها في بدنه ، وإنما أرسل إليه الملك فأحدث فيه الروح بنفخه فيه ، لا أن الله سبحانه أرسل إليه الروح التي كانت موجودة قبل ذلك .

أو يرسل إليه بروح مخلوقة قائمة بنفسها مع الملك »(١) .

والإنسان المخلوق الكامل الذي نفخ فيه الروح ، هو الإنسان الذي أسجد له الملائكة . قال تعالى : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** ﴾(٢) .

ماذا بعد الميلاد ؟

إن أطوار خلق الإنسان كما بينها القرآن الكريم لا تتوقف عند نهاية الحياة الدنيا للإنسان ، ولكنها تتواصل حتى تتصل بأطوار حياة أبدية فيما بعد الموت في الدنيا . قال تعالى : ﴿ **يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً** ﴾(٣)

إن سلسلة التطور في القرآن ممتدة عند الإنسان ابتداءً من النطفة حتى ييسر لليسرى ، أو ييسر للعسرى . قال تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى** ﴾(٤) .

والتطور الإنساني من النطفة إلى الميلاد ، تطور حيوي محض ، لا دخل لإرادة الإنسان فيه ، فهو يسير دائماً إلى الأمام وفق طريق مرسوم . أما تطور الإنسان بعد الميلاد فهو تطور حيوي ، وفكري على السواء . والوجهة الحيوية فيه تبينها الآيات :

---

(١) نفسه .
(٢) ص . ٧١ ، ٧٢
(٣) الحج . ٥ .
(٤) الليل ٥ — ١٠ .

١ ﴿ يـأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبيّن لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾(١) .

٢ - ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴾(٢) .

٣ - ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾(٣) .

وفى هذه الأطوار لا تتغير صورة الإنسان ، وشكله من مولده حتى مماته ، اللهم إلا ما تحدثه السنون فى مراحل العمر السنية المختلفة ، من ضعف ثم قوة ثم ضعف « إن صورة جسد آدم الجسمانية باقية فى ذريته إلى يوم الدين عليها يتساوون ، وبها يمون ، وبها يبعثون ، وبها يؤاخذون ، وإليها يرجعون ، وبها يقومون يوم القيامة ، وبها يبعثون ، وبها يدخلون الجنة إن شاء الله »(٤) .

أما الطور غير الحيوى فللإنسان فيه شأن واختيار ، وبه يؤكد كونه حراً مريداً مختاراً ، وأنه مقصود العالم وعماره ، خلقه ربه فى أحسن تقويم ، فهو أكمل المخلوقات هيئة وأجملها ، وأحورهم للصفات الحميدة ، والقدرة الآخذة بأسباب العلم والمعرفة والحياة ، والمالك للملكات التفكير والتمثيل والتعبير ، سخر الكون كله بامتلاكه الآلة وتطويعها لأمره ، فطوع بها المرئى وغير المرئى ، وعالج بها الواضح والغامض ، والسهل والصعب ، وحلل الكل إلى أدق جزئياته ، حتى توصل إلى الجزء الذى لا يتجزأ ولا ينقسم .

وهذا الإنسان الذى سُخر له الكون بإذن الله - إن سار على فطرته التى فطره

---

(١) الحج . ٥

(٢) غافر ٦٧

(٣) الروم : ٥٤

(٤) رسائل إخوان الصفا : رسالة الإنسان والحيوان ص ١٣٩ مطبعة التقدم بمصر ١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م

الله عليها من الاستقامة بالقول والعمل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والسعى إلى العمل النافع وإلى كل أنواع البر – كان جديراً بقوامته على هذا الكون ، وخلافته لخالقه . وإلا رُدّ إلى أسفل سافلين ، ليشارك الحيوان فى صفات الشهوة والغضب ، وسائر الصفات الحسية ، واللذات البدنيه ، فيكون كالأنعام ، فنحط إلى أفق البهائم ، أو إلى أفق الشيطان المريد .

لقد كرم الله الإنسان فى خلقه ، وأنشأه بعد أن لم يكن قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾[1] وَبثَّ فيه جل شأنه من روحه ليكون أعظم المخلوقات شأناً ، فلينظر الإنسان « إلى نعمة الله عليه كيف نقله من الذلة والقلة ، والخسة والقذارة ، إلى هذه الرفعة والكرامة ، فصار موجوداً بعد العدم ، وحياً بعد الموت ، وناطقاً بعد البكم ، وبصيراً بعد العمى ، وقوياً بعد الضعف ، وعالماً بعد الجهل ، ومهدياً بعد الضلال ، وقادراً بعد العجز ، وغنياً بعد الفقر ، فكان فى ذاته لا شىء ، وأى شىء أخس من لا شىء ، وأى قلة أقل من العدم . ثم صار بالله شيئاً »[2] .

قال تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنَّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾[3] .

وجعل منه تعالى شأنه وكماله : الذكر والأنثى قال تعالى : ﴿ **فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾[4] لينسل ويدوم وجود جنسه ، ليخلف الله فى الأرض ويعمرها . وجعل منه مجمع القوى بجملتها ، وجعل عز شأنه « التركيب الإنسانى أشرف التراكيب ، ففيه جميع آثار العالم الجسمانى والروحانى ، وجعل تراكيب القوى فيه أكمل التراكيب ، فهو مجمع آثار الكونين والعالمين »[5] .

---

(١) الروم ٢٠
(٢) الإمام الغزالى . إحياء علوم الدين ٣ / ٣٤٩ تقديم د بدوى طبانة ، مصطفى الحلبى ١٩٥٧
(٣) الإنسان ١ ، ٣
(٤) القيامة ٣٨ ، ٣٩
(٥) الشهرستانى . الملل والنحل ٢٠ / ١١٣ ، ١١٤

ولهذا فقد فرض الله سبحانه وتعالى على جميع النوع الإنسانى المحافظة على نوعه وإكثاره ، والعمل على إسعاده ورقيه ، حتى يرقى إلى الكمال الإنسانى الذى خلق من أجله ، ويخلف الله عز شأنه فى أرضه .

الخلافة غاية خلق الإنسان :

قال تعالى : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[2] إن الغاية هى الخلافة ، والعبادة ، وعمل البر .

تلك هى الغاية من خلق الإنسان ، توجه إلى الله ، وإحسان إلى خلقه . والعبادة فى هذه الصورة لا تتحقق إلا لنوع واحد من المخلوقات ، ذلك هو الإنسان ؛ لأن الحق عز شأنه خصه بالعقل الراجح ، والفكر الصائب ، والإدراك السليم ، الذى نال به شرف القربى والخلافة ، فقد خلق السمٰوات والأرض وما بينهما ، وكل ما حواه بطن الفلك ومنه الإنسان فى نظام كونى متناسق ، يخضع لقانون المواءمة ، ثم خص الإنسان بأن جعله السيد الجليل المسيطر على الكون كله بإذن الله تعالى ؛ وبالعمل الصالح . وبالتقوى وبقدرهما فيه يكون فضله على الآخرين من بنى جنسه .

قال الراغب الأصفهانى : « الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالآخر .

وإنما شرفه بأنه يوجد كاملاً فى المعنى الذى أوجد لأجله ، وبيان ذلك أن كل نوع أوجده الله تعالى فى هذا العالم ، أو هدى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه ، فإنه أوجد لفعل يختص به ، ولولاه لما وجد ، وله غرض لأجله خص بما خصّ به .

والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء[3] :

١ - عمارة الأرض المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾[4] وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره .

---

(١) البقرة ٣٠

(٢) الذاريات ٥٦ .

(٣) الراغب الأصفهانى · الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ .

(٤) هود ٦١

٢ – عبادته المذكورة فى قوله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[١] وذلك هو الامتثال للبارى عز وجل فى أوامره ونواهيه .

٣ – خلافته المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون﴾[٢] .

والخلافة تشملها جميعاً ، فلا خلافة للإنسان إذا لم يقدر على عمارة الأرض لتوفير معاشه وطعامه الذى يحافظ به على نفسه ، وعلى دوام نسله .

والعبادة التى بها يتحرى مكارم الشريعة ، والتفقه قبل العمل ، ولن يستكمل الإنسان مكارم الشرع ، ما لم يقم بوظائف العبادات .

قال تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾[٤]

أما عمارة الأرض ففى قوله تعالى : ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[٥] .

أما من سعى سعيه وهو مؤمن أكرمه الله فى الدنيا والآخرة ، ولأن الله تعالى استخلف الإنسان ، فقد زوده البارى جل شأنه بالعقل والبصيرة . حتى لقد علا قدره على قدر الملائكة الذين اعترضوا أول الأمر على هذا الاختصاص ، وقالوا بأن الإنسان قد ينزع إلى الفساد فقالوا : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾[٦] فأجابهم سبحانه وتعالى كما قال الرازى رحمه الله فى تفسيره : « بكونه عالماً ، فلم يجعل سائر صفات الجلال مع القدرة والإرادة والسمع والبصر ، والوجود والعدم ، والاستغناء عن المكان والجهة جواباً لهم ، وموجباً لسكوتهم ، وإنما جعل صفة العلم جواباً لهم ، وذلك يدل على أن صفات الجلال والكمال ، وإن كانت بأسرها فى نهاية الشرف ، إلا أن صفة العلم أشرف من غيرها ،

---

(١) الذاريات ٥٦ .
(٢) الأعراف ١٢٩
(٣) الحج . ٧٧ .
(٤) النحل ٩٠
(٥) البقرة ٣٠ .
(٦) الكهف ١٠٣ ، ١٠٤

ثم إنه سبحانه أظهر فضل آدم عليه السلام بالعلم »[1] قال تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا** ﴾[2] .

وهذا العلم هو الذى أورثه آدم بنيه ، وصار ينمو ويتطور ويتقدم حتى اكتشف به الخوارق الطبيعية ، وصنع به المعجزات « حتى صار مستعداً لإدراك حقائق الأشياء ، والاطلاع عليها ، والاشتغال بعبادة الله »[3] .

ولولا تلك الفضيلة التى تفوق بها آدم عليه السلام على سائر المخلوقات لما سوّده الله عليها .

إن الله عز شأنه كرم الإنسان بالعلم ، وسخر البر والبحر والجو ، وفضله على سائر خلقه ، ومنحه أكبر نعمة إذ جعله خليفة فى الأرض . وجعله عز شأنه مسجود الملائكة وخليفة العالم . قال الرازى : « فأكبر النعم سجود الملائكة لآدم ، وذلك لأنه تعالى ذكر تخصيص آدم بالخلافة أولاً . ثم تخصيصه بالعلم الكثير ثانياً ، ثم بلوغه فى العلم إلى أن صارت الملائكة عاجزين عن بلوغ درجته فيه »[4] وقدرته على حمل الأمانة ، قال تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان** ﴾[5] .

وفى ذلك عهد وميثاق « فامتناع السمٰوات والأرض والجبال من حمل الأمانة لأجل خلوها من العقل ، الذى يكون به الفهم والإفهام ، وحمل الإنسان إياها لمكان العقل فيه »[6] .

إن العقل هو المنقبة الكبرى لآدم ، فيه أمكن حيازة العلم ، وهى منقبة تفوق سجود الملائكة – سجود تحية – له ، ذلك لأنه بالعقل والعلم صار خليفة الله فى الأرض ، شريطة أن يعمل بهما الصالحات . قال تعالى : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف فى**

---

(١) فخر الدين الرازى التفسير الكبير ١ / ٢٨٨ الطبعة الأولى ، المطبعة العامرة الشرقية ١٣٠٨ هـ .
(٢) البقرة : ٣١ ، ٣٢
(٣) الرازى التفسير الكبير ١ / ٢٨٧
(٤) نفسه : ١ / ٢٩٦ ، وانظر ١ / ٢٨٨
(٥) الأحزاب ٧٢
(٦) ابن القيم : الروح ص ١٦٥

الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾[1] .

ولهذا قال الطبرى : « فلما رأى الملائكة ما أعطى الله لآدم من العلم أقروا له بالفضل »[2] .

وليعلم الإنسان المسلم أن ما كان لآدم كان لبنيه فى كل الأجيال ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفى كرامة آدم أبى البشر ، كرامة كل إنسان بعد آدم عليه السلام إلى يوم الدين . لقوله عز من قائل : **﴿ ما خلْقكم ولا بعْثكم إلا كنفس واحدة ﴾**[3] .

وفى الآيات التى بينت فضيلة الإنسان على سائر الخلق دونه ، فقد بينت فوق ذلك قدرة الله على الخلق ، وصلة الخالقية بالمخلوقية . وما تحتمه من حب الخالق وتوحيده .

وتبين كذلك حرص الإسلام على الأخذ بالعلم وتزكية النفس والعقل ، وإعلاء شأنه بالعمل بما علم .

أما الذين يذهبون إلى القول بأن الدين مختص بالعبادة دون غيرها من الأعمال ، إنما هم ضالون ، أعماهم سوء الفهم ، أو سوء القصد . هم الضالون المضلون الدين يدفعون الناس إلى سوء فهم مبتور نحو واجباتهم الدينية العملية والتعبدية ، ويوهمونهم – بالباطل – أن الدين لا مكان له إلا فى ساحات المساجد .

إن من الدين أن نسعى إلى التقدم ، بواسطة العلم الضرورى الذى مصدره الوحى ، وبالعلم الاستدلالى الذى مصدره العقل ، وعلى المسلم أن يستعين بهما جميعاً فى التعامل مع الوجود الكونى – ليحقق النفع بوجهيه الروحى والمادى .

الدين يروى جذور الإيمان الفطرى فى الإنسان . ويربط فى الوقت نفسه بين إيمان الإنسان وواقعه ، ومايتحتم عليه من مسلك يحقق العمل ويوصل تبادل النفع المطلق بينهما .

---

(١) يونس : ١٤ .

(٢) الطبرى . تفسيره ١ / ٤٩٦ تحقيق محمود شاكر

(٣) لقمان : ٢٨

إن العلم الذى قطع الإنسان بينه وبين الإيمان ، جعل الإنسان يتعامل مع واقع مادى بحت ، فلا يتعامل مع غايات الحياة ومقاصدها كما رسمها الدين . وإن الإنسان عندما باعد بين الدين ومقاصد الحياة ، وقع فى سرك المادية ، وأغرق البشر فى ويلات حروب الاعتداء والسلب والنهب واغتصاب الأوطان والحريات .

إن الدين فى جوهره يجمع بين الإيمان وحب الناس ، وتحقيق الذات والإبداع ، والتمكين من العلم بوسائله المتمكنة فى عالم المحسوسات .

تلك هى مقاصد الدين العليا . وعندما يقطع الإنسان ما بين الدين والعلم ، والقيم الروحية والمعانى الأخلاقيه ، والبحث والتجربة ، يكون الإنسان قد خسر نفسه ، وجهل الغاية من خلقه ، كما حدث فى الحضارة الأوربية ، لما صار العلم فيها بدون إرشاد دينى أفرز أزماتهم . كما أتاح لهم بقوته الغاشمة تسخير غيرهم من الشعوب الضعيفة – بالسلاح الغشوم تاره ، وبالتجويع تارة أخرى . أو تمكين القوى الباغية من أولاد الأفاعى الصهاينه – على الآمنين فى أرضهم .

إن المسلمين إذا عادوا لفهم دينهم الصحيح لعلموا علم اليقين أن الإسلام دعا إلى العلم ، المشمول بالطاقات الروحية . وهذا ما فهمه المسلمون فى عصور الازدهار ، فطبعوا الحضارة الإنسانية بطابع إسلامى « دون أن يحسوا بأى تناقض بين صرف جهودهم فى بناء الكيان الحضارى المادى ، وبين تطلعاتهم الروحية ، بفضل طبيعة الإسلام التى تجعل هذه الجهود المادية من عبادة الله ، مادامت غايتها إعلاء شأن العقيدة ، ونشر التوحيد فى الأرض »[1] .

إن المسلم بفطرته يعى أن دينه لا يفصل بين العقيدة ، ومقاصد الحياه ، وكل ما كان وسيلته القلب الذاكر ، والعقل المتدبر ، ومن ثم فدينه يوجهه إلى اكتشاف نفسه ، واكتشاف الآفاق فى ذات الوقت . قال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[2] بمدركات القلب والعقل والسمع والبصر ، وهى أدوات الإدراك الإنسانى التى تتوافق ولا تتخالف ، وفيها تتلاقى أدلة الوحى

---

(١) انظر مقال د. أكرم ضياء العمرى – دور التعليم الإسلامى فى ١٢ مجلة الأمة – قطر العدد ٣ السنه الأولى ربيع أول سنة ١٤٠١ هـ

(٢) فصلت : ٥٣

والعقل . قال ابن تيمية رحمه الله « إن الأدلة العقلية الصريحة ، توافق ما جاء به الرسل ، وإن صريح المنقول لا يناقض صحيح المعقول ، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل السمع وليس منه ، وما يدخل فى العقل وليس منه »[1] .

إن الحقيقة العظمى التى يجب أن يعيها المسلم : أن الدين هو منبع العلم ومصبه ، وبه يتفوق الإنسان على كليات الكون الأساسية : الزمان والمكان والحدوث . وأن البحوث العلمية التى تقوم على ركائز الإيمان هى الكفيلة بضمان الرقى الإنسانى والتقدم البشرى ، وهى القادرة على أن تؤدى للبحوث العلمية فوائد كثيرة ، تكون بمثابة الاستنارة الروحية ، التى تصل الذات الإنسانية برحابة الكون الفسيح ، وتساعد الإنسان على استكشاف أعماقه ، كما تساعد الإنسان المؤمن على استيعاب قدرات الفهم ، وتحمل تبعات التكليف المنوط به عن رب العزة .

إن الإسلام يرى فى كل طلب للمعرفة عبادة ، وفى كل عمل بدنى عبادة ، وفى كل نية خالصة لله عبادة ، كما أن الإحسان عبادة ، وكل ذلك يتضمنه التوحيد ، ولكنها عبادة لا تقنع بالتصور فحسب ، بل بالتصور والتفكر وإعمال النظر ، والعمل للوصول إلى المقصود ، وهذا ما فهمه السلف الصالح بفكرهم الثاقب .

رأى القرطبى رحمه اللـــه فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **وإلٰهكم إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾[2] رأى القرطبى فى هاتين الآيتين إظهاراً لأمر التوحيد ، موصولاً بذكر البرهان ، وعلم طريق النظر ، وهو الفكر فى عجائب الصنع فقال رحمه الله : « لقد طلبوا آية كونية فبين لهم سبحانه دليل التوحيد »[3] فعرفوا ربهم « بمقتضى النصوص الإلٰهية ، وفطرة الله التى فطر عباده عليها ، والدلائل العقلية السليمة من المعارض »[4] ولعل هذا ما عبر عنه محمد إقبال

---

(١) ابن تيمية موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول ٢ / ١٨٢

(٢) البقرة : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣) القرطبى : تفسيره ص ٥٧٢ – الشعب

(٤) ابن تيمية . موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول ٤ / ١٣٧ – المطبعة الأميرية

رحمه الله فقال : « إن العبادة وسيلة إلى استنارة روحية ،، تعرف بها الذات الإنسانية أنها موصولة بحياة أوسع وكون فسيح »[١] .

على أن العبادة تحقق مقصودها إذا ما تعاون العابدون ، على العمل الدؤوب والسعى المشترك لجنى ثمار علمهم وعملهم بما ينفع الناس ، فالعبادة الحقة هى صلة الإنسان بربه ، كما تكون محققة فى الوقت نفسه لخير الإنسان وبره ، عند ذلك يصل المسلم بالمجتمع الإنسانى إلى كماله ، استجابة لأمر الله سبحانه وتعالى ، وتحقيقاً لمقصوده عز شأنه ، فى خلقهم واستخلافهم ويكون الإيمان بالله وتوحيده وحبه خير العمل وأفضله ، كما ورد فى حديث أبى ذر وأبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ سمى الإيمان عملاً . قال أبو ذر وأبو هريرة سئل النبى ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله وجهاد فى سبيله » . قال : جزاءً بما كانوا يعملون . وقال وفد عبد القيس للنبى ﷺ : مرنا بجمل من الأمر إن عملنا بها دخلنا الجنة . فأمرهم بالإيمان والشهادة وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة فجعل ذلك كله عملاً [٢] .

ولهذا أخذ ابن حجر رحمه الله « بدفع الإشكال عن تفسير الإيمان بالأعمال البدنية ، مع أنه فعل القلب »[٣] ذلك لأن الإيمان أصل كل عمل يعمله ابن آدم سواء كان من فعل القلب ، أو من فعل البدن .

---

(١) عبد الوهاب عزام · محمد إقبال ص ١٦١ ، الألف كتاب الأولى رقم ٢٧٣ ، مايو سنة ١٩٦٠ م .
(٢) صحيح البخارى كتاب التوحيد - باب وسُمِّىَ الإيمان عملاً ٨ / ١٩٦ الشعب .
(٣) فتح البارى ١٣ / ٤٥٨ .

الفصل الخامس

ميل الإنسان الفطري إلى الدين

ميل الإنسان الفطرى إلى الدين

حلق الإنسان نفطرته ميالاً إلى الدس ، فالدس هو الفوه الروحيه التى نصل الإنسان بخالق القوى الغيبيه المسيطر على الكون ونظام الحياة ، وتلك القوه الروحية هى التى تجعل الإنسان يذعن لسلطان الله الأعلى ، ويؤمن به ويحبه ، ويداوم على تقواه وطاعته جل شأنه ، وذلك هو التدين ، وهو الميل الفطرى إلى تقبل الدين ، أى إفراغ القلب من كل علائق الدنيا لله عز وجل ، والتبرؤ من الشرك والرياء بإفراغ القلب ليسع الله وحده ، لسابغ نعمه على عبده ، قال تعالى :

﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ۝ هو الحى لا إلٰه إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ۝ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أُسْلم لرب العالمين ۝ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ۝ هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[(١)] .

وحب الله يستدعى استعداداً من العبد لحب خالقه ، والرجوع دائماً إليه لينال المطلب الأسمى ،والمقام الأعلى ، قال تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾[(٢)] .

وفيما أخرجه مسلم رحمه الله من حديث جبريل عليه السلام عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : حدثنى أبى عمر .. وروى الحديث بطوله وفيه : قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال . « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[(٣)] .

قال النووى رحمه الله : « وهذا من جوامع الكلم التى أوتيها ﷺ ، لأنا لو قدرنا

---

(١) غافر ٦٤ - ٦٨ .

(٢) الحديد ٠ ٤

(٣) من حديث طويل رواه مسلم فى صحيحه ١ / ١٥٦ - ١٦٠ ، كتاب الإيمان ، باب تعريف الإسلام والإيمان

أن أحدنا قام فى عبادة ، وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً بما يقدر عليه من الخضوع والخشوع ، وحسن السمت واجتماعه وباطنه وظاهره ... ومقصوده الحث على الإخلاص فى العبادة ، ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى فى إتمام الخشوع والخضوع »[1] .

فعلى العبد المؤمن إدامة التيقن باطلاع الحق سبحانه وتعالى على أعماله الظاهرة والباطنة ، وعند ذلك يذوق العبد طعم الإيمان ، فهو ثمرة تطلعه الدائم إلى الله ، وأن يحب الله تعالى ورسوله ﷺ ، وفى صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكُفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف به فى النار[2] .

والدين الذى يؤمن به المؤمن ، ويميل إليه بفطرته هو نظام حياته وآخرته ، هو المعاش والمعاد ، والحكم والسياسة ، والعبادة ، مع تسليم العبد نفسه لله عز شأنه فى كل الأحوال لقوله تعالى : ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾[3] مع اتباع الرسل عليهم السلام فيما بعثهم الله تعالى به فى كل حين ، ابتداء من رسالة آدم عليه السلام ، حتى رسالة محمد ﷺ ، الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهته ، يقول تعالى : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم**

(١) النووى . شرح صحيح مسلم ١ / ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى : ٢ / ١٣ كتاب الإيمان ، باب خصال الإيمان ، وأخرجه البخارى . فى كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ١ / ١٠ – ١١ – الشعب واللؤلؤ والمرجان : ١ / ٩ باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان .

(٣) البقرة · ١٣٣ .

وإسماعيل وإسحق إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾(1) .

فالدين عند الله الإسلام قال تعالى : **﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن اللّه سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾**(2) .

والآيات تدل على أن الدين عند الله الإسلام ، وعلى وحدانية الله سبحانه وتعالى ، وأنه فرض على العباد الإقرار له بالتوحيد والعبودية ، كما دلت على وحدانية أفعاله سبحانه التى لا يقدر عليها غيره ، وقدرته التى أحاطت بالكون كله ، وبوحيه الناطق بعلمه وعزته ، وبإقرار الملائكة وأولى العلم ، واحتجاجهم عليه سبحانه وأنه مقيم للعدل فيما يقسم من الأرزاق والآجال ، وفى تقدير الثواب والعقاب . قال الزمخشرى : « دخل قيامه بالقسط فى حكم شهادة الله والملائكة وأولى العلم ، كما دخلت الوحدانية . كأنه قيل : شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو ، وأنه قائم بالقسط ، لا يغالبه إلٰه آخر عزيز حكيم لا يعدل عن العدل فى أحكامه ... أردفه بقوله تعالى : **﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾** ذلك لأن دين الإسلام دين العدل والتوحيد وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده فى شيء من الدين »(3) لقوله تعالى : **﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق** ويعقوب والأسباطِ وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ (4) .

---

(1) البقرة : ١٢٧ – ١٣٣ .
(2) آل عمران : ١٨ – ٢٠ .
(3) الزمخشرى : الكشاف : ١ / ٣١٤ .
(4) آل عمران : ٨٤ ، ٨٥ .

فالمسلم يؤمن بجميع الرسل ، وبكل كتاب أنزل من عند الله « ومن سلك طريقاً غير هذا الطريق الذى شرعه الله للناس من دين الإسلام ، فلن يقبل منه وهو فى الآخره من الخاسرين »[1] .

نزوع الإنسان إلى الدين فى نظر العلماء من غير المسلمين :

لقد رأى الباحثون والدارسون أن الإنسان أحسَّ دائماً بحاجته إلى الدين ، منذ أن أحس أن قوى غيبية تسانده وتعضده ضد قوى الطبيعة المحيطة به ، ولا يقدر على تسخيرها، وقد بدأ هذا الإحساس لدى الإنسان منذ فجر التاريخ حينما انحصر تفكير الإنسان الروحي فى التطلع إلى قوى الغيوب يستعينها ، وربما لهذا السبب رأى مالك ابن نبي أن الإنسان حيوان دينى بشكل فطرى بسبب استعداد أصيل فى طبيعته[2] ،وربما بسببه قال هنرى برجسون : « نرى فى السابق أو فى الحاضر مجتمعات إنسانية لا حظ لها من علم ، أو فن ، أو فلسفة ، ولكنا لا نعرف مجتمعاً لا دين له »[3] إذن « فلا صحة لما ذهب إليه بعض الباحثين أمثال (لوبوك) فى كتابه (أصل الحضارة) وغيره من الزعم بوجود جماعة إنسانية أولى ينعدم فيها كل اعتقاد دينى ، فجميع ما قدمه الذين اتفقوا معه من العلماء من شواهد وأمثلة وأدلة لم يوافق عليها الباحثون ، ولم تقف أمام النقد العلمى النزيـه »[4] .

والدين فى عرف هذه الجماعات هو : التوجه إلى المعبود بالعبادة والطاعة ، سواء كان الدين من الأديان السماوية التى جاء بها الأنبياء استناداً إلى الوحى السماوى ، والتى تدعو إلى عباده الله وحده بلا شريك فى الملك ، أو تلك التى قامت على الخرافات والخيالات والأوهام كعبادة الأصنام ، والأجرام السماوية ، والطبيعة والنبات والحيوان ، أو التى تقوم على التسلط والاستبداد كعبادة الطاغوت ، ومنه الذى جاء

---

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ١ / ٣٧٩ .

(٢) مالك بن نبى الظاهرة القرآنية ص ٧٤ ترجمة د . عبد الصبور شاهين – دار العروبة الطبعة الثانية سنة ١٩٦١ م .

(٣) هنرى برجسون منبعا الأخلاق والدين ص ١١٣ ترجمة د سامى الدروبى – الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧١ م .

(٤) د . فوزية رمضان أيوب علم الإنسان ص ١٦٩ – الهيئة العامة لقصور الثقافة – الجماهيرية سلسلة مكتبة الشباب رقم ١٥ سنة ١٩٩٠ م

به القرآن على لسان فرعون فى قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾[1] وينسحب ذلك على كل أديان الشرك ، فقد سماها القرآن الكريم أديانا فى قوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ وقد نزلت فى رهط من قريش كانوا مشركين قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلـهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا فقد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك فقد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : « معاذ الله أن أشرك به غيره » فأنزل الله تعالى : ﴿ قل يـأيها الكافرون .... ﴾ حتى آخر السورة[2] .

وقد يشتمل الدين على عنصر العبادة أو لا يشتمل ، وفرق بين أن يكون الدين مشتملاً على عنصر العبادة ، وبين أن يكون غير صحيح ، كما أن هناك ديانات بالمعنى الاصطلاحى فقط ، وكما يقول الشيخ عبد الله دراز : « لا مانع من أن يصطلح مصطلح على هذه التسمية ، ولكنه يكون اصطلاحاً نابياً عن معهود الناس ، مجافياً لذوق اللغات ، ولا سيما لغتنا العربية التى لا تفهم عن اسم الدين إلا اعتقاداً بالشىء يدين له المرء ، أى يخضع له ويتوجه إليه بالرغبة والتقديس »[3] .

على أن الدين السماوى الذى جاء من عند الله ، يوحد بين أهداف الجماعة التى تدين به ، ويحقق لها كرامتها الإنسانية ، إذ جاء ليحقق كرامة الإنسان لقوله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ ويسوى بينهم جميعاً ،ولا يفاضل بينهم إلا بالتقوى ، ويمدى التزامهم بتطبيق تعاليمه وأوامره ونواهيه التى لا تميز بين خاصة وعامة ، ولا ببلاء أو دهماء ، ويقوى آصرة ارتباط المتدينين بأرضهم ، وبوائم بينهم وبين حياتهم الاجتماعية بكل نظمها وقواعدها مادامت فى مصلحة جماعتهم ، ومادامت لا تتعارض مع أصول الدين .

وأساس الدين مند آدم عليه السلام هو التوحيد .

---

(١) غافر ٢٦

(٢) عبد الله دراز . الدين ص ٣٥ ، دار الفكر العربى د ت

(٣) نخبة من الباحثين العراقيين · موسوعة حضارة العراق ١ / ١٤٠ العراق ١٩٨٥ م

ولكن كثيراً ما كان يحدث أن تحل بعض الردة عند بعض الموحدين ، وفى كل الأحوال ليس غلوا القول : بأن الجماعات التى حدث فيها ذلك لم تعدم التطلع إلى دين ، وقد تستمد معرفة ذلك من آثار الأمم الباقية ، التي حفظت لنا تطلع هذه الأمم إلى التدين ، وتبين كيف كان هذا التطلع مطلباً جماعياً لكل أفراد هذه الجماعات ، وعلى سبيل المثال تؤكد لنا آثار قرية (أور . ur) بالعراق وهى كما يقال : « من آثار الطوفان المذكور فى الكتب المقدسة ، والتى قيل إنها كانت مأهولة بالناس قبل حدوث الطوفان ، وأنها استمرت مأهولة أيضاً بعده فى العصور التالية »[1] .

وكما هو معلوم فإن نوحاً عليه السلام بعث إلى من دب فيهم الشرك من قومه إلى دين التوحيد ، وأن الله عز شأنه أمده بالطوفان ليصحح به مسار البشرية ، وإقرار دينه ، إلا أن ذلك لم يحل دون انتكاسة أخرى إلى الشرك بعد الطوفان ، فى الفترة التى يحددها الآثاريون العراقيون « بسنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد »[2] .

وأيا ما كان دافع سكان ما بين الرافدين بعد الطوفان إلى ترك التوحيد إلى الشرك ، فإنهم عبدوا آلهة من دون الله الواحد الأحد عز شأنه : « وعلى رأسها الآلهة الرئيسية التى عبدها السومريون ، والتى كانت تتمثل بالإلٰه (آنو) إله السماء ، والإلٰه (أنليل) إلٰه الهواء ، والإلٰه (أنكى) إلٰه الأرض ، والإلٰه (أوتو) = الشمس أى إلٰه الشمس – فيما زعموا . ولعل الإلٰه الأخير هو نفسه الذى صار الإلٰه (آتون) إلٰه الآلهة عند المصريين فى عصر إخناتون . وتلك الآلهة ، هى التى عظمتها الملاحم والأساطير السومرية والبابلية »[3] .

« ومما يجدر ذكره فى هذا الخصوص ، هو أن الملاحم المذكورة قد بينت لنا أن سكان بلاد وادى الرافدين ، لم يتشككوا على الإطلاق عن نوعية القوة التى قامت بخلق الآلهة الرئيسية ، بل اعتبروا وجودها من الأمور الأزلية التى لا تحتاج إلى نقاش ، وأن هذه الآلهة هى التى قامت بخلق الكون والإنسان »[4] .

وعلى كل حال « فإن الدين مطلقا : هو سلك النظام الاجتماعى ، ولن يستحكم

---

(١) نخبة من الباحثين العراقيين : موسوعة حضارة العراق ١ / ١٤٠ العراق ١٩٨٥ م
(٢) حضارة العراق ١ / ١٤٥ .
(٣) نفسه ١ / ١٤٩
(٤) جمال الدين الأفغانى . الأعمال الكاملة ص ١٣٠ تحقيق محمد عمارة ، القاهرة ١٩٦٨

نظام للتمدن بدون الدين البتة »[1] فالدين يقوى الإنسان وينظم سلوكه ، ويكون صميم بنيان حياته ، وعلى حد قول الأستاد العقاد : « إن الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية ، قبل مصالح الوطنية ، وقبل الحاجة النوعية التى تضمن له حياته وبقاءه ، فالإنسان يتجه من الدين إلى غاية تقرير مكانه فى هدا الكون ، أو فى هذه الحياة ، فالإنسان يتعلق من النوع بالحياة ، ولكنه يتعلق من الدين بمضى الحياة »[2] .

ولهذا فإن الأمم والجماعات الإنسانية البدائية التى نشأت منذ فجر التاريخ وانقطعت صلتها بالأديان السماوية لسبب ما ، شغلها التفكير فى أصل الإنسان ومصيره ، وصلته بالظواهر الكونية حوله ، وربما استطاعت أن تعلل وجودها وصلتها بالكون أو عجزت عن دلك ، إلا أنها فى كل الحالات لا تكف عن محاولة التعرف على القوة التى تخضع لها كل الكائنات الموجودة فى الكون ، ويكاد يجمع علماء الاجتماع الباحثون فى الديانات القديمة غير السماوية أن الباعث الدى حرك الإنسان للتطلع إليها يرجع إلى بواعث خمسة هى :

« خوف الإنسان وقلقه ، وإلى الغريزة ، وإلى العقل والتفكير ، والملكة الخاصة ، وإلى الحاجة الاجتماعية »[3] .

وإن هذه البواعث قوامها « دلك الشعور بالحاجة المطلقة لقوة قاهرة ، فلا ريب أن هذا الشعور ركن أصيل لابد منه فى تحقيق ماهية الدين من حيث هو دين »[4] ، ومن حيث بواعثه عند كثير من الأمم البدائية التى انقطعت صلتها بالشرائع السماوية من لدن آدم عليه السلام .

وإن أول البواعث التى حركت الإنسان للتطلع إلى التدين هى :

أولاً : خوف الإنسان وقلقه :

والذين قالوا بذلك كان مدار بحثهم حول كون الإنسان – بحكم خلقه – المخلوق

---

(١) العقاد . الفلسفة القرآنية ، ص ٧ ، كتاب الهلال سنة ١٩٧٠ م
(٢) د عمارة نجيب : الإنسان بين الأديان ، ص ٢٥ وانظر العقاد فى مؤلفه الله ص ١٨ كتاب الهلال
(٣) د عمارة نجيب . الإنسان بين الأديان ، ص ٢٥
(٤) عبد الله دراز الدين ، ص ٣٥

الوحيد المميز بالعقل ، والوحيد بين جميع المخلوقات المدرك بأن الموت هو مصيره المحتوم ، فأخذ يبحث عن قوة تسانده ضد أهوال الطبيعة التى تجابهه بكل أخطارها وبعلله ، ومن هنا نشأت فكره الدين عند هؤلاء « كرد فعل دفاعى تقاوم به الطبيعة قول العقل باستحالة اجتناب الموت »[1] ومهما قيل من أن الملك خوفو الذى بنى هرمه الأكبر بناء على نداء باطنى يرتكز على عقيدة دينية تحقق له الخلود ، قد استخدم كل أنواع القمع ، ووسائل الظلم التى تتاح لملك قوى فى العصر القديم ؛ لكى يسخر بها رعيته فى بناء الهرم ، فإن قيامهم بهذا العمل الشاق لدليل على الرغبة الكامنة فيهم ، التى استهدفت مواجهة الموت والانتصار عليه ، وتحقيق الخلود لملكهم الإلٰه

ثانياً : عبادة الأرواح والأسلاف :

ولأن الإنسان بغريزته يخاف المجهول من الطبيعة فقد خلع عليها الحياة ، ولما كان لكل كائن حى روح غامضة ترافقه - كما يعتقد البدائى الوثنى - فقد صار لكل شيء فى الطبيعة روح ، فلما آمن بهذه الأرواح عبدها[2] .

وعبادة الأرواح بهذه الصورة ارتبطت بعبادة الأجداد ، فالأجداد الذين ماتوا ، لا تزال أرواحهم - باعتقاد البدائى - تحيط بأبنائهم ، ثم يحيط هؤلاء الأبناء سيره الأجداد والأسلاف بالخرافات والأساطير ، فسرعرع ، ويتحول إيمانهم بالأرواح التى لم تفارقهم إلى آلهه محلية فى بادئ الأمر ، ترمز إلى قداسة الأسلاف ، ثم ما يزال هذا الإلٰه يسمو ويكبر حتى يصير إلٰهاً للجماعة فى بعض الأحيان ، وقد ذكر القرآن الكريم هذه العادة قال تعالى : ﴿ **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً** ﴾[3] وهؤلاء كما ورد فى كتب السنة كانوا من أسلاف قوم نوح[4] ، وكانوا يجلّونهم إجلالاً عظيماً ، ثم تحول هذا الإجلال إلى عبادة .

ثالثاً : دور الغريزة المركبة فى الإنسان البدائى فى دفعه إلى الشرك بعبادة هذه الآلهة .

---

(١) هنرى برجسون : منبعا الأخلاق والدين ص ١٤٣ وانظر أيضاً جوليان هكسلى . الإنسان فى العالم الحديث ، ص ٢١٨ سلسلة الألف كتاب الأولى

(٢) هنرى برجسون منبعا الأخلاق والدين ص ١٨٨

(٣) نوح ٢٣

(٤) صحيح البخارى ٦ / ١٩٩ كتاب التفسير ، طبعة الشعب ، والملل والنحل للشهرستانى ٤ / ١٠٩ على هامش الفصل لابن حزم الأندلسى .

فقد رأى بعض الباحثين الاجتماعيين أن غرائز الإنسان وتسلطها عليه ، تتوقف على مدى تقدمه العقلي أو تخلفه ، وفي فجر التاريخ عندما كانت سيطرة الغرائز تفوق سيطرة العقل على الإنسان ، وقت أن كانت ابتكارات الإنسانية نادرة ، وحينما كانت أسلحته وأدواته التي يذود بها عن نفسه ، لا تصمد أمام أسلحة الحيوان ، وأدواته الماضية التي يذود بها بحكم خلقه ، فاعترف للحيوان بتفوقه ، ثم ما فتئ أن ألهه ، وفجرت له الغريزة في حضن العقل ذاته هذا الضرب من الخيال الذي يسمى بالوظيفة الخرافية ، ثم أرخت هذه الوظيفة الخيالية لنفسها العنان « فإذا هي تصنع من شخصيات أوليه ترتسم ارتساماً مبدئياً آلهة تسمو فتكون إلـٰهات الأساطير » [1]

ولقد قال العلماء في قوة تأثير المارع الدينية بالغريزة ، حتى لقد غالى فرويد Frued فرأى أن الغريزة في هذه الحالة غريزة جنسية متسامية ، ففسر حب الإلـٰه الوثني بحالة التسامي في الحب الجنسي ، معتمداً على حالات مرضية لا تصلح للتعميم »[2] « فضلاً عما يعتريها من غموض »[3]

رابعاً : الدين حاجة اجتماعية :

فقد رأى بعض الوضعيين الاجتماعيين وفي مقدمتهم ماكس موللر ، ودور كايم على خلاف بينهما أن الدين من صنع المجتمع ، وأداته العقل الإنساني ، فموللر كما يذكر العقاد يرى : « أن الإنسان قد تدين ؛ لأنه أحس بروعة المجهول ، وجلال الأبد الذي ليس له انتهاء »[4] بما منح من عقل سليم ، وبصيرة نافذة منذ أول عهد الإنسان بالحياة .

ولهذا يرى دور كايم أن النظام الديني (يعني الطوطمي) قد انبعث من تلقاء نفسه من العقل الجمعي ، وأنه حقق فوائد اجتماعية ، فكان وسيلة لتمدن الأفراد ، وترويضهم على التقديس والإجلال لتقوية آصرة ارتباطهم بمجتمعهم ، ويسلس قيادهم للحياة الاجتماعية وما تفرضه من نظم ، وتضعه من قواعد تتعارض في كثير من

---

(١) هنري برجسون منبعا الأخلاق والدين ص ١٧٧
(٢) د عمارة نجيب الإنسان بين الأديان ص ٢٨
(٣) العقاد في مؤلفه الله ص ١٣
(٤) نفسه : الصفحة نفسها

مظاهرها مع أهواء الأفراد ورغباتهم »[1] ويؤكد هدا ما نقله العقاد عں برجسون الدى أرجع العقيدة الديىية إلى مصدر حماعى نحنمه الفائدة النى تعود على المحتمع ، رغم وحود العباقرة الأفداد داخل المحتمع ، الدين يملكون القدرة على توحيهه ، ولكنه يؤكد أن هؤلاء الأفداذ من « دوى البصيرة والعىفرية الموهوبة » .

ويرى أصحاب هدا الرأى أهمية الملكات الإىسانية الفردية ، وكيف أىها مقيدة لصالح الجماعة ، وحرية بأن تمكں الأفراد مں التفوق والسير بالمحتمع الإنسانى إلى الأمام .

وأصحاب هدا الرأى يحىحون إلى القول بأن الديں يمكں أن يكون من صنع الحياة الاحتماعية للأفراد ، أو على الأقل يمكں أن يكون الدين ضروره تحتمها الحياه الاحتماعيه للإنسان ، ومن ثم فقد رأى برجسون « أن الدين رد فعل دفاعى تقاوم به الطبيعة قوة العقل الهدامة »[2] على أن العقل إذا لم يعد بالاعتدال ، صار آلة دافعة إلى الأنانية ، ولأن الإنساں لو استرشد عقله وحده ، حدع نفسه فى كثير مں الحالات ، وأطاع لدته ، وقتل الحاحة الديىة فى نفسه ، تلك التى تولد التحيل والإلهام ، والكشف الذى يصنع الإبداع ، وسوق الحياة إلى الأمام ، وبحسب تصور بعضهم « فإن عوائد الشعوب وتقاليدهم تتشكل بصورة يمليها اهتمام (ميتافزيقى) يدفع أدنى القوى الهمجية إلى تشييد كوخ بسيط فى مركزها تتجه نحوه الحياة الروحية للجماعة ، وهى حياة تتفاوت فى بدائيتها إلى حد كبير . وما التوتمية والأساطير واللاهوت ، إلا حلول مقترحه لنفس المشكلة التى تساور الضمير الإنسانى كلما وجد نفسه مأخوذاً بلغز الأشياء وغاياتها النهائية »[3] .

خامساً : الاستحياء وأصل الاعتقاد بالأرباب :

وهو ما دكره العقاد فى مؤلفه عں « الله » نقلاً عں تايلور وهربرت سبسر وعيرهما فاسنحياء أصل الاعتقاد بالأرباب عىد تايلور Tylor : هو إضفاء الحياة على الجماعات والأموات ، وقد وافق تفسير تايلور ، تفسير هربرت سبسر الذى كاں

(١) د على عبد الواحد وافى الطوطمية ص ١٠٦ سلسلة اقرأ
(٢) هنرى برجسون السابق ص ١٣٤
(٣) مالك بن نبى الظاهرة القرآنية ص ٧٣

بعتقد فى أن عبادة الأسلاف باعتبارها أقدم العبادات الناتجة عن رؤية أطياف الأحداد فى المنام ، فيحسب أنها باقية ترجى وتخشى ، وأنها تتقاضى فروضا كفروض الآباء على الأبناء ، وهم على قيد الحياة »(١) .

وهدا يؤكد أن هناك قوى يقدسها المتدين لهذا الدين ، يلتمس منها الحاجات والرغبات ، وهى ليست فكرة مجردة ، أو صورة عقلية خالصة ، وإنما هى فكرة حارجة ، وليست عادة تقع عليها الحس ، ويعتقد فيها أنها قوة عاقلة لها قدرة على تدبير العالم ، وأن لها تجاوباً نفسياً مع معتنقيها المتدينين لها .

على أن التدين ههنا يكون رغبة فى مناجاة ذات سامية جديرة بالعبادة ، وهى فى كل الحالات تخضع لحالات نفسية من قبل العابد ، ترسم له طريقة عبادته ، ويبدو أن ربط الاعتقاد (بالطوطم) قريب من هذا التفسير « خاصة الطواطم النابتة والطبيعية »(٢) أى عبر الحيوانية .

إن هذا الرأى قريب من رأى (ماكس فيبر) الذى يعتقد بوجود أصل واحد مشترك لكل عمليات التطور البدائى للدين عند الأمم البدائية ، وإن كان يصعب فى هذا النمط البدائى التمييز على أساس عقلانى بين ما يدخل فى دائرة السحر ، وما يدخل فى دائرة الدين ، والتبرير العقلانى الوحيد لحدوث هذه الديانات يقوم « على أساس وجود قوى أو ملكات استثنائية أو فائقة للطبيعة ، ومتميزة عما هو مألوف أو عادى ، يختص بها بعض الكائنات البشرية ، أو حتى بعض الحيوانات والنباتات ، بل والجمادات أحياناً ، بحيث يقف المرء منها موقفاً معيناً لتميزها بتلك القوى الخاصة . وهذا يتطابق مع ما جاء فى كتابات (اميل دور كايم) فى تحليله للدين البدائى فى كتابه الشهير « الصورة الأولية للحياة الدينية »les Formes ELemèntaires de la vie Religieuse حيث ميز المقدس ، وهو غير المألوف ، أو غير العادى ، أو الاستثنائى ، أو الفائق للطبيعة ، عن غير المقدس »(٣) pzofane .

(١) العقاد فى مؤلفه : الله ص ١٠ ، ١١

(٢) د عمارة نجيب . الإنسان بين الأديان ص ٣٢

(٣) عالم الفكر الكويتية م ١٣ ع ٣ ص ٢٠٨ ، أكتوبر نوفمبر ديسمبر ١٩٨٢ م

على أن هده الأفكار مع قابلتها للتصور ، من حيث إنها أقيمت على ركائز العلم واستقرائه وبراهينه فى مجالات : علوم اللغه والاجتماع والنفس ، لم تقم على اليقين الدينى ، الذى يقوم عليه الديانات السماويه ، الأمر الذى دفع العقاد إلى القول « يأسا لا حد وصفا منها يستوعب أسباب العقائد ، ونعيسا عن التطلع إلى غيره »[1]

كذلك فإن هذه الآراء لا تنحصر فى دائرة العقل والنفس ، وتعالج ما يقع عليه الحس ، أو تحلل ما يدور فى أعماق النفس ،ولكنها ببحث عما وراء المادة ، وبحث عن علل تواجد الأشياء وتصريفها ، وهى أشياء لا تلتمس لدى العالم أو الفيلسوف ولا فى داخل النفس ، أو الإطار المادى للذوات ، وإنما هى بمثابة البحث عن الذات الغيبية القادرة التى يقف إزاءها العابد بخضوع وخشوع ، ونقبل لكل ما يصدر منها ، ولكنه خضوع طالب الأصل ، لا خضوع اليائس الذى فقد الأمل والرجاء .

على أن إحساس العابد من هذه الديانات ، وإن حمل معنى تنزيه العابد لمعبوده عن العيوب والنقائص ، فلا يعنى هذا دليل قدسية المعبود ؛ لأنه عار من التوحيد الذى ينفى كل تصور لمشاركة الخالق ملكونه « فقد نشأ الدين البدائى فى أول صورة فى عبادة الطبيعة بأشكالها من حيوان وشجر ونجوم وغير ذلك »[2] ولهذا فإن القول المسدد « أنه لم يكن هدف واحد من عبادة هذه الآلهة فى عبادتها ، وعبادة هياكلها الملموسة ، ولا رأى فى مادتها من العظمه الذاتية ما يستوجب منهم هذا التقديس البليغ »[3] ولهذا لم يوحدوها، ولم يقروا لها بالعبودية ؛ لأنها ليست جديرة بذلك ، فأشركوا بها فى العبادة .

تهافت فكرة تصور الإلٰه عند هؤلاء :

يزعم هؤلاء الدارسون أن أطواراً عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب ، ويمكن سرد هذه الآراء من وجهة نظر أصحابها ، الذين يرون أن الأطوار التى مرت بها عقيدة الألوهية بدأت بطور التعدد – كما زعموا – polytheism وانتهت إلى التوحيد Monotheism . وهذا باطل ؛ لأن القرآن الكريم يؤكد أن

(١) العقاد فى مؤلفه الله ص ١٦

(٢) نفسه ص ١٢ .

(٣) عبد الله دراز . الدين ص ٣٨

الإنسان بدأ بعبادة التوحيد ، منذ خلق آدم عليه السلام ، وإن ما جاء به القرآن واجب التصديق ، ويفارق الملة من ينكره

الإسلام هو دين التوحيد الذى ارتضاه الله لخلقه، منذ أن خلق آدم عليه السلام قال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾[1] .

وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى اختار الإسلام ديناً للبشر منذ أن خلق آدم ، وسخر له كل شىء فى الكون ليبشر له خلافته ، وعلم الله سبحانه آدم أن الإسلام هو النظام الربانى الشامل الذى ينظم حركة الكون والحياة ، ويعد الإنسان للدنيا ، كما يعده للآخرة قال تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾[2] وعلمها آدم بنيه ، كما علمهم كيف يتمسكون بهذا الدين القيم ، ولكن انحرفت بعض أجيال من بنى آدم عن الصراط المستقيم ، فكان الله يرسل الرسل عليهم السلام لتصحيح المسار ، وكانت تكرر الدعوة إلى التوحيد ، كلما تكررت الانحرافات الدينية لدى بعض أجيال البشر ، قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا** ﴾[3] وهذا يؤكد أن الأنبياء جميعاً بعثوا على الإسلام وهو ما أكده الطبرى رحمه الله فى تفسير قوله تعالى . ﴿ **النبيون الذين أسلموا** ﴾ فقال : « هم مسلمو الأنبياء »[4] حتى بعث محمد ﷺ بالرسالة العامة الخاتمة ، وهى الرسالة التى أخذ الله على نفسه عهدا بأن يحفظها من الانحراف الكلى يقول تعالى . ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[5] ولهذا فبالرغم من انحراف بعض المسلمين ، فإن الله حلت قدرته هدى آخرين فلم ينحرفوا عن الحق . قال تعالى : ﴿ **والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[6] إلى يوم الدين .

وقال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب**

---

(١) آل عمران ٨٥
(٢) البقرة ٣٠
(٣) المائدة ٤٤
(٤) الطبرى تفسيره ٦ / ١٦٢ طبعة الريان .
(٥) الحجر ٩
(٦) العصر ١ ٣

إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإنه سريع الحساب ﴾[1] .

وإن الذى نقرره أن الباحث فى أصول هذه الديانات غير السماوية ، يجد نفسه أمام افتراضات متباينة لأديان متعددة متباينة ، هذا فضلاً عن أن الباحثين فى هذه الابحاث لا ينتمون إلى مذهب اجتماعى أو فلسفى أو طبيعى واحد ، وإنما ينتمون ، إلى مذاهب مختلفه متضادة « لا تقوم على أساس من العلم ، وإنما تقوم على افتراضات بحتة تخضع لآراء الفلاسفة والبحاث الذين حاولوا تفسير نشأة الدين وفق المذاهب التى يسلمون بها »[2] ومن ثم فلم تعد الصعوبة فقط فى تصور صحة هذه المعتقدات ، أو تصور تطورها ، ولكن الصعوبة أيضاً فى تصور وجود سلسلة متصلة الأطوار لمثل هذه المعتقدات التى بنيت على أساس افتراضى فى الغالب ، فلا توجد دراسة واحدة من بين هذه الدراسات تربط بين أطوار هذه الديانات وتطورها من البداية ، لتجعل الباحث يحس بالتواصل الطبيعى بين الطور والطور الذى يليه ، مما دفع بعض الباحثين إلى التأكيد على أن مذاهب الباحثين الذين بحثوا فى هذه الديانات « قد تعرضت لكثير من النقد ، وكل النظريات التى حاولت تحديد الديانة الأولى بتطبيقها على المجتمعات البدائية ، إنما هى افتراضات تبدو غير سليمة ، وتبدو أحياناً أخرى تلفيقية وهى نظريات فلسفية احتمالية خيالية ، ولا يمكن أن تعد نظريات بالمعنى الصحيح »[3] .

الشىء الوحيد الذى يكاد يتفق عليه أن هذه الديانات ظهرت فى الشرق أولاً ، وإن لم يتفق العلماء على المكان الذى ظهرت فيه هذه الأفكار الدينية قبل غيره .

هناك أبحاث كثيرة حول هذه المسائل قام بها علماء انثروبولوجيين ، وعلماء اللغة ، ولكن ما يؤخذ مما كتبوه تغليب رأى على آخر ، دون أن يكون ذلك التغليب مؤكداً ، وإن غلب مما ذكروه ، أن تكون الديانات قد نشأت فى شتى صورها « ببلاد ما بين النهرين ومصر والهند ، وبلاد فارس ، ومن هذه البلاد انتقلت إلى بقاع الأرض ، وهم يؤرخون لذلك فى أغلب الفروض فى الفترة منذ سنة ٨٠٠٠ قبل

---

(١) آل عمران ١٩ .

(٢) د هورية رمضان أيوب علم الإنسان ص ١٧٨

(٣) د . هورية رمضان أيوب · علم الإنسان ص ١٧٨

الميلاد »[1] وربطوا بين الأحداث التاريخية وبين حضارات هذه البلاد وبين دياناتها ، وإن رأى بعضهم أن الحركة الدينية الكبرى بدأت فى قبائل عرفت بعد باسم القبائل الهندوأوربية ، قامت بعملية غزو خطيرة للهند والعراق وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر ، وكان من آثار ذلك أن قامت حركة دينية تتبادل التأثير الدينى فيما بينها ، وبين هذه البلاد[2] .

ومع هذا فإن هذه الدراسات تقوم على الفروض الواهية ، وتنقصها الوثائق الدامغة .

وعلى كل حال فقد حدث امتزاج حضارى بين هذه الأمم ، ذلك لأن حضارات هذه الأمم كانت تقوم على أساس من التفكير الدينى ، كذلك حدث تأثير دينى كبير شمل المعتقدات وتصور الآلهة ذاتها ، بل وتشابهها عندهم ، وإن اختلفت مسمياتها ، ودرجة التأثر فيها ، وكذا القوة والضعف .

على أن الأركان التى قامت عليها هذه الأديان سواء الموغلة فى القدم ، أو المتأخرة نسبياً لا تمثل إلا النظرة القاصرة المنحصرة فى حدود الإحساس بمدى أهمية هذه المعبودات ؛ لأن المعبود منها، إذا لم يحقق غاية معبوده تحول عنه وربما جاء هذا التحول بعد عدوان يقع على المعبود ذاته ، كما « حدث فى بعض الديانات الوثنية بين زنوج إفريقيا ، فقد قامت إحدى القبائل الوثنية بعبادة رجل منها زعموا أنه فيه قدرة عجيبة على علم الغيب ، وفعل الخوارق ، حتى إذا يئسوا منه سجنوه ، بل ربما قتلوه ، وأقاموا غيره مكانه »[3] .

وهؤلاء وإن عبدوا هذه الآلهة فقد عبدوها لما وراءها من سر غيبى لا يدرك بالحواس ، ولكن مع هذا فهم لا يبحثون فى حدود ما وراء هذا السر ، ومن ثم يظهر تهافت مثل هذه العبادات ، ذلك لأن حقيقة العقيدة الدينية الصحيحة لا تلتمس داخل المادة ، ولا خارجها « وإنما هى ذات غيبية وراء الطبيعة ، وفوق الطبيعة »[4] وهذه

---

(١) موسوعة حضارة العراق . ١ / ٢٤٥

(٢) د عبد المنعم أبو بكر إخناتون ص ٦٥ ، سلسلة المكتبة الثقافية .

(٣) عبد الله دراز · الدين ص ٣٨ ، ٣٩ عن الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام ص ٦ ، ٧

(٤) نفسه ص ٤١

الذات هى التى تعطى المتدين الحس الذى يلتمس به حقيقه الذات المدبرة لهذا الكون ، يستمد منها العون كلما حزبـه أمر . ولهذا فالعابد ، وكل ما فى بطن الفلك يخضع للخالق عز وجل ، ويخشع له سبحانه . قال تعالى : ﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً** ﴾[1] وهذا الخضوع كما يقول الشيخ عبد الله دراز رحمه الله : « ليس هو ذلك الخضوع الذى يخلق اليأس ، ويكبت النفس ، ويقلل من الجهد ، ويحد مجال العمل ، ويسد باب الأمل ، بل هو شعور يرفه عن القلب بما يفتحه أمامه من آفاق الإمكان »[2] .

والعابد فى موقعه أمام معبوده موزع بين الرغبه والرهبة التى تعينه على النفاذ فى بواطن الأمور ، وبالعقل يعرف أن وجود هذا الكون ، ووجوده فيه ليس من ذاته ، وإنما صنعةُ – بتقدير إرادة عليا – خالقة من ذات البارى ، الصانع سبحانه وتعالى . قال عز من قائل : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾[3] فهو سبحانه مدبر الأمر ، مرتب الأركان ، جاعل أمر بقاء الكون معلق بالإراده الإلـٰهية العليا التى سخرته ، ووضعت هذا النظام الدقيق وحفظته ، وهى قادره على حراسته وحفظه وتسييره ، ثم إفنائه كأن لم يكن – حيث لم يكن وبقدرته عز شأنه كان .

إن الله تعالى وحده هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، الخالق لكل موجود سواه ، وكل ما حواه بطن الفلك من مخلوقات ، جعل له عز شأنه نظاماً دقيقاً يدير حركته ويحفظ بقاءه وانتظامه ، وفق ناموس لا يتغير ولا يتبدل ، وهذا هو الجبر الذاتى للحركة الكونية .

على أن العابد نفسه يحمل فى ذاته قوة من الإيمان ، تحمل فى ذاتها إمكانات لا نهاية لها ، تعينه وتعضد قدراته ، فى أعماله وتجاربه اليومية ، وفى عروجه نحو الكمال بإراده كاملة ، وحرية فى الفعل خلقهما الله فيه ، وجعل سعيه فى الحياة مقترنا بهما .

وهذا الكون فى حالى الجبر والاختيار يتطلع من ذاته إلى فطرته بالإيمان بمبدأ

---

(١) الرعد ١٥

(٢) عبد الله دراز الدين ص ٧ .

(٣) القمر ٤٩ ، ٥٠ .

المخلوقات ونهايتها ، ومبدأ الإنسان ونهايته ، إلا أن هذا التطلع مقدر فرضاً بضرورة الاعتقاد بوجود الذات الإلـٰهية ، وتحكمها فى هذا الكون بكل ما فيه .

حتى الإنسان الوثنى بفطرته يتطلع إلى التوحيد :

ترى الدراسات التى قامت حول الديانات الاجتماعية والخرافية — فيما زعم أصحابها — أن الإنسان منذ فجر التاريخ كان يبحث عن إلـٰه يرعاه ويشعره بالسكينة ، ومع أن المعلومات عن هذه الديانات غير كافية لإلقاء الضوء عليها ، كما أنها غير دقيقة ، فإن المعارف القليلة والمجملة عنها تبين أنها وإن تعددت ، فقد تعرضت لعملية تنقية من داخلها ، انتهت بسيادة الإلـٰه الأقوى ، أى أنها كانت تنزع إلى التفرد . ويستدل الدارسون على ذلك بآلهة الهند « فآلهة الهند المتعددة خضعت كلها فى النهاية للإلـٰه براهما سيد الآلهة ورب العالمين — كما نعتوه — وخالق الإنسان ، وكل شىء فى هذه الدنيا »[1] مثله مثل ما حدث فى مصر القديمة فبجانب الآلهة الكثيرة العدد وُحِّد (رع) تمييزاً للإله الأعلى سيد آلهة المصريين الموجود بذاته [2] ، وعند البابليين كذلك كان إلـٰه السماء هو أبو الآلهة وملكهم ، الذى يأتى بعده إله الأرض وإله البحر ، ثم يليهما آلهة : القمر والشمس والعدالة والتشريع . أما الأشوريون الذين أخذوا معظم معتقداتهم عن البابليين فكان على رأس آلهتهم (آشور) الذى زعموا أنه يمتاز عن سائر الآلهة ، بأنه لم يلد ولم يولد ولا قربة له . و « إن الاعتقادات بترتيب الآلهة فى صورة إلـٰه أعلى ، وآلهة أدنى تدل على أن البابليين والآشوريين وغيرهم تدينوا بالتوحيد فى الأصل ، وأن هذه الآلهة الثانوية ليست إلا أسماء لصفات الإلـٰه الأعظم ، أو لمظاهر القدرة الإلهية فى الطبيعة شخوصاً فأفسدوا عبادة التوحيد ، كما حدث عند سائر الشعوب القديمة »[3] كما تدل على أن الاعتراف بهذه الآلهة ، لم تكن راجعة إلى إنكار الإله الأعظم ، بقدر ما كانت راجعة إلى الإشراك به ، فهم يقرون بالإله الخالق الأعظم ، ولكنهم أشركوا به ، فجعلوا معه آلهة أخرى متعددة

وثمة دليل على صحة القول بأن الناس — فى البدء — كانوا على عقيدة التوحيد ،

---

(١) د . محمد إسماعيل الندوى : تراث الإنسانية ص ٩٤ م ٦ العدد ١ .

(٢) د . إبراهيم بيومى مدكور ، ويوسف كرم : دروس فى تاريخ الفلسفة ص ن ، ص .

(٣) د . عبد المنعم أبو بكر : إخناتون ص ٣٥ .

ثم دبت فيهم عقائد الشرك ، هو نزوع فكرة دينية مشتركة بين كل هذه الديانات القديمة ، تلك هى قصة الخلق التى تؤكد فكرة الوحدانية ، قبل أن تحدث ردة فيهم جعلتهم يجنحون عن منهج الدين القيم ، وعلى سبيل المثال : « فإن المصريين القدماء ، وعلى الأقل أولئك الذين تفقهوا فى الدين وعرفوا أسراره ، قد اعتنقوا منذ عصر مبكر ديانة الإلـٰه الواحد »[1] وهى العقيدة الإلـٰهية التى لم ينحصر سلطانها فى وادى النيل فحسب بل امتد تأثيرها بين البشر فى العالم ، لنعبر عن فكرة الإلـٰه الواحد[2] .

بيان من القرآن :

القرآن الكريم ، والآثار الصحيحة نبين أن هذه الأمم جميعاً كانت تدين بالتوحيد ، ولكنها اقترفت أعظم السيئات بجحود فضل الخالق عز وجل فأشركت به ، بل لقد بلغت فى بعض الأحوال ، أن تدعى مشاركة الله فى ملكه ، بل وسعت أن تكون له - حاشا لله - أنداداً . وإن فرعون طلب ذلك فقال : ﴿ **ما علمت لكم من إلـٰه غيرى** ﴾[3] وقال . ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾[4] وانتهى به الأمر إلى ما عبر عنه القرآن بقوله تعالى : ﴿ **لئن اتخذت إلـٰهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾[5] وانتهى الأمر بقومه بما قال القرآن الكريم فيهم ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه** ﴾[6] .

يقول ابن تيمية رحمه الله فى سبب الانحراف الإنسانى ، الذى بلغ ببعض الناس ادعاء الألوهية أن[7] " النفس مشحونة بحب العلو والرياسة بحسب إمكانها ، فتجد أحدهم يوالى من يوافقه على هواه ويعادى من يخالفه فى هواه ، وإنما معبوده ما يهواه وما يريده . قال تعالى : ﴿ **أرأيت من اتخذ إلـٰهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً** ﴾[8] والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه ... فهم وإن

---

(١) سليم حسن الأدب المصرى القديم ٢ / ١١١ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ م .

(٢) جيمس هنرى برستيد . انتصار الحضارة ص ١٣٧ ترجمة د أحمد فخرى ، مكتبة الأنجلو ١٩٦٢ م

(٣) القصص : ٣٨ .

(٤) النازعات . ٢٤ .

(٥) الشعراء : ٢٩

(٦) الزخرف ٥٤

(٧) ابن تيمية : الحسنة والسيئة ص ١٢٤ ، ١٢٦ تحقيق حسان بن على بن حافظ ، نشر الريان ١٩٨٨ م .

(٨) الفرقان . ٤٣

كانوا يقرون بالصانع ، لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته ، وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم يعادونه كما عادى فرعون موسى ... وكما فعلت اليهود لما بعث الله محمداً ﷺ يدعو إلى مثل ما دعا إليه موسى قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾[3] .

فاليهود كفرعون كما قال ابن تيمية رحمه الله . ولهذا أخبر تعالى عنهم بنظير ما أخبر عن فرعون ، وسلط عليهم من انتقم به منهم فقال تعالى : – فى حق فرعون – ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين** ﴾[4] وقال تعالى : – فى حق اليهود – ﴿ **وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً** ﴾[5] .

وعلى عكس ما قال فى هؤلاء قال تعالى فى الصالحين : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً** ﴾[6] .

ومع أن الفراعنة كان يُنظر إليهم – من قبل رعيتهم – على أنهم ملوك وآلهة ، فقد تطلع أحدهم وهو إخناتون إلى التوحيد – بقدر ما سيرته إليه نفسه – فقد كان إخناتون – وهو فرعون – يرى فى نفسه « إنسانًا منطلعًا إلى الإلـٰه مأخوذاً بعظمته ، وكان عقله منقاداً بحساسية وإدراك مُدْهِشَيْن إلى ما حوله من المظاهر الدالة على وجود الله »[7] .

وعلى كل حال ، فإن ما انتهى إليه الدارسون حول صحة فكرة تطلع الإنسان

---

(١) البقرة : ٩١ (٢) البينة : ٤

(٣) الشورى : ١٤ . (٤) القصص . ٤ .

(٥) الإسراء . ٤ . (٦) القصص : ٨٣

(٧) جيمس هنرى برستيد . فجر الضمير ص ٣١٥ ترجمة سليم حسن – مراجعة عمر الإسكندرى وعلى أدهم – الألف كتاب رقم ١٠٨ .

بفطرته إلى التوحيد ، بيّن أن البشر كانوا دائمى التطلع إلى عبادة الإلٰه الواحد — حتى فى زمن انتكاسات هذه الشعوب العقدية ، وبُعدها عن الديانات السماوية . ويستدل العلماء على صواب هذه الفكرة بأن الإلٰه (رع) عند المصريين كان يراه المصريون « الموجود بذاته وخالق غيره » وإن تعددت أسماؤه بين رع وحورس وآمون ، ولهذا فتطور الإلٰه الواحد تحت اسم آتون ، لم يكن من فراغ ، فلم يكن إلا تطهيراً لما لحق رع من دنس »[1] .

وكما اعتقد المصريون القدماء أن (رع) هو الموجود بذاته ، فقد أكدت الأساطير الهندية على القول بأن الإلٰه (براهما) هو الموجود الأول ، خَلَق من أعماق قلبه الإلهة (ساراسوتى) وتزوجها . وفى الوقت نفسه حكت ديانات السومريين والأكاديين والآشوريين أن آلهتهم « أزلية وأنها هى التى خلقت الكون والإنسان . وسبب هذا الإيمان واضح وبسيط ؛ لأنهم كانوا يتحسسون تأثير هذه العوامل الجوية (الآلهة) على حياتهم ، وعلى محاصيلهم الزراعية ، ولكنهم لا يعلمون كيف تكونت فى الأصل فحولوها إلى آلهة واعتبروها أزلية ، وكان على رأس هذه الآلهة : الإلٰه (آنو) وهو إله السماء وترتيبه من حيث الأهمية ، فى قمة الآلهة السومرية الرئيسية »[2] وهذا خلاف ما قيل من أن الإلٰه (ماردوخ Marduk) إلٰه الآلهة الذى خلق الآلهة ، وجعل السماء سكناً لها ، وخصص الأرض سكناً للبشرية التى خلقها .

وفى الصين رأوا أن الوجود الأول خلق إلٰه الآلهة (يوتى Yuti) ثم خلق أول ما خلق الإنسان من الطين[3] .

ومن هذه المزاعم كلها يتبين أنه لم يشذ عن فكرة التوحيد فى الأمم القديمة إلا الرومان واليونان — مرجع الحضارة الأوربية والأمريكية المعاصرة — فقد كان لهم آلهة فى شئون الحياة ، ولكنها كانت مستجلبة من الأمم المجاورة فقد استعاد الإغريق « آلهة شرقية مختلفة من مصر وغيرها مثل الآلهة : ايزيس وايزوريس وساراميس وميترا وغيرها من الآلهة الشرقية »[4] . وكانت أول صورة مهذبة لإلٰه يونانى كانت صورة

(١) د . محمد إسماعيل الندوى . المرجع السابق ص ٩٧

(٢) سليم حسن : الأدب المصرى القديم ٢ / ٨٦ ود . عبد المنعم أبو بكر . إخناتون ص ٧٨

(٣) د . محمد إسماعيل الندوى : المرجع السابق ص ٩٦ — ٩٧

(٤) جورج سارتون : تاريخ العلم ٥ / ٣٨ ترجمة لفيف من العلماء دار المعارف سنة ١٩٧١ م

إله إفلاطون المتعالى الذى يتمثل فى « فكرة الحق المتعالى على الطبيعة المحسوسة ، كما تعبر عنها المثل الأبدية »[1] . ثم إله أرسطو المنغلق على نفسه الأنانى الذى لا يفكر إلا فى كمال ذاته .

وكان شذوذ البونانين عن بقية الأمم القديمة ذات الحضارة فى مجال العقيدة يرجع إلى أن اليونانيين كانوا نزاعين إلى الخرافات الشعرية منهم إلى العلم الإلـٰهى ، ولم تكن لهم كتب مقدسة ولا عقائد[2] .

وأيا ما كان الأمر فإنه من الأدلة ذات الأهمية فى تثبيت وجود قاسم مشترك بين هذه الديانات القديمة قصة الطوفان ، وإن وجودها فى كل آثار الديانات القديمة بشكل عام موحد لا تنفرد به الآثار البابلية، وعلى سبيل المثال فإن قصة الطوفان فى كلا الروايتين الأشورية والسومرية تكاد تطابق رواية التوراة « فقد استخدمت الأحداث نفسها فى رواية التوراة من بناء المركب ، وجلب الحيوانات ، والطوفان ، وفقد الطيور ، وتقديم الأضحية »[3] .

ولقد أخذت هذه القصة طريقها إلى الحضارة والديانات فى صوره متفاوتة فى حضارة بابل وآشور والسومريين، وفى حضارة مصر القديمة ، وكذلك فى الديانة الهندية القديمة ، واستعارتها الأساطير الإغريقية القديمة من أساطير الديانة فى بابل وآشور[4] .

وفى العصر الحديث ، فلا يزال الإنسان الوثنى فى بعض الأماكن من إفريقيا السوداء ينطلع إلى عقيدة التوحيد بوجهها القديم ، فعقيدة التوحيد لا تزال توجهاً عاماً بين القبائل التى لا تزال على وثنيتها ، ولم تعتنق ديناً سماوياً بعد .

إن هذه النماذج من العبادات الوثنية المتطلعة إلى التوحيد لا تزال موجودة فى إفريقيا السوداء بجانب الديانات السماوية الثلاثة ، وإن كان ثمة تطور قد طرأ عليها ، فأصبحت

---

(١) سارتون . تاريخ العلم ٣ / ٥٠

(٢) نفسه ١ / ٤٠٤ .

(٣) ن - ك - ساندرز · ملحمة جلجامش ترجمة محمد نبيل نوفل ، وفاروق القاضى - دار المعارف سنة ١٩٧٠ م

(٤) العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٦٨ ، دار الهلال د . ت .

كلها ترمى إلى فكرة الإلـه الواحد ، وهى تعادل فى عقل هؤلاء البدائيين فكرة الإلـٰه الأعلى ، التى تكاد تكون موجودة لدى جميع القبائل الوثنية ، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور ، والذاتية الاكتفاء ، والشاملة القدرة نجده بين كثير من القبائل الإفريقية الوثنية [1] .

كذلك لا تزال الأقلية الزرادشتية فى إيران تمارس عادتها « فتاريخ الديانة الفارسية عامة ، وتاريخ زرادشت خاصة ، على ارتباط وثيق بتواريخ العقائد الأسيوية ، وبتواريخ بعض العقائد فى مصر واليونان ، ولكن زرادشت الجديد أنكر الوثنية ، وجعل الخير المحض من صفات الله ... وحاول جهده أن يقصر الربانية على إلـٰه واحد ، موصوف بأرفع ما يفهم أبناء زمانه من صفات التنزيه »[2] .

وكل هذا يؤكد أن الإنسان مفطور بحكم خلقه على التوحيد ، وإن ضل عنه فى مسيرة حياته الطويلة .

---

(١) جاك مندلسون . الرب والإلـٰه فى الأديان الإفريقية المعاصرة ص ٨ ترجمة إبراهيم أسعد محمد دار المعارف ١٩٧١ م .

(٢) العقاد . إبراهيم أبو الأنبياء .

الفصل السادس

الدين لله وحده

الدين لله وحده

الدين لله وحده ، لا شريك له فى الملك ، ولا شريك له فى العبادة .

هكذا أنبأنا القرآن الكريم ، وقص علينا أن آدم أبا البشر ، كان موحداً عابداً لله وحده بلا شريك ، وكان أول الأنبياء الذين دعوا إلى عبادة الله وحده ، فدعوة الإنسان إلى التوحيد ، بدأت مع بدأ الخلق ، وبعث آدم عليه السلام نبياً بمقتضى الميثاق الذى أخذه الله جل شأنه من آدم وذريته .

قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾[1] .

قال الطحاوى رحمه الله : « أخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو »[2] .

والأحاديث الشريفة الواردة فى أخذ الذرية من صلب آدم والإشهاد عليها كثيرة ، وكذا فى تمييز هؤلاء الذرية إلى أصحاب اليمين ، وإلى أصحاب الشمال ، وفى بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم .

روى الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى - ﷺ - قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بـ (نعمان) يوم - عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم قبلاً قال : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ ؟ قالوا : بلى شهدنا - إلى قوله -: ﴿ **المبطلون** ﴾ »[3] .

وروى الإمام أحمد - رحمه الله - عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى

---

(١) الأعراف . ١٧٢

(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوى : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٥ .

(٣) صححه الشيخ محمد نصر الدين الألبانى لطرقه وشواهده - وقد خرجه فى مجموعة الأحاديث الصحيحة - برقم ١٦٢٣ ، والآيتان من سورة الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣ .

ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به ؟ قال : فيقول : نعم . قال : فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بى شيئاً »(١) .

قال الطحاوى رحمه الله : « وقول أهل السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد .

وأنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التى فطروا عليها ... ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطرى ، والشرك حادث طارئ ، والأبناء تقلدوه عن الآباء ، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ، ونحن جرينا على عادتهم كما يجرى الناس على عادة آبائهم فى المطاعم والملابس والمساكن يقال لهم : أنتم كنتم معترفين بالصانع ، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له ، وقد شهدتم به على أنفسكم، فلم عدلتم عن هذه المعرفة ، والإقرار الذى شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك ؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن ، إلى ما لا يعلم له حقيقة ، تقليدا لما لا حجة له ... فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم ، بل يعدل عن الحق المعلوم إليه ، فهذا اتبع هواه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾(٢) »(٣) .

ويؤيد ذلك حديث « كل مولود يولد على الفطرة » وأن من قال بإثبات القدر ، وأن الله كتب الشقى والسعيد ، لم يمنع ذلك أن يكون ولد على الإسلام ثم يغير بعد ذلك . يقول ابن تيمية رحمه الله : « والآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على هذا القول ، وهو أنهم ولدوا على الفطرة ، ثم صاروا إلى ما سبق فى علم الله فيهم من سعادة وشقاوة ، لا تدل على أنه حين الولادة لم يكن على فطرة سليمة مقتضية للإيمان ، مستلزمة له لولا المعارض »(٤) قال تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون فريقاً هدى

(١) متفق عليه وفى المسند ٣ / ١٢٧ - ١٢٩

(٢) البقرة ١٧٠

(٣) الطحاوى شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٢ ، ٢١٣

(٤) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ص ٢٣١ - إعداد د . محمد السيد الجليند ، مراجعة د عبد الصبور شاهين الأهرام ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م

وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾[١] .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟ » قالوا : يا رسول الله : أفرأيت من يموت وهو صغير . قال : « الله أعلم بما كانوا عاملين »[٢] .

ثم هم يصيرون إلى ما علم الله فيهم .

قال ابن عبد البر رحمه الله : « من ابتدأ الله خلقه للضلالة صيره للضلالة ، وإن عمل بعمل أهل الهدى، ومن ابتدأ خلقه على الهدى صيره إلى الهدى ، وإن عمل بعمل أهل الضلالة ، ابتدأ خلق إبليس على الضلالة ، وعمل بعمل أهل السعادة مع الملائكه ، ثم رده الله إلى ما ابتدأ عليه خلقه من الضلالة »[٣] قال : (وكان من الكافرين) .

أخرج مسلم رحمه الله فى صحيحه عن زيد بن وهب عن عبد الله قال : « حدثنا ﷺ وهو الصادق المصدوق : إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد ، فوالله الذى لا إلـٰه غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها »[٤] .

والمراد بالذراع كما يقول النووى : « التمثيل للقرب من موته ودخوله عقبه ، وأن تلك الدار ما بقى بينه وبين أن يصلها ، إلا كمن بقى بينه وبين موضع من الأرض ذراع .

والمراد بالحديث أن هذا قد يقع فى نادر من الناس ، لا أنه غالب فيهم ، ثم إنه من لطف الله تعالى وسعة رحمته انقلاب الناس من الشر إلى الخير فى كثرة ، وأما

(١) الأعراف ٢٩ ، ٣٠

(٢) صحيح البخارى : كتاب القدر – باب الله أعلم بما كانوا عاملين ٨ / ١٥٣

(٣) ذكره ابن تيمية فى درء تعارض العقل والنقل ص ٢٣١

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى : ١٦ / ١٩٠ ، ١٩٢ ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمى

انقلابهم من الخير إلى الشر ففى غاية الندور ، ونهاية القلة »[1] .

ومعرفة الله تعالى بالفطرة غير الإيمان به سبحانه ، ولكنها فطرة ألزمها الله قلوبهم وهو يخلقهم قبل أن يرسل إليهم الرسل بالإيمان ، والاعتراف بالربوبية ، والإقرار بها ، والخضوع لله ، يصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله** ﴾[2] فهم يقرون بالربوبية ، ولكن كان فى علم الله قبل خلقهم من يكذب به ومن يصدق . قال تعالى : ﴿ **ألم يأتكم نبأُ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفى اللهٰ شك فاطر السمٰوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين** ﴾[3] .

والمعنى كما يقول ابن تيمية : « ما فى الله شك ... فدل ذلك على أنه لبس فى الله شك عند الخلق المخاطبين ، وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار »[4] فإن العقول السليمة والفهوم المستقيمة تشهد بضرورة فطرتها ، وبديهة فكرتها بوجود الصانع ، ولهذا إنما تواردت الملل والشرائع بمعرفة التوحيد ، لا بمعرفة وجود الصانع ، قال ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله »[5] .

فالدعوة إنما وردت بمعرفة توحيده ، لا بمعرفة وجوده . قال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله** ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ **أفى الله شك** ﴾[7] .

إنما وقع الخلاف فى نفى الشريك ، كما مضى فى غير موضع من التنزيل . قال تعالى : ﴿ **إذا دعى الله وحده كفرتم** ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ **وإذا ذكرت ربك فى**

---

(١) نفسه ١٦ / ١٩٢ .

(٢) لقمان ٢٥ .

(٣) إبراهيم ٩ ، ١٠

(٤) ابن تيمية . درء تعارض العقل والنقل ص ٢٥٦ .

(٥) صحيح مسلم . كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(٦) الزخرف ٨٧ (٧) إبراهيم : ١٥ (٨) غافر : ١٢ .

القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾[2] إلى غير ذلك ، وهذا لا خلاف فيه [3] .

والفطرة تجعل الإنسان أميل إلى حب الله وخضوعه له ، وإخلاص الدين له عز وجل ، كذلك فإن فى الفطرة قوة إرادية موجبة لحب الله ، وإخلاص العبودية له .

روى أحمد فى مسنده : عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليلة أسرى بى أُتيت بقدحين : قدح لبن ، وقدح خمر فنظرت إليهما فأخذت اللبن . فقال جبريل : الحمد الله الذى هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر غوت أمتك » .

فالفطرة ههنا موجهه لحب الله ، كما أن فيها قوة إرادية اقتضت شرب اللبن وردت الخمر ، ولكن هذا الإقرار الفطرى ؛ لكى يكون نافعاً للعبد لابد أن يكون الله به هو المعبود وحده . يقول ابن تيمية رحمه الله : « فالإقرار بالصانع بدون عبادته بالمحبة له والذل له ، وإخلاص الدين له ، لا يكون نافعاً ، فلابد أن يكون فى الفطرة مقتضى للعلم ، ومقتضى للمحبة ، والمحبة مشروطة بالعلم ، فإن ما لا يشعر به الإنسان لا يحبه ، والحب للمحبوب لا يكون بسبب من خارج ، بل هو جبلى فطرى ، وإذا كانت المحبة جبلية فطرية فشرطها – وهو المعرفة أيضاً – جبلى فطرى ، فلابد أن يكون فى الفطرة محبة الخالق مع الإقرار به »[4] .

ومقتضى الكلام من قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾[5] .

---

(١) الإسراء ٤٦ .
(٢) الزمر : ٤٥
(٣) كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارى : الداعى إلى الإسلام ص ٢٠٠ دراسة وتحقيق سيد حسين باعجوان ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م
(٤) ابن تيمية درء تعارض العقل والنقل ص ٢٥٦ ، والحديث أخرجه أحمد فى مسنده ٢ / ٥١٢ .
(٥) الأعراف : ١٧٢

ومن حديث رسول الله ﷺ الذى رواه مسلم عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة ، بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾[1] .

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة أيضاً : فقال رجل: يا رسول الله أرأيت لو مات قبل ذلك قال : « الله أعلم بما كانوا فاعلين »[2] .

يعنى أن الناس فطروا على معرفة الخالق ، أما الإيمان فمتعلق بالعلم والعمل والإرادة وحب الخالق . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى ، خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل . لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »[3] .

ولهذا فإن العبد عند الشدائد يجب عليه النظر إلى القدر : فإن الإنسان حساس متحرك بالإرادة ، ولهذا قال ﷺ : « أصدق الأسماء الحارث وهمام ، وأحبها إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » .

« فإن الإنسان لابد له من حرث ، وهو العمل والحركة و الإرادية ، ولابد له من أن يهم بالأمور ، منها ما يهم به ويفعله ، ومنها ما يهم به ولا يفعله ، فإن كان المراد موافقاً لمصلحته كانت الإرادة حسنة محمودة ، وإن كان مخالفاً لمصلحته كانت الإرادة سيئة مذمومة ، كمن يريد ما يضر عقله ونفسه وبدنه »[4] .

---

(١) الروم : ٣٠

(٢) أخرجه مسلم : كتاب القدر – باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ١٦ / ٢٠٧ – ٢٠٩ ، والبخارى – باب فى الجنائز ٢ / ١١٨ – الشعب

(٣) أخرجه مسلم : كتاب القدر – باب الإيمان للقدر والإذعان له ١٦ / ٢١٥ ، وأحمد بن حنبل فى مسنده ٢ / ٣٦٦ ، ٣٧٠

(٤) ابن تيمية : تقريب درء تعارض العقل والنقل ص ٢٦٠ .

وخلاصة القول :

١ – إن الإنسان مفطور على معرفة الخالق ، والإيمان به وحبه .

٢ – إن فى فطرة الإنسان مقتضى اقتضى به توحيد الخالق ، والإقرار له بالعبودية

٣ – إذا كان الإنسان يرجح ميله إلى الحنيفية ، فإن ذلك يقتضى ميله إلى الإسلام بالضرورة الحتمية ، فإن ﴿ **الدين عند الله الإسلام** ﴾ .

٤ – ليس معنى أن الإنسان يولد على الفطرة ، يقتضى معرفة الخالق والإيمان به ، وتوحيده منذ ولادته ، فإن الإنسان حين ولادته لا يعقل ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾[1] ولكن الله يقضى به ، ويحصل مقصود الفطرة ، وهذا ما دل عليه الحديث ، إذا حصل قوة العلم والإرادة ، والعمل بهما ، وبموجبهما ، فإذا وقف فى سبيل ذلك عارض فلا يحصل مقصود الفطرة التى ولد عليها من حب جلب المنافع ودفع المضار . ومعنى هذا أن الفطرة السليمة إذا لم تمل إلى ما يفسدها حصّلت مقصودها من معرفة الله ، والإيمان به والإذعان بعبوديته وتوحيده ، وهذا لا يتحقق إلا للمسلم . فاليهود يعرفون الحق لكن لا يعملون له ، والنصارى يحبون الله ، لكن بلا علم ، بل مع ضلال وجهل . قال ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون »[2] ولهذا أمرنا سبحانه وتعالى فى الصلاة أن ندعوه جل شأنه ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾[3] فيتحقق بذلك معرفة الحق والعلم به ، والعمل على توحيده ، وبه يحصل المقصود .

* * *

فإذا كنا نؤمن بأن الله قضى ألا نعبد إلا إياه قال تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾[4] وأنه تبارك وتعالى خلق الجن والإنس لعبادته قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[5] فبماذا نفسر نشأة الديانات الأخرى ، التى

---

(١) النحل . ٧٨ (٢) رواه الترمذى وصححه .

(٣) الفاتحة ٦ ، ٧ . (٤) الداريات : ٥٦ .

(٥) الإسراء ٢٣

أطلق عليها الوضعيون الاجتماعيون : الديانات الوثنية أو البدائية أو الخرافية إلى غير ذلك من التسميات ؟

يمكن إرجاع ذلك لما حدث من ردة عند بعض من بين الموحدين فى فترات من التاريخ الإنسانى من لدن آدم عليه السلام . ولهذا السبب كان الله سبحانه وتعالى يبعث الرسل فى فترات متعاقبة ؛ ليذكروا الناس بعبادة الإلـٰه الواحد الذى لا إله غيره ، كلما خبا نور الإيمان ، وانحرف بعض الناس عن الصراط المستقيم . قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾(1) .

ولقد تنبه علماء المسلمين إلى هذه المسألة ، وهم يفسرون قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً** ﴾(2) .

قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام »(3) .

وقال ابن تيمية رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام »(4) .

وبهذا يستبين أن بنى آدم ظلوا على التوحيد ابتداء من بعث آدم عليه السلام ، ولكن فى زمان متأخر قبل بعث نوح عليه السلام جاء من عمل الأصنام ، ورجع عن الإسلام .

فقد روى الطبرى فى تاريخه قال : حدثنى الحارث قال : حدثنا ابن سعد قال : أخبرنى هشام قال : أخبرنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « فى زمان (يارد أو يزد) عملت الأصنام ، ورجع من رجع عن الإسلام » .

---

(١) النحل : ٣٦ .

(٢) نوح : ٢٣ .

(٣) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص ٥٧ ، حققه وقدم له د . ثروت عكاشة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٦٩ .

(٤) ابن تيمية : النبوات ص ١٧٣ ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦ هـ .

ويؤكد الطبرى ذلك فى روايات ثلاثة قال : « وقد روى عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ملة الحق ، وأن الكفر بالله إنما حدث فى الذين بعث إليهم نوح عليه السلام وقالوا : إن أول نبى أرسله الله إلى قوم بالإنذار والدعاء إلى توحيده نوح عليه السلام »[1] .

وذكر الطبرى من ذكر ذلك فقال : حدثنا محمد بن بشار . قال : حدثنا أبو داود ، قال : حدثنا همام عن قتادة ، عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان بين نوح وآدم عليهما السلام عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق ، فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . قال : وكذلك فى قراءة عبد الله ﴿ كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ﴾ قال تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾[2] .

قال أبو جعفر : « فتأويل الأمة على هذا القول الذى ذكرناه عن ابن عباس : الدين كما قال النابغة الذبيانى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

يعنى ذا الدين .

فكان تأويل الآية على معنى قول هؤلاء : كان الناس أمة واحدة مجتمعة على ملة واحدة ودين واحد فاختلفوا ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

وأصل الأمة كما قال الطبرى رحمه الله : « الجماعة تجتمع على دين واحد ، ثم يكتفى بالخبر عن الأمة ، من الخبر عن الدين لدلالتها عليه ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة** ﴾[3] يراد به أهل دين واحد ، وملة واحدة ، فوجه ابن عباس فى تأويله قوله ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾ إلى أن الناس كانوا أهل دين واحد حتى اختلفوا » .

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٧٠ ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ١٩٧٩ .

(٢) البقرة : ٢١٣ .

(٣) المائدة : ٤٨

وهذا هو التأويل الذى رجحه الطبرى رحمه الله فقال : « وأولى التأويلات فى هذه الآية بالصواب أن يقال : إن الله عز وجل أخبر عباده أن الناس كانوا أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة ... وكان الدين الذى كانوا عليه : دين الحق ، فاختلفوا فى دينهم ، فبعث الله عند اختلافهم فى دينهم النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه رحمة منه جل ذكره بخلقه واعتذاراً منه إليهم ...

وإن دليل القرآن واضح على أنهم كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق ، دون الكفر بالله والشرك به ، وذلك لأن الله جل وعز قال فى السورة التى يذكر فيها يونس عليه السلام : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون** ﴾[1] فتوعد جل ذكره على الاختلاف ، لا على الاجتماع ، ولا على كونهم أمة واحدة »[2] .

وهؤلاء الذين كانوا على الهدى فاختلفوا وارتدوا عن دين الحق ، أنبأ القرآن الكريم أنهم كانوا أهل أوثان ، وذلك أن الله عز وجل يقول مخبراً عن نوح ﴿ **قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً * ومكروا مكراً كباراً * وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً** ﴾[3] .

أضلوا كثيراً فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فخوفهم بأسه ، وحذرهم سطوته ، وداعياً لهم إلى التوبة والمراجعة إلى الحق .

قال أبو جعفر : « فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً كما قال عز وجل يدعوهم إلى الله سراً وجهراً ، يمضى قرن بعد قرن ، فلا يستجيبون له حتى مضى قرون ثلاثة على ذلك من حاله وحالهم . فلما أراد الله عز وجل إهلاكهم دعا عليهم نوح عليه السلام فقال ﴿ **رب إنهم عصوْنى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا**

---

(١) يونس ١٩

(٢) الطبرى تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٧٨

(٣) نوح . ٢١ - ٢٤

خساراً ﴾[1] »[2] .

ومما رواه الطبرى وغيره من أئمة السلف رحمهم الله تستبين الردة التى ألمت بالبشر فى تاريخ التوحيد ، ومع هذا لا ننسى أن نوحاً عليه السلام بُعث ليعالج ما أصاب الناس لما ارتدوا عن عقيدة التوحيد ، ليصحح مسارها بعد أول ردة فى تاريخ البشر كما صورتها الآية الكريمة ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ، وقد أضلوا كثيراً ﴾[3] فهى تصور العبادة التى كان عليها قوم نوح لما أشركوا بالله ، الأصنام التى ذكرتها الآية بأسمائها ، ونوح هو الأب الثانى للبشرية ، وهذا يوضح أن تلك الردة الدينية حدثت فى الفترة فيما بين آدم ونوح عليهما السلام .

يقول العلامة الألوسى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ « لا تتركوا عبادة آلهتكم إلى عبادة رب نوح عليه السلام »[4] ومعنى هذا أنهم كانوا يعترفون برب نوح عليه السلام ، ولكنهم لا يؤمنون بنوح ضلالاً منهم واستكباراً ، وحتى عندما قال لهم نوح عليه السلام ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾[5] لم يعارضه أحد فى قضية الألوهية ، ولكنهم أرادوا أن يؤمنوا بقوة بعض الآلهة الأخرى ، وتأثيرها عليهم ، بجانب اعترافهم بقوة الله وإرادته ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ « إنهم لم يشكوا فى أن الله تعالى ربهم وخالقهم ، ومالك الأرض والسماء ، ومدبر الكون ، ولكنهم أرادوا أن يشركوه تعالى مع أربابهم ورؤسائهم وأحبارهم فى شئون الأخلاق ، والاجتماع والسياسة ، وسائر شئون الحياة الإنسانية »[6] .

وأصل هذه الأصنام على ما جاء فى صحيح البخارى قال : حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام عن ابن جريج ، وقال عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما :

---

(١) نوح : ٢١
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٧٩ ، ١٨٠
(٣) نوح ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) الألوسى روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم ٢٩ / ٧٧ .
(٥) هود : ٣٤ .
(٦) أبو الأعلى المودودى : المصطلحات الأربعة ص ٤٩ ، دار التراث العربى ١٩٧٥ م

« صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما وُدٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبنى غطيف بالجوف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، أما نسر فكانت لحمير لآل ذى الكلاع . أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وَتَنَّسخ العلم عبدت »[1] .

والروايات التى تروى فى تفسير الآية (٢٣) من سورة نوح تستشهد بالذى رواه الإمام البخارى رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنهما فى صحيحه ، وربما كانت هناك زيادات فى التفصيل .. عند بعضهم - ولكن الروايات فى أعلها لا تخرج عن هذا المعنى . وعلى سبيل المثال لا الحصر لهذه الروايات نذكر بعضها :

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان ، عن موسى عن محمد بن قيس . قال : « إن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون ، دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم »[2] .

وذكر الزمخشرى فى تفسيره رواية البخارى ، وزاد عليها قوله : « ولذلك سمت العرب بعبد ود ، وبعبد يعوث ، وقال أيضاً : وقيل : هى أسماء رجال صالحين ، وقيل : هم من أولاد آدم ماتوا فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ففعلوا ، فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم »[3] .

وروى الشهرستانى الرواية بطريقة توافق موضوع كتابه فى الملل والنحل فقال : « أول من وضع الأصنام عمرو بن لحى لما ساد قومه بمكه واستولى على أمر البيت ، وكان صار إلى مدينة البلقا بالشام ، فرأى قوماً يعبدون الأصنام فسألهم عنها. فقالوا : هده أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية ، والأشخاص البشرية نستنصر بها

---

(١) صحيح البخارى : ٦ / ١٩٩ ، كتاب التفسير ، مطبعة الشعب .
(٢) صحيح البخارى : ٦ / ١٩٩ ، كتاب التفسير ، طبعة الشعب ، وابن كثير : تفسيره ٤ / ٤٢٦ ، ٤٢٧ .
(٣) الزمخشرى : الكشاف ٣ / ٢٧٢ .

فننصر ، ونستسقى بها فنسقى ، فأعجبه ذلك فطلب منهم صنماً من أصنامهم ، فدفعوا إليه هبل فسار به إلى مكة ووضعه فى الكعبة »[١] .

وهكذا عبدوا الأصنام تشفيعاً منهم . ووسيلة إلى الله تعالى ، وفى هذا يقول الشهرستانى : فكانوا يعبدون الأصنام التى هى الوسائل : وداً وسواعاً ويغوث ونسراً ، وكان ود لكلب ، وهو بدومة الجندل ، وسواع لهذيل ، وكانوا يحجون إليه وينحرون له . ويغوث لمذحج ولقبائل من اليمن ، ويعوق لهمدان . ونسر لذى الكُلاع بأرض حمير . وأما اللات فكانت لثقيف ، والعزى لقريش ، وجميع بنى كنانة ، وقوم من بنى سليم ، ومناة للأوس والخزرج وغسان وهبل أعظم أصنامها عندهم ، وكان على ظهر الكعبة وأساف ونائلة على الصفا والمروة ... إلخ[٢] .

وكذلك فإن رواية القرطبى المفسر لا تكاد تختلف عن هذه الروايات والأخبار ، فقد روى القرطبى عن محمد بن قيس أن وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم تبع يقتدون بهم ، فلما ماتوا زين لهم إبليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها أجدادهم ، وليتسلوا بالنظر إليها فصورهم ، فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا : ليت شعرنا : هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها ؟ فجاءهم الشيطان فقال : كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر فعبدوها ، فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت[٣] .

إن كل الروايات التى رويت فى تفسير هذه الآية ، توضح كيف كانت عبادة هذه الأصنام ردة دينية أصابت بعض الذين كانوا على التوحيد ، فقد رمزت فى البداية إلى تقديس بعض الصالحين الذين كانوا لا يشركون مع الله آلهة أخرى ، ثم أغواهم الشيطان فغالوا فى تقديسهم لها حتى تحول إلى عبادة للأوثان ، ونسوا أنها لا تنفع ولا تضر ، وتحول التقديس الذى – كما زعموا – واسطة تقربهم إلى الله ، إلى عبادة ، وبعد أن كانت باعتقادهم واسطة تقربهم إلى الله ، صارت عبادة لذاتها ، بدأت بعبادة هذه الأوثان الخمسة ، التى نصبوها للأسلاف الخمسة ، ثم تفرع منها أعداد لا حصر

---

(١) الشهرستانى . الملل والنحل ٤ / ١٠١ – ١٢٠ ، على هامش الفصل لابن حزم .
(٢) نفسه : ٤ / ١٠٩ ، ١١٠ .
(٣) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ١٨ / ٣٠٨ ، طبعة دار الكتب .

لها من مثل هذه الآلهة الوثنية ، « وشأن هؤلاء كشأن كل الأولياء والقديسين ، الذين يتشفع بهم أبناء كل جهة فى الأمم التى تؤمن بالوحدانية ... أما العقيدة الإلهية فهى واحدة »[1] .

ويستبين من النصوص « أن سبب نزوع الناس إلى عبادة الأوثان هذه ، وتحولهم عن ديانة التوحيد وتركهم دينهم ، هو الغلو فى الصالحين »[2] قال تعالى : ﴿ **قل يٰأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل** ﴾[3] وكذلك قال عز من قائل ﴿ **يٰأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إلٰه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السمٰوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً** ﴾[4] .

ومنه يستبين أن أول شرك حدث على وجه الأرض كان بشبهة الصالحين ، كما يتبين منه أن الإيمان فى جبلة ابن آدم ، كما أن فى جبلته أن الحق قد ينقص فى قلبه ، وينمو الباطل ، وأن الشيطان يدخل إلى قلبه فى هذه الحال فيزين إليه البدعة ، .وهى وإن بدأت فى الأصل عن حسن قصد فاعليها ؛ لأنهم حينئذ لم يقصدوا بها إلا الشفاعة ، ثم حيل بين قلوبهم ، فاعتقدوا أن هذا الفعل الذى صوروا فيه صالحيهم ، على هذا الوجه أفضل العبادات ، فقد أدى بهم إلى التهلكة والضلال ، ولهذا فقد أدرك رسول الله ﷺ أمته ، وقد أوتى جوامع الكلم ، ونبهها إلى ما يمكن أن تضل به.عن ابن عباس عن عمر رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »[5] .

وإذا كان أول اختلاف الناس على الدين كان على عهد نوح عليه السلام ، إلا

---

(١) العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٢٣ .

(٢) الإمام محمد بن عبد الوهاب : كتاب التوحيد ص ٦٠ نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٣٨٤ هـ .

(٣) المائدة : ٧٧ .

(٤) النساء : ١٧١ .

(٥) رواه أحمد فى مسنده ١ / ٢٣ ، ٢٤ ، والدارمى ٢ / ٤١٢ ، ٤١٣ ، باب قول النبى ﷺ « لا تطرونى » : والبخارى كتاب الأنبياء .

أنه لم يكن الاختلاف الوحيد ، فقد حدث مراراً بعد ذلك ، ولذلك كان الله تعالى يرسل الرسل عليهم السلام ليصححوا طريق الحق المستقيم للناس .

خلق الله الخلق ، وخلق آدم وأنسله نسله ، وكانوا على دين واحد هو الإسلام ، وكانوا أمة واحدة مسلمين كلهم قال تعالى : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون** ﴾[1] والتوعد هنا على التفرق بعد الاجتماع على الحق وهو الإسلام . فبعث الله النبيين مبشرين من أطاع بجزيل الثواب ، ومنذرين من عصى بشدة العقاب ، وأنزل معهم الكتاب ليكون حاكماً على أعمالهم بإرشاد الأنبياء ، فإنما يحكمون بما دلهم عليه الكتاب . قال تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾[2]

وقال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب** ﴾[3] .

وهؤلاء الذين اختلفوا فيه غير الأولين الذين كانوا فى عهد نوح عليه السلام ، وهم اليهود المغضوب عليهم ، وهم الذين أوتوا التوراة والعلم بها . ولكن على ما ذكر الطبرى رحمه الله أنهم « اختلفوا فيه على علم منهم ، متعمدين الخلاف على الله فيما خالفوه من أمره وحكم كتابه ، لا عن جهل به ، بل كان اختلافهم فيه من بعد ما ثبتت حجته عليهم بغياً بينهم ، وطلباً للرياسة ، واستذلالاً من بعضهم البعض ، وطلب الدنيا وملكها وزخرفها وزينتها فبغى بعضهم على بعض ، وضرب بعضهم رقاب بعض ؛ لأن القوم لم يختلفوا إلا من بعد قيام الحجة عليهم ، ومجيء البينات من عند الله ، كذلك لم يختلفوا إلا بغياً »[4] .

وكما يقول الطبرى « والآية وإن نزلت فى اليهود ، فإنها قصدت ما اجتمع الناس

---

(١) يونس ١٩ (٢) البقرة ٢١٣ (٣) آل عمران ١٩
(٤) الطبرى تفسيره ٤ / ٢٧٦ - ٢٧٨

عليه من لدن آدم عليه السلام على شريعة الحق »[1] .

قال الطبرى : « ولا دلالة من كتاب الله ولا خبر يثبت به الحجة على أى هذه الأوقات كان ذلك . فغير جائز أن نقول فيه إلا ما قال الله عز وجل من أن الناس كانوا أمة واحدة [أى على دين واحد] فبعث الله فيهم – لما اختلفوا – الأنبياء والرسل ، ولا يضرنا الجهل بوقت ذلك ، كما لا ينفعنا العلم به إذا لم يكن العلم به لله طاعة

غير أنه أى ذلك كان ، فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخذ الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة ، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق ، دون الكفر بالله والشرك به »[2] .

وذلك أن الله تعالى قال فى سورة يونس : ﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون** ﴾[3] .

---

(١) نفسه ٤ / ٢٨١ ، ٢٨٢

(٢) نفسه ٤ / ٢٨٢

(٣) يونس ١٩ .

الفصل السابع

الأنبياء والرسل دعوا إلى التوحيد

الأنبياء والرسل دعوا إلى التوحيد

جاء فى الحديث عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « أن أول الأنبياء المرسلين آدم عليه السلام . قال أبو ذر رضى الله عنه : « أتيت رسول الله ﷺ وهو فى المسجد ، فجلست . فقال : « يا أبا ذر هل صليت » قلت : لا ، قال : « قم فصلى » . قال : فقمت فصليت ثم جلست ، فقال : « يا أبا در نعوذ بالله من شر شيطان الإنس والجن » ، قال : قلت : يا رسول الله أو للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » ، قلت : يا رسول الله الصلاة ؟ قال : « خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قال : قلت : يا رسول الله فما الصوم ؟ قال : « فرض مجزئ وعند الله مزيد » ، قلت : يا رسول الله فالصدقة ؟ قال : « أضعاف مضاعفة » . قلت : يا رسول الله فأيها أفضل ؟ قال : « جهد من مقل أوْسر إلى فقير » . قلت : يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدم » ، قلت : يا رسول الله ونبىّ كان ؟ قال : « نعم نبى مكلم » . قال : قلت يا رسول اللّه كم المرسلون ؟ قال : « ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيراً » ، أو قال مرة « خمسة عشر » . قال : قلت : يا رسول الله آدم أنبى كان ؟ قال « نعم نبى مكلم » . قلت : يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : « آية الكرسى ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم ....** ﴾ »[1] .

وأهبط آدم إلى الأرض ، وهو على عقيدة صحيحة بتوحيد الألوهية ، وبمبادئ الأخلاق الصالحة ،وبث آدم بنيه، وعلمهم أن يسيروا على منهجه ، وسنته الصحيحة ، دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾[2] .

ثم كان خطاب كل نبى لقومه : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾[3] .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ٥ / ١٧٨ ، ١٧٩

(٢) البقرة : ٢١٣ .

(٣) الأعراف : ٥٩ .

وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله أنا فاعبدون** ﴾[1] .

والإنسان يستجيب بفطرته لنداء الحق ، أما الذين أشركوا فقد كانوا مدفوعين بدافع البغي فيما بينهم بنص القرآن الكريم ، يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم** ﴾[2] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾[3] بنص الآية الكريمة .

فالبغي حدث فيهم ، أو هم أحدثوه فيهم بعد أن جاءهم الأنبياء والمرسلون مبشرين ومنذرين ، ومن بعد ما جاءهم العلم ، وقامت عليهم الحجة ، والأمر كما ذكر ابن كثير فى تفسيره : « أنهم بغوا من بعد أن قامت الحجج عليهم ، حملهم على ذلك تحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم ، فحمل بعضهم بُغض بعضهم الآخر ، على مخالفته فى جميع أفعاله وأقواله »[4] وذلك لتحقيق أغراض ومآرب خاصة وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ، ولقولها دون غيرها[5] .

وكل هذا يبين أن دعوة التوحيد هى الأصل الذى جاءت به رسالات السماء ، وأن الشرك والتعدد هو الاستثناء ، وهذا يهدم نظرية الماديين الوضعيين أمثال : أوجست كونت القائلة : « بأن الإنسانية بدأت بتعدد الآلهة والشرك ، ثم كان التوحيد خاتمة المطاف »[6] .

وتدل التوقفات الكبرى فى ديانات التوحيد فى رسالات : نوح وإبراهيم ، ثم الرسالاتالكبرى الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام على أن الغالين لم ينكروا عقيدة التوحيد ، ولكنهم أشركوا معها اعتقادات أخرى ، ذلك لأن الأنبياء عليهم السلام كانوا هادين ومصححين لمسار البشرية الدينى ، وعلى سبيل المثال فإنه « منذ أقدم العصور التاريخية لم يعثر مصدر واحد على خبر واحد يفهم منه أن إبراهيم عليه السلام

---

(١) الأنبياء : ٢٥ . (٢) البقرة : ٢١٣ . (٣) آل عمران : ١٩ .

(٤) ابن كثير : تفسيره ١ / ٢٥٠ – ٢٥٤ .

(٥) ابن القيم مفتاح دار السعادة ٢ / ٦٢ مطبعة الحمالى والخانجى ١٣٢٣ هـ .

(٦) د. عبد الحليم محمود : فى رحاب الكون ص ٤٧ .

التقى بمن يعارض عقيدته الإلٓهية بعد خروجه من موطنه الأول »[1] ولكن وجد من يعترفون بالإلٰه الواحد ، ويشركون معه آلهة أخرى دونه ، وهذا كما يقول العقاد : « ما فعله أتباع سائر الأنبياء ... إذ تحولوا من عبادة الله الواحد إلى عبادة الأنصاب والتعاويذ والتماثيل »[2] وكما فعل أقوام الأنبياء من قديم الزمان والعصور من قبل موسى عليه السلام . فعل اليهود مع موسى إذ قالوا له : ﴿ **اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة** ﴾[3] أى اجعل لنا صنماً نعكف عليه ، كما لهم أصنام يعكفون عليها »[4] ولم يقنعوا بالوعيد فقد اتخذوا العجل إلٰهاً فقال الله تعالى فيهم : ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين** ﴾[5] بالإخراج من رحمة الله عز شأنه .

ولقد بغى اليهود فاستحقوا غضب الله ، والإخراج من رحمته ؛ لأنهم كما يقول أرنولد توينبى Arnold Toynbee لم يتخلصوا بعد أن جاءهم موسى عليه السلام ، ثم أنبياء بنى إسرائيل من بعده من شرك الهليبية الوثنية ، فقد كان إله بنى إسرائيل الذى أصبح أيضاً إله المسيحية ، مثل الآلهة الهلينية ، شخصاً يمكن للبشر أن يتقابلوا معه ، ويتصلوا به ، ولكن بينما صنع الإنسانُ الهلينى إلٰههُ على صورته ، خلق إله إسرائيل الإنسان على صورته هو ، ثم انتقلت الفكرة نفسها بصورة أكثر بروزا إلى المسيحية ، فقالت العقيدة المسيحية : إن إله إسرائيل الذى خلق آدم على صورته ، قد هيأ أيضاً وسيلة لخلاص البشرية ، بأن تجسد بذاته فى صورة إنسان إذ جعله إلٰهاً وولداً [6] .

ولقد صور القرآن الكريم ذلك الذى حدث فى كل من اليهودية والمسيحية أدق تصوير فى قوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾[7] وهذا الزعم اليهودى والنصرانى باطل ، قال تعالى – فى تأكيد بطلانه –:

---

(١) العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٢٣ .
(٢) نفسه : ص ١٥٢
(٣) الأعراف : ١٣٨ .
(٤) الزمخشرى : الكشاف ١ / ٥٧١ .
(٥) الأعراف : ١٥٢ .
(٦) أرنولد توينبى : تاريخ الحضارة الهلينية ص ١٩ ، ٢٠ ترجمة رمزى جرجس ، الألف كتاب رقم ٤٥٨ ، الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م .
(٧) التوبة : ٣٠ .

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إلهُ واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾(١) .

وتلك خيانة دينية ، وخطأ إلحادى كبير ، عبر عنه توينبى Toynbee بقوله : « كانت هذه خيانة لكل ما حققته العقيدة بعد صراع طويل مرير من أجل تطهير نظرة الإنسان إلى الذات الإلهية والسمو بها »(٢) .

إن هذا الأثر اليهودى الإلحادى الخطير الذى لم تنج منه النصرانية ، حاول اليهود الزج به عند بعض المفكرين المسلمين منذ الصدر الأول للإسلام ، ولكن فقهاء المسلمين وعلماءهم وقفوا لمثل هذه الأفكار الهدامة بالمرصاد ، وفرقوا بين « لفظ الصورة الذى يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة فى أجسام مؤلفة مولدة مرتبة ترتيباً مخصوصاً ، مثل الأنف والعين والفم التى هى أجسام ، وهى لحوم وعظام ، وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم ولا هيئة فى جسم ، ولا وهو ترتيب فى أجسام... فليتحقق كل مؤمن أن الصورة فى حق الله لم تطلق لإرادة المعنى الأول ، الذى هو جسم لحمى وعظمى مركب من أنف وفم وخد ونحوه ، فإن جميع ذلك أجسام وهيئات فى أجسام – وبين خالق الأجسام والهيئات كلها المنزه عن مشابهتها وصفاتها ، وإذا علم هذا يقيناً فهو مؤمن ، فإن خطر له أنه إن لم يؤمر به ، بل أمر بأن لا يخوض فيه ، فإنه ليس على قدر طاقته ، لكن ينبغى أن يعتقد أنه أريد به معنى يليق بجلال الله وعظمته ليس بجسم ولا عرض فى جسم »(٣) .

إن القول الفصل ما قال ابن حزم الأندلسى رحمه الله فى الفصل ، (فصل الكلام فى الصفات) فقال رحمه الله : « وبالضرورة نعلم أننا لم نعلم لله عز وجل فى الدنيا صورة أصلاً ، وكذلك القول فى الحديث الثابت : « خلق الله آدم على صورته » فهذه إضافة ملك . يريد الصورة التى تخيرها الله سبحانه وتعالى ليكون آدم مصوراً عليها ،

---

(١) المائدة : ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) أرنولد تويبى : تاريخ الحضارة الهلينية ص ٢٠ .

(٣) الإمام الغزالى : رسالة إلجام العوام عن علم الكلام ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ضمن كتاب القصور العوالى من رسائل الغزالى ، مكتب الجندى د . ت .

وكل فاضل فى طبقته فإنه ينسب إلى الله عز وجل ... فعلى هذا قيل : على صوره الرحمن ، والصور كلها لله تعالى هى ملك له ، وخلق له » .

فى هذا رد ابن حزم على ابن فورك وغيره من الأشعرية قولهم فى هذا الحديث حيث إنهم قالوا فى معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله خلق آدم على صورته»: إنما هو صفه الرحمن من الحياة والعلم والاقتدار ، واجتماع صفات الكمال فيه ، وأنه سبحانه أسجد له ملائكته ، كما أسجدهم لنفسه .

يقول أبو محمد بن حزم بتشدده المعروف « هذا نص كلام أبى جعفر السمنانى عن شيوخه حرفاً حرفاً ، وهذا كفر مجرد لا مرية فيه ؛ لأنه سوى بين الله عز وجل وآدم فى الحياة والعلم والاقتدار ، واجتماع صفات الكمال فيهما والله يقول : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[1] ثم لم يقنعوا بها حتى جعلوا سجود الملائكة لآدم كسجودهم لله عز وجل ، ولا خلاف بين أحد من أهل الإسلام فى أن سجودهم لله تعالى سجود عبادة ، ولآدم سجود تحية وإكرام ، ومثله ما صح عن النبى ﷺ عن يوم القيامة : « أن الله عز وجل يكشف عن ساق ، فيخرون سجداً ، فهذا كما قال عز وجل فى القرآن : ﴿ **يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود** ﴾[2] وإنما هو إخبار عن شدة الأمر ، وهو الموقف كما تقول العرب ، قد شمرت عن ساقها »[3] .

وهكذا فهم السلف من أئمة أهل السنه معنى خلق آدم على صورة الرحمن ، وأنه كما بيّن ابن القيم رحمه الله : « لم يرد به تشبيه الرب وتمثيله بالمخلوق ، وإنما أراد به تحقيق الوجه ، وإثبات السمع والبصر والكلام صفة ومحلاً »[4] .

ولأن التشبيه والتمثيل شرك بالله فإن الذى عليه أهل التوحيد العمل بما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلٰه إلا إلٰه واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾[5] .

---

(١) الشورى ١١

(٢) القلم : ٤٢ .

(٣) ابن حزم الفصل فى الملل والنحل ٢ / ١٢٨ ، ٢١٩ مكتبة السلام ١٣٤٨ هـ

(٤) ابن القيم . الصواعق المرسلة ٢ / ٥٥٨

(٥) المائدة : ٧٢ ، ٧٣ .

ولقد فرّق عيسى عليه السلام بين نفسه والذين بعث فيهم ، فهو بشر مثلهم ولكن يوحى إليه ، ولهذا قال لهم بنص القرآن الكريم : ﴿ **قال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ فهو يقر بأنه عبد مثلهم ، وهو احتجاج على النصارى ؛ لأنهم قالوا : ﴿ **إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ فظلموا وجنحوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السلام لقوله تعالى : ﴿ **وما من إلـٰه إلا إلـٰه واحد** ﴾ أى وما إلـٰه قط فى هذا الوجود إلا الله الموصوف بالوحدانية ، لا ثانى له ، وهو الله وحده لا شريك له(١) .

رسالات التوحيد كما جاء ذكرها فى القرآن :

إن الرسالة السماوية التى يُبعث بها الرسول من الرسل عليهم السلام ، تكون على قدر إدراك أمته التى تنزل فيهم الرسالة ، وهذا بين أن الشريعة تنزل لأمة من الأمم فتكون مستعدة لها ، ولقد مهد سبحانه وتعالى لشريعة آدم عليه السلام بعرض آدم وبنيه وإعدادهم لحمل الأمانة على الملائكة ، ثم أخذت الشرائع تنزّل ، كل نبى إلى قومه ، حتى إذا بلغت الإنسانية غاية رشدها ، أنزلت الرسالة الخاتمة ، كبرى الرسالات وأشملها وأعمها للناس جميعاً ؛ لأن الناس قبلها لم يؤهلوا لمثلها ؛ ولأنها جماع الشرائع التى هى أكبر من أن تتجلى للناس فى حين واحد من الدهر قبل الإسلام .

كانت رسالة آدم عليه السلام ، إرساء لركائز الإيمان بالخالق ، وتوطين الإنسان فى موطنه الدائم فى الأرض ، كما كانت إقراراً بالعبودية لإرادة الله عز شأنه فى تكريمه للإنسان ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾ منذ بدء خلقه ، وتفضيله على سائر الخلق ، بفضل العقل وأهلية التكليف بحمل الأمانة وخلافة الله فى الأرض ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ .

وكان أول تكليف للإنسان فى موطنه ، تكليفا بالعبادة والخضوع لله تعالى وتوحيده قال تعالى : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيره** ﴾(٢) .

ولما بعث نوح عليه السلام لم يشأ أن يجادل قومه بما فوق طاقاتهم ، أو يذكرهم بالأسباب التى من أجلها يؤمر الإنسان بعبادة ربه سبحانه وتعالى ، وجاءت الأسباب

---

(١) الزمخشرى الكشاف ١ / ٤٧٦
(٢) الأعراف : ٧٣

بعد ذلك على لسان هود عليه السلام ، الذى حذرهم مما وقع فيه قوم نوح فى قوله عز شأنه ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾[1] ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون** ﴾[2] .

كان الإنسان قد بدأ يتطلع إلى آفاق أرحب من المعرفة والتأمل ، وأخذ يتساءل عن حقيقة الكون وموقف الإنسان منه ، يقول تعالى على لسان نبيه صالح عليه السلام : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾[3] .

ثم وضع جل شأنه الإنسان أمام قضية التوحيد ، وأنها من عند الله يمتحن بها الإنسان ، إنها قضية الإنسان إلى يوم الدين . قال تعالى : ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم** ﴾[4] وبواسطة الأنبياء المبشرين المنذرين أقام على الناس الحجة ، ودعاهم إلى كلمة سواء ألا يفسدوا فى الأرض ، وألا يعتدوا على مخالفيهم ، ويذكرهم بفضل الله عليهم إذ جعلهم كثرة بعد قلة . قال تعالى : ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾[5] .

على أن الدين منذ بعث إبراهيم عليه السلام يأخذ منهجاً جديداً سواء فى الاعتقاد أو فى السلوك ، فعقاب المخالفين يتخلى عن أسلوب التدمير المباشر ، والعقاب الفورى كما كان الحال فى الطوفان فى قوم نوح ، أو صواعق هود ، أو عواصف صالح التى ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم . قال تعالى : ﴿ **وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم * وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾[6] .

---

(1) الأعراف . ٦٩ .
(2) الشعراء . ١٣٢ - ١٣٤
(3) هود ٦١ .
(4) الأعراف ٧٣
(5) الأعراف ٨٦ .
(6) الداريات . ٤١ - ٥٢

لقد هيأ الله تعالى الناس ابتداء من رسالة إبراهيم عليه السلام لتقبل القضايا التى لم تك تثار من قبل ، فالإنسان صار أكثر نضجاً وتعقلاً ، وصار الدين يكلفه بمسائل أكبر ، مع التحاور مع المبعوث فيهم حول الجزاء المؤجل ، والبعث والحساب ، وقضايا إنسانية لم تطرح من قبل ، ويصور القرآن ذلك بين إبراهيم عليه السلام وقومه ، قال تعالى : ﴿ **ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون * وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾[2] .

فإبراهيم عليه السلام يحاور قومه ويناظرهم ، ويناقش معتقداتهم ، ويهون من شأن تماثيلهم وأوثانهم ، يمهد بهذه النظرة الكونية لأكبر فتح فى تاريخ الدين ، وأعظم انتصار للعقل الإنسانى فى مجال العقيدة « فلقد اقترنت دعوته بالتوحيد ، كما امتزجت بميزان العدل الإلٰهى ، واقترنت بإعلاء العبادة إلى ما فوق الطبيعة والحتمان »[3] .

إبراهيم عليه السلام يطلب زيادة اليقين من ربه :

وإبراهيم عليه السلام نفسه أراد أن يزداد يقيناً من أمر دعوته ، فسأل ربه عز شأنه ، قال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾[4] .

ومهما كانت الأسباب ، ومهما تباينت الدوافع التى دفعت إبراهيم عليه السلام لسؤال ربه سبحانه وتعالى ، فقد دخل قلب إبراهيم ، وهو نبى مرسل من الميل إلى البحث وطلب المعاينة .

ولقد روى الطبرى – رحمه الله – عن بعضهم : « أن إبراهيم عليه السلام مر

---

(١) الأنبياء . ٥٢ .
(٢) العنكبوت : ١٦ – ١٨
(٣) العقاد . إبراهيم أبو الأنبياء ص ٦
(٤) البقرة : ٢٦٠ .

بحوت نصمه فى البر ، ونصفه فى البحر ، فما كان منه فى البحر فدواب البحر تأكله ، وما كان منه فى البر فالسباع ودواب البر تأكله . فقال له الخبيث إبليس : يا إبراهيم متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء ؟ فقال : ﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى** ﴾ الآية .

وقال آخرون ـ والرواية للطبرى ـ : « بل كان سبب مسألته ربه ذلك : المناظرة والمحاجة التى جرت بينه وبين نمروذ فى أمر الإحياء والإماته »[1] .

قال الطبرى رحمه الله . « وهذان القولان ، أعنى الأول وهذا الآخر، متقاربا المعنى فى أن مسألة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، كانت ليرى عيانا ما كان عنده من علم ذلك خبراً »[2] .

وزاد ابن حجر رحمه الله فى فتح البارى فى شرحه لرواية البخارى عن سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى** ﴾ أن رسول الله ﷺ قال : « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : ﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى** ﴾» .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : « معناه هذا الذى ترون أنه شك أنا أولى به ؛ لأنه ليس بشك ، إنما هو طلب لمزيد البيان » .

وحكى عن بعض علماء العربية : أن أفعل ربما جاءت لنفى المعنى عن الشيئين من نحو قوله تعالى : ﴿ **أهم خير أم قوم تبع** ﴾ ؟ أى لا خير فى الفريقين ، فعلى هذا فمعنى قوله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » لا شك عندنا جميعاً .

وقال ابن عطية فى تفسير المحرر الوجيز : « ويحمل قول ابن عباس رضى الله عنهما عندى أنها أرجى آية لما فيها من الإدلال على الله ، وسؤاله الإحياء فى الدنيا ، أفلأن الإيمان يكفى فيه الإجمال ، ولا يحتاج إلى تنقيب وبحث ، ومحمل قول عطاء : دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس ، أى من طلب المعاينة » .

قال : وأما الحديث فمبنى على نفى الشك ، والمراد بالشك فيه الخواطر التى لا

(١) الطبرى . تفسيره ٥ / ٤٧٦

(٢) الطبرى . تفسيره ٥ / ٤٨٧

تثبت ، وأما الشك المصطلح ، وهو التوقف بين الأمرين من غير مزية لأحدهما على الآخر ، فهو منفى عن الخليل قطعاً ؛ لأنه يبعد وقوعه ممن رسخ الإيمان فى قلبه ، فكيف بمن بلغ رتبة النبوة ؟!

وقوله : ﴿ **قال أولم تؤمن** ﴾ ؟ الاستفهام للتقرير ، ووجهه أنه طلب الكيفية ، وهو مشعر بالتصديق بالإحياء ، وقوله : ﴿ **بلى ولكن ليطمئن قلبى** ﴾ أى ليزيد سكوناً بالمشاهدة المتضمنة إلى اعتقاد القلب ؛ لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب »[1] .

ومع كل هذا فإن قوة إيمان إبراهيم عليه السلام ، فضلاً عن نُبوته لم تمنعه من طلب العلم بالاستدلال وزيادة البيان .

قال الزمخشرى فى بيان ذلك : « فإن قلت : كيف قال له : ﴿ **أولم تؤمن** ﴾ وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً ؟ قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين ، و ﴿ **بلى** ﴾ إيجاب لما بعد النفى ، معناه : بلى آمنت ﴿ **ولكن ليطمئن قلبى** ﴾ ليزيد سكونًا وطمأنينة ، بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال . وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب ، وأزيد للبصيرة واليقين ؛ ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك ، بخلاف العلم الضرورى ، فأراد بطمأنينة القلب : العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك فإن قلت : بم تعلقت اللام فى ﴿ **ليطمئن** ﴾ ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب »[2] .

فالأمر كما قال صاحب المنار هو أن « صورة هذا ، صورة الإقرار مع طلب الزيادة فى العلم بالمعارف لتكون ثناء واستعطافاً أمام الدعاء ، أى أرنى بعينى كيفية إحيائك للموتى قال : ﴿ **أولم تؤمن** ﴾ أى ألم يوح إليك ؟ أولم تؤمن بذلك ؟ ﴿ **قال بلى** ﴾ أى قد أوحيت إلى فآمنت وصدقت بالخبر ، ﴿ **ولكن** ﴾ تاقت نفسى للخبر ، والوقوف على كيفية هذا السير ﴿ **ليطمئن قلبى** ﴾ بالعيان ، بعد خبر الوحى والبرهان .

وقد فهم بعض الناس من هذا السؤال أن إبراهيم عليه السلام كان قلقاً فى اعتقاده

---

(١) فتح البارى : ٦ / ٣٢٠ ، وتفسير الطبرى ٥ / ٤٨٥ - ٤٩٤ ، والمحرر الوجيز لابن عطية ٢ / ٢٢١ .
(٢) الزمخشرى : الكشاف ١ / ٢٩٦ .

بالبحث وذلك شك فيه ، وقد ورد فى صحيح البخارى « نحن أولى بالشك من إبراهيم » ، أى أننا نقطع بعدم شكه ، كما نقطع بعدم شكنا ، أو أشد قطعاً .

ولكن طلب المزيد فى العلم ، والرغبة فى استكناه الحقائق ، والتشوف إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان ، وأكمل الناس علماً وفهماً أشدهم للعلم طلباً ... وطلب الخليل رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه من هذا القبيل ، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية ، لا طلب الطمأنينة فى أصل عقد الإيمان بالبعث الذى عرفه بالوحى والبرهان ،دون المشاهدة والعيان »[1] .

ومن هذه الأقوال يستبين أن إبراهيم عليه السلام كان يطلب من ربه المزيد فى العلم ، ويعلن الرغبة فى استكناه الحقائق الكونية ، ومعرفة أسرار الخليقة ، فضلاً عن مزية السؤال فى ترسيخ الطمأنينة فى القلب ، فبالرغم من أنه قد أوتى النبوة ، وأنه لا يشك فى جنب الله ، فقد أراد أن يزداد سكوناً وطمأنينة « بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال – كما ذهب الزمخشرى – لأن تظاهر الأدلة أسكن للقلوب ، وأزيد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضرورى ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك »[2] .

وهكذا كانت دعوة إبراهيم عليه السلام فتحاً للرسالات الكبرى التى ختمت بالإسلام الذى شمل الناس جميعاً ، فكأن رسالة إبراهيم نقلت مجال الرسالات السماوية من دائرة الديانات المحلية – كل نبى إلى قومه – إلى مجال أمم الأرض جميعاً ، ومن دائرة الاكتفاء بالعلم الضرورى إلى مجال العلم الضرورى ، المضموم إليه العلم الاستدلالى ، لكي يواكب تفوق العقل البشرى الذى بلغ رشده ، ولهذا فقد خرج إبراهيم عليه السلام من أرض (أور Ur) فيما بين النهرين ، وانتقل بدعوته إلى الشام ومصر والحجاز حيث شيد الكعبة المشرفة ، وهذه الأرض التى جال فيها هى مهبط الديانات كلها .

وأعد إبراهيم عليه السلام بذلك أساس أعظم دعوة دينية سماوية ، الدعوة

---

(١) الشيخ محمد رشيد رضا : تفسير المنار ٣ / ٥٣ – ٥٤ .
(٢) الكشاف : للزمخشرى ١ / ٢٩٦ .

الإسلامية التى بعث بها محمد ﷺ الرحمة المهداة للعالمين .

الشيء الحقيق بالنظر فى دعوة إبراهيم عليه السلام : انتقال منهج الدعوة فى الرسالات السماوية من التلقين المباشر بالعلم الضرورى ، إلى ضم الاستدلال إليه ، أى ضم علم الاستدلال ، والتجربة فى الحوار القائم بين الله والإنسان ، ممثلاً فى إبراهيم عليه السلام ، أول من جرؤ على السؤال من الرسل - بعفو ربه - طلباً للمعاينة ، والعلم بالمشاهدة العيانية . ﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى** ﴾ فكان بشراً رسولا ،وكان ممهداً لفورة العقل الأولى التى ارتكزت عليها طموحات الإنسان منذ رسالة إبراهيم عليه السلام إلى يوم الدين .

كذلك حدث فى دعوة إبراهيم عليه السلام انتقال طرق العقاب - من القصاص الفورى - كما كان الحال فى الرسالات السابقة مثل : رسالات : نوح وهود وغيرهما من الرسل والأنبياء - إلى العقاب الأخروى المؤجل ، وثمة شيء ربط إبراهيم عليه السلام بمن سبقوه من الرسل ، تلك هى المعجزة الحسية ، فما أشبه طوفان نوح وسفينته، بأثر ناقة صالح ، وحوت يونس ، بالنار التى كانت برداً وسلاماً على إبراهيم ، وبمن لحقوه أيضاً كعصا موسى ، ومائدة عيسى ، وغير ذلك من معجزات الأنبيا الحسية - عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

إبراهيم عليه السلام كان كمن سبقوه ولحقوه من الأنبياء عليهم السلام ، مؤيداً بالمعجزات الحسية ، وكان أول من سأل من الأنبياء ، كما كان مبشراً بأهمية العقل ، وأهمية العلم الاستدلالى التجريبى ، والتفكر والتدبر فى آيات الكون ، وتلك هى المعطيات التى أعلى شأنها فيما بعد الإسلام فيما جاء وحياً فى القرآن الكريم . وفى السنة النبوية الشريفة .

هذا وإن الدين فى كل الرسالات السماوية من لدن آدم حتى محمد ﷺ يدعو إلى الإله الواحد ، ويدعو الناس إلى الإيمان بالله وحبه ، وعبادته بلا شريك . قال تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[1] .

---

(١) الشورى : ١٣ .

وكان فى الإسلام جماع الشرائع السماوية ؛ لأنه أُنزل رحمة للعالمين .

الله عز شأنه كما جاء فى القرآن الكريم

نفى القرآن الكريم ما سوى الله عز شأنه ، قبل أن يطرح عقيدة التوحيد : ﴿ **لا إلـٰه إلا الله** ﴾ ، ﴿ **لا إلـٰه إلا هو** ﴾ وذلك حتى لا يتجه عقل إنسان إلى أن يشرك بالله إلـٰهاً آخر ، ولهذا كان الركن الأول فى الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهذه الشهادة تضمنت نفياً يؤكد إثباتاً ، فقد نفت الألوهية عن غيره ، مع إثباتها له سبحانه وتعالى ، كما تضمنت أيضاً معنى الحرية ، لأن العابد لله وحده ، لا يخضع لآلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ، قال تعالى ﴿ **لا إلـٰه إلا الله** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **الله لا إلـٰه إلا هو الحى القيوم** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد** ﴾(٣) .

هذا هو النهج الذى اتبعه القرآن فى منهج التوحيد ، نفى ثم إثبات ، سلب ثم إيجاب ، أى أن تنفى ثمة احتمال ممكن لوجود آلهة أخرى مع الله ، كما فعل المشركون الذين جعلوا لله شركاء فى الملك ، فقد اعتقدوا بأن الله موجود ، ولكنهم رأوا باطلاً أن وجوده لا ينفى وجود آلهة أخرى – تعالى الله عما يشركون .

الله واحد لا شريك له فى الملك . محيط بكل شى . ليس كمثله شيء . عالم الغيب والشهادة .

قال تعالى : ﴿ **لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السمٰوات ولا فى الأرض** ﴾(٤) .

﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾(٥) .

﴿ **وسع ربنا كل شيء علماً** ﴾(٦) .

﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾(٧) .

---

(١) محمد : ١٩ .
(٢) البقرة : ٢٥٥ .
(٣) الإخلاص : ١ – ٤ .
(٤) سبأ : ٣ .
(٥) الأنعام : ١٠١ .
(٦) الأعراف : ٨٩ .
(٧) الأعراف ٠ ٥٤ .

﴿ عليم بذات الصدور ﴾[1] .

﴿ الحى الذى لا يموت ﴾[2] .

﴿ وهو الذى يحيى ويميت ﴾[3] .

﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾[4] .

﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾[5] .

﴿ عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾[6] .

﴿ الله الذى خلق السمٰوات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾[7] .

﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾[8] .

ذلك هو الله – عز شأنه وتعالى ذكره – كما جاء فى القرآن الكريم ، كلام الله أى كما وصف سبحانه نفسه ، وصف تفهيم ، لا وصف تشبيه ولا تجسيم ، وغاية ما يقال فى الذات الإلٰهية ، كما ذكر القرآن الكريم ، وهو كلام الله سبحانه وتعالى « أن الذات الإلٰهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات »[9] وأكملها .

ووحدانية الله ، هى وحدانية ذات ، كما هى وحدانية صفات ، كما هى وحدانية عبودية ، ولا خلاف عند علماء المسلمين فى ذلك ، فهو معلوم من الدين بالضرورة ، وأصله من القرآن الكريم ، قال تعالى : **﴿ ليس كمثله شيء ﴾**[10] .

وهذا الأصل كاف مانع عن الخوض فيما خاض فيه الفلاسفة ، فقد وصف الله تعالى ذاته فقال عز من قائل : **﴿ هو الله الذى لا إلٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إلٰه إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾**[11] .

---

(١) فاطر : ٣٨ . (٢) الفرقان : ٥٨ (٣) المؤمنون : ٨٠ . (٤) القصص : ٨٨ .

(٥) الإخلاص : ٤ . (٦) المؤمنون . ٩٢ . (٧) السجدة : ٤ . (٨) الحديد : ٤ .

(٩) العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٤٣ ، كتاب الهلال ١٩٦٥ م .

(١٠) الشورى : ١١ . (١١) الحشر : ٢٢ – ٢٤ .

﴿ وهو الغفور الودود ۝ ذو العرش المجيد ۝ فعال لما يريد ﴾[1] .

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾[2] .

هذه هى الصفات الإلـٰهية التى تدل على وحدانيته ، وتعرف بوحى الكتاب والسنة على ظاهرها كما وردت فيهما ، ولهذا فقد دعا ابن تيمية الفلاسفة العقلاء إلى الإيمان بالله وحده بموافقة القرآن والسنة ، فهم لا يصيبون الصدق والعدل إلا إذا وافقوهما ، قال ابن تيمية : « إن الأدلة الصحيحة لا تعارض بحال الشريعة ، وإن المعقول الصريح ، مطابق للمنقول الصحيح ، وقد رأيت من هذا عجائب فقل أن رأيت بعد ذلك حجة عقلية هائلة لمن عارض الشريعة ، قد انقدح لى وجه فسادها وطريق حلها »[3] .

« وهذه الصفات ، وإن تشابهت بالاسم مع صفات الناس ، إلا أن ما يضاف إلى الله تعالى يليق بالخالق لا بالمخلوقين »[4] فهو سبحانه واحد أحد فرد صمد ، وأسماؤه الحسنى كلها تدل على ذاته ، ويدل هذا من صفاته على ما لا يدل عليه الآخر « فهى متفقة فى الدلالة على الذات ، متنوعة فى الدلالة على الصفات »[5] .

يقول الإمام الغزالى رحمه الله : « وتتعالى صفات الله عن أن تشبه صفاتنا »[6] وكلها تقيم حجة التوحيد ، والشهادتان : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، هما فيصل التفرقة بين الإيمان بالله وتوحيده والإقرار له بالعبودية ، وبين الكفر ، كما أنهما أساس كل تكليف تعبدى فى الإسلام .

ويخاطب القرآن الكريم الذين جعلوا لله شركاء بقوله تعالى : **﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾**[7] وقال تعالى : **﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون**

---

(١) البروج : ١٤ - ١٦

(٢) الحديد : ٣ .

(٣) ابن تيمية : بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ١ / ٢٣٤ على هامش منهاج السنة .

(٤) ابن تيمية : الرسالة الحموية الكبرى ، ١ / ٤٢٨ وما بعدها . ولأبى زهرة : العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن ص ٢٤ - نشر مجمع البحوث الإسلامية ، وله أيضاً : المذاهب الإسلامية ١ / ٢٣١

(٥) ابن تيمية : الرسائل الكبرى ٢ / ٧٧ رسالة مراتب الإرادة .

(٦) الإمام الغزالى : روضة الطالبين ص ١٥٨ ضمن الرسائل الفرائد ، مطبعة الجندى بالحسين د . ت

(٧) يس : ٧٤ .

من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون * إلٰهكم إلٰه واحد ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ ولا تدع مع الله إلٰهاً آخر لا إلٰه إلا هو ﴾[3] .

كذلك فإن الآيات الكريمة تبين بطلان الشرك مع الله ، قال تعالى : ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السمٰوات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شِرك فى السمٰوات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾[6] .

وقال تعالى : ﴿ قل من رب السمٰوات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾[7] .

قال ابن القيم رحمه الله « فاحتج على تفرده بالألوهية بتفرده بالخلق ، وعلى بطلان إلٰهية ما سواه بعجزهم عن الخلق ، وعلى أنه واحد قهار ، والقهر التام يستلزم الوحدة ، فإن الشركة تنافى تمام القهر .

---

(1) هود : ١٠١

(2) النحل : ٢٠ – ٢٢ .

(3) القصص : ٨٨ .

(4) لقمان . ١١ .

(5) الأحقاف : ٤

(6) فاطر : ٤٠

(7) الرعد : ١٦ .

فأقام سبحانه حجة التوحيد ، وبين ذلك بأعذب ألفاظ وأحسنها ، لم يشبها غموض ، ولم يشنها تطويل ، ولم يعبها تقصير ، ولم يزرها زيادة ولا نقص ، بل بلغت فى الحسن والفصاحة ، والبيان والإيجاز ما لم يتوهمه متوهم ، ولا يظن ظان أن يكون أبلغ فى معناها منها ، وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشأن البالغ فى النفع ما هو أجل من الألفاظ »[1] .

الوحدانية فى الخلق والتكوين :

إن الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء وأحسن خلقه ، وهو سبحانه المتفرد بالخلق والتكوين والإنشاء من عدم . قال تعالى : ﴿ **أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإلٰه مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإلٰه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإلٰه مع الله قليلاً ما تذكرون * أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإلٰه مع الله تعالى الله عما يشركون * أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإلٰه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من فى السمٰوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾[2] .

فهو سبحانه وتعالى الخالق المدبر وحده للكون ، بالأمر الإلهى الواحد ، والفعل الإلهى الواحد ، قال عز من قائل : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[3] .

وحدانية العبادة :

عبد المشركون الأوثان ، مع إقرارهم بوجود الله زاعمين أنها تقربهم إلى الله ، وأنها واسطتهم إليه ، ثم نسوا أنها واسطة فعبدوها ، قال تعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله**

---

(١) ابن القيم . الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ١ / ٧٣ ، ٧٤ اختصره محمد ابن الموصلى ١٩٨١ .

(٢) النمل . ٦٠ — ٦٥

(٣) الأنبياء : ٢٢ .

يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[2] .

فلا شريك لله سبحانه فى العباده ، ولا يحق للناس أن يشركوا به عز شأنه أحداً من خلقه ولو كان نبياً ، أو ولياً ، كما يفعل القبوريون ، قال تعالى : ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ﴾[3] .

ولهذا فإن عقيده الإسلام تقرر أنه لا واسطه بين المخلوق والخالق ، فلا يشفع عنده شافع إلا بإذنه ومشيئته عز شأنه ، قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾[4] .

ومع هذا فإن دعوات الصالحين من عباد الله مستجابة — بإذنه تعالى - لأنفسهم ولغيرهم من المسلمين بنص القرآن الكريم ، قال عز من قائل : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾[5] .

* * *

الوحى هو طريق معرفة الله ، وبه يعلم العلم الضرورى ، وهو أشرف مقاصد ، والعقل هو الوسيلة ، وبه تضم المعرفة الاستدلالية إلى المعرفة الضرورية ، رآن الكريم يعطينا الطريق الأول كاملاً ، كما يسمو بنا إلى قيمة وسيله تحصيل المعرفة ستدلالية وبراهينها بالعقل ، وبالفطره الصحيحة .

ولما كان « التوحيد كامناً فى الفطرة »[6] كان الاعتراف بالخالق وتوحيده فطريا

(١) الزمر : ٣ (٢) الزمر : ٣٨ (٣) آل عمران ٧٩ .
(٤) البقرة : ١٨٦ (٥) الحشر : ١٠

(٦) ابن تيمية : الرسائل الكبرى ٢ / ٣١٢ ، والإمام الغزالى فى الإحياء ١ / ١٠٥ ، وابن القيم ، مفتاح دار السعادة ١ / ٣١٥

فى الناس ، قال تعالى : ﴿ **أفى الله شك فاطر السمٰوات والأرض** ﴾[1] فلا حاجة إذن إلى أدلة الفلاسفة لمعرفة الله .

وإن معرفتنا بالله لا يجب أن تتجاوز الآيات التى بينت حقيقة الإيمان وجوهره ، وهى كثيرة فى القرآن الكريم ، من أول آية نزلت فى القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ [2] .

وخلق الإنسان يستدل به على خالقه ، وهو أقوى دليل على وجوده عز شأنه ، يقول ابن القيم رحمه الله : « ولهذا فإن أهل السنة أثبتوا كمال الملك والحمد والحكمة ، فوصفوه بالقدرة التامة على كل شىء من الأعيان ، وأفعال العباد وغيرهم ، وأثبتوا له الحكمة التامة فى جميع خلقه وأمره وأثبتوا له الحمد كله فى جميع ما خلقه وأمر به ، ونزهوه عن دخوله تحت شريعة يضعها العباد بآرائهم كما نزه نفسه مما لا يليق به »[3] .

ومعرفة الله بصفاته من القرآن الكريم ، وبما وصف به تعالى نفسه « من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره ، وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ، ولا عبدوه حق عبادته »[4] .

وصفاته عز وجل تتعالى على صفات البشر ؛ لقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾ وهى حقيقة تعلم بالضرورة ، ولكن تصور الذات الإلٰهية متصفة بصفات تطلق على البشر أمر لا مفر منه ، ذلك لأنه لا مفر من معرفته سبحانه وتعالى إلا بمعرفة الصفات ، ولا يمكن تصور الصفات من داخل النفس فقط ، ولقد كان المخرج من تصور حياة الذات وصفاتها أن تكون على مثال صفات البشر وإن خالفتهم وهذا ما حدا بابن حزم الظاهرى رحمه الله إلى التردد فى نسبة الحياة والصفات

---

(١) إبراهيم : ١٠ .
(٢) العلق : ١ – ٥ .
(٣) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ٢ / ٦٦
(٤) ابن تيمية : مجموعة الرسائل الكبرى ١ / ١٢٤ ، المطبعة الشرفية ١٣٢٣ هـ

إلى الله عز شأنه ، وتعالى على خلقه ، فقال : « إن الله ينبغى أن يسمى حيا ، لا لأنه حى كحياة البشر ، بل لأن القرآن وصفه بالحياة »[1] .

ولهذا فقد أنكر ابن حزم رحمه الله على الكندى أن يحذو حذو أرسطو فى وصف الحق تبارك وتعالى اسمه « بأنه الحق من غير علة ، وأنه علة كل شىء »[2] وللسبب نفسه اتهم بالجهل فقال : « لقد جهل ربه من سماه بغير أسمائه التى سمى بها نفسه ، ووصفه بغير صفاته التى وصف بها نفسه »[3] .

ولقد عمل ابن حزم – رحمه الله – على ألا يقع فى خطيئة غيره من المتكلمين والفلاسفة الذين شبهوا الخالق بالخلق فقال : « ومن سأل عن الخالق عز وجل بما يقع على المخلوقات من الصفة ، ومن جهة الضد والند ، ومن جهة الكم والكيف ، كل هذا لا يجاب فيه حتى يسأل غير سؤال المخلوق ، وكما لا يشبه خلقه فى صفة من صفاته كذلك لا يمكن أن يسأل عنه بصفة من صفات خلقه »[4] أليس هو القائل عز من قائل : ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾[5] .

إن صفات الخالق هذه تضفى على سلوك خلقه من بنى الإنسان ، تكريماً وكمالاً بمعنى : أن الاعتقاد فى الله من جانب صفاته ، هو فى الوقت نفسه اعتقاد فى الإنسان من جانب سلوكه ، وإذا اتخذ ذلك السلوك صورة مثلى فى حياته قبل معاده ، وهو عز شأنه خالق كل شىء ﴿ **الله خالق كل شىء** ﴾[6] فهذا اللفظ عام لا تخصيص فيه بوجه ما ، و لا يدخل فى ذلك صفاته ، فإنها داخلة فى مسمى باسمه ، ليس داخلاً فى الأشياء المخلوقة ، كما لم تدخل ذاته فيها ، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق ، وما سواه مخلوق »[7] .

* * *

(١) نقلاً عن محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ٧١ .

(٢) ابن حزم : الرد على ابن التعريلة اليهودى ورسائل أخرى ص ١٩٥ ، تحقيق د . إحسان عباس ١٣٨٠ هـ – ١٩٦٠ م ، دار العروبة مصر .

(٣) نفسه : ص ١٩٥ .

(٤) نفسه : ٢٥٥ .

(٥) الشورى : ١١ .

(٦) الزمر : ٦٢ .

(٧) ابن القيم : كتاب الروح ، ص ١٤٦ ، مكتبة المتنبى د . ت .

الفصل الثامن

الإنسان : إما شاكراً وإما كفوراً

الإنسان : إما شاكراً وإما كفوراً

يقول الإمام الرازى المفسر رحمه الله : « إن آدم عليه السلام وقع عليه إثم المعصية ؛ لأنه أخطأ فى مسألة واحدة اجتهادية »[1] إلا أن هذه الخطيئة لم تُخَلِّ بينه وبين إظهار فضله على الملائكة بعلمه بعد توبته ، وبه صار سجود الملائكة ، وخليفة ربه فى الأرض ، ذلك لأن فضل علمه فاق أثر خطيئته الاجتهادية التى تاب عنها .

الإنسان حقيقة ربما نزع بقصد إلى التمرد ، وكفران النعمة ، وربما أدى به الأمر إلى الفجور ، ولكنه يعود إلى الله ، ثم إن فى بيان الفخر الرازى تنبيها إلى **حقيقتين هامتين** :

أولاهما: أن كل أخطاء آدم ، وهى الأخطاء التى أورثها بنيه ، إنما تندرج كلها تحت خطيئة واحدة أطلق عليها الرازى رحمه الله « مسألة واحدة اجتهادية » .

أما الحقيقة الثانية : فهى أن الإنسان بتوبته – بالرغم من وقوعه فى هذه الخطيئة – ظل المخلوق الأصلح للعبادة والخلافة ، لعقله وعلمه ، وأهليته للتكليف ، وقدرته على الاجتهاد ، ولهذا فقد استخلفه ربه عز شأنه دون سائر خلقه بمن فيهم الملائكة المقربون ، من حول العرش العظيم ، مع علم الله سبحانه وتعالى بأنه سيكون من بين أبناء آدم – فى كل الأجيال والعصور – من سيتردون فى هذه الخطيئة ، وهذا ما بينه ابن جرير الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾[2] فأشار رحمه الله إلى أن هذه الخطيئة الاجتهادية « لم تنقص من فضل آدم وشرفه ، ولو أنها أنقصت من فضله شيئاً ، لما استخلفه سبحانه فى الأرض دون الملائكة »[3] بعلمه وعمله ، فدل كما قال ابن القيم رحمه الله « على أن العلم أشرف ما فى الإنسان »[4] .

---

(١) فخر الدين الرازى : التفسير الكبير ١ / ٢٨٨ .

(٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) الطبرى : تفسيره ١ / ٤٨٠ ، بتحقيق شاكر .

(٤) ابن القيم : مفتاح دار السعادة ١ / ٥٥ ، نشر أحمد ناجى الجمالى ، ومحمد أمين الخانجى ١٣٢٣ هـ

على أن الجدير بالملاحظة ، أن الله تبارك وتعالى ، وضع الإنسان ، موضع المخلوق العالم العاقل المختار لمصيره ؛ لأنه – حتى وهو يتردى فى الخطيئة – إنما كان يجتهد ليخرج منها شريفاً كريماً ، بدليل أنه لما عرف خطيئته ، وأقر بذنبه ، ندم على ما سلف منه ، فطلب مغفرة ربه ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾[١] .

قال تعالى : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾[٢] .

طهره ربه عز شأنه من دنس المعصية ، وبذلك التطهير اقترنت له محبة الله تعالى ، فَفُضّل على الملك والشيطان .

طهره ربه بعد أن طلب المغفرة، دل على ذلك قوله عز من قائل : ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[٣] .

وكما وقع آدم عليه السلام فى الخطيئة بالاجتهاد ، عاد إلى ربه بالاجتهاد أيضاً ، وهذا لا يتأتى إلا بالعلم والإرادة والاختيار ، ولو كانت الملائكة أقدر على هذا من آدم لحازت شرف الخلافة ، ولما أورثها الله آدم وبنيه .

القرآن الكريم يبين وقوع آدم فى الخطيئة ، وكذلك توبته ، فقد أقدم آدم عليه السلام على كل من الموقفين : موقف الخطيئة ، وموقف التوبة بإرادته الكاملة وباختياره ، ففى الوقوع فى الخطيئة قال تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ . وفى الموقف الثانى استعد للتوبة من تلقاء نفسه فدعا ربه ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ .

ولهذا فلا يمكن التسليم بأن الإنسان نزاع إلى الشر ، أكثر من نزوعه للخير لكثرة ما ورد فى الآيات من ذكر نزوعه إلى الشر وكفران النعمة ونحوه »[٦] ، ذلك لأن

---

(١) البقرة : ٣٩ .

(٢) طه : ١٢١ ، ١٢٢ .

(٣) الأعراف : ٢٣ .

(٤) د . أحمد مهنا : الإنسان فى القرآن ص ٧٠ ، ٧١ . مجمع البحوث الإسلامية القاهرة ١٩٧١ م .

الله سبحانه شاء أن يبين للإنسان خطأه ، وأماكن الضعف فيه ، ويضعها أمام عقله وفكره ، فيطلب مغفرة ربه ، ويسعى إلى مرضاته جل شأنه .

إن أحوال الإنسان بين الشكر لله ، وكفران النعمة ، توزعت فى آيات كثيرة فى سور القرآن الكريم . وأجملت فى قوله عز من قائل : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾(٢) .

أما الآيات التى ذكرت كفران الإنسان بالنعمة ، أو التى ذكرت منازع الإنسان السيئة وصفتها بالمبالغة كما ورد فى الآيات :

﴿ **وإما كفوراً** ﴾(٣) .
﴿ **فإن الإنسان كفور** ﴾(٤) .
﴿ **إنه ليئوس كفور** ﴾(٥) .
﴿ **فيئوس قنوط** ﴾(٦) .
﴿ **إن الإنسان لربه لكنود** ﴾(٧) .
﴿ **وكان الإنسان قتوراً** ﴾(٨) .
﴿ **إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً** ﴾(٩) .

وكلها ذكرت صفات ذميمة للإنسان ، جاءت صيغة مبالغة ، وعندما تجتمع صفات الحمد والذم للإنسان فى آية واحدة ، جاء الذم بصيغة المبالغة ، ولا يأتى الحمد على الصيغة نفسها ، وهذا لا ينقص من قدر الإنسان وشرفه ، فالحمد لا يؤدى كله إلا لذات الحق – تعالى شأنه وكماله – وفرق بين أن يكون الحمد لله جل شأنه ، والذم للإنسان .

---

(١) الإنسان : ٣ .
(٢) الشمس : ٧ – ١٠ .
(٣) الإنسان : ٣ .
(٤) الشورى : ٤٨ .
(٥) هود : ٩ .
(٦) فصلت : ٤٩ .
(٧) العاديات : ١٠ .
(٨) الإسراء : ١٠٠ .
(٩) المعارج : ٢١ ، ٢٢ .

فاليأس والكفران والشح والجزع والمنع إلى آخر هذه الصفات التى وصف بها القرآن الكريم ، حالات الإنسان الذميمة الغالبة ، كلها حالات للإنسان .

أما الحمد فهو لله ، يؤديه الإنسان ، وهو لا يقدر أن يؤدى لله حمداً يليق بكماله ، ولهذا فالصفات الأولى ؛ لأنها متأصلة فى الإنسان فقد جاءت على صيغة المبالغة ، أما تلك الحميدة فلم تأت على الصيغة نفسها ، قال تعالى : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً** ﴾ – لله فضله – ﴿ **وإما كفوراً** ﴾ – بأنعم الله .

ولقد أجاد القرطبى رحمه الله فى تفهيمنا لدلالات الكلمات ، وموقعها من آيات القرآن الكريم فقال : « جمع القرآن بين الشاكر والكفور ، مع اجتماعهما فى معنى المبالغة نفياً للمبالغة فى الشكر ، وإثباتا لها فى الكفر ؛ لأن شكر الله تعالى لا يؤدى ، فانتفت عنه المبالغة ، ولم تنتف عن الكفر المبالغة ، فقل شكره لكثرة النعم عليه ، وكثر كفره وإن قل مع الإحسان إليه »[1] .

وقبل القرطبى شرح الله صدر القشيرى لمثله فقال فى قوله تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً** ﴾[2] فقال : « لقد ظهرت قيمة أعمالهم حيث قال الحق لأجله ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا** ﴾ ؛ لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل ، وموجبات الخجل من أعمالهم عدوا ذلك من أجل ما ينالون من الإحسان إليهم »[3] صدق القشيرى وصدق القرطبى فشتان بين ما يؤدى لله ، وما يؤدى للإنسان ، فقد خلق سبحانه الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً . إذ خلق الكون فى البدء بدونه ، وظل الحال هكذا دهراً طويلاً ، ثم خلقه من أمشاج أعدت إعداداً خاصاً ليكون منهم أعظم المخلوقات شأناً ، لكى يكون باختياره وإرادته إما شاكراً لله فضله ، وإما كفوراً بنعمائه ، وله عظيم الأجر والجزاء فى الأولى ، وعليه وزر الثانية .

لقد خلق البارى جل شأنه النفس الإنسانية وسواها ، وركب فيها قواها على أكمل ما يكون التركيب ، وحدد لكل منها وظيفة تؤديها باختيارها ، وكان كمال التسوية فى هبة العقل الذى يميز به الإنسان بين ما يقوم عليه فى حياته من الشر والهلكة

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ص ٦٩١٤ ، طبعة الشعب .
(٢) الفرقان : ٢٣ .
(٣) القشيرى : لطائف الإشارات ٤ / ٣٠٥ .

أو الأمان وحسن العاقبة ، قال تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾[1] ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد** ﴾[2] .

وكما قال الشيخ محمد عبده « فقد منح الله سبحانه الإنسان قوة التمييز ، كما وهبه قوة الاختيار ، فمن رجح طريق الخير أفلح ، ومن رجح طريق الشر خاب »[3] .

ولو تأملنا آيات سور : الإنسان والعاديات والبلد والشمس والإسراء وغيرها ، وكلها آيات مكية نزلت بمكة فى أول الدعوة الإسلامية لوجدناها القاعدة الأساسية التى ارتكز عليها كل ما جبل عليه الإنسان ، بطبيعة خلقه من خير وشر ، وتمييز وإدراك ، واختيار وإرادة . أى كل ما فى طبيعة الإنسان ، ذلك المخلوق الطينى الأصل ، الذى نفخ فيه من روح الله ، الذى تمثل خلقه فى قوله تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[5] .

وغيرها من الآيات التى تتضمن الدلالات نفسها ، لتأكد للإنسان كمال إرادته ، وزكاة نفسه ، ولعلمنا أن الله سبحانه وتعالى صور كل إنسان بحسب واقع الإنسان فيه ، بعد أن هداه ، وبعد أن سوى نفسه و ﴿ **ألهمها فجورها وتقواها** ﴾ ولعلمنا كذلك أن الإنسان بطبيعة تكوينه من طين الأرض ، وروح الله يجتهد وينجح بحسب اجتهاده نحو الخير ، أو نحو الشر ، وهو فى كل الأحوال قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى أحد الطريقين : « وهذه القدرة كامنة فيه يعبر عنها القرآن الكريم بالإلهام تارة فى قوله تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ وعبر عنها بالهداية تارة أخرى ، فقال عز من قائل : ﴿ **فهديناه النجدين** ﴾ فهى كامنة فيه فى صورة استعداده ، والرسالات السماوية ، والتوجيهات التربوية الصحيحة ، والتعليمية الصالحة وكل المؤثرات الخارجية توقظ هذه

---

(١) الشمس : ٧ – ١٠ .
(٢) العاديات : ٦ ، ٧ .
(٣) الشيخ محمد عبده : تفسير جزء عم ص ٧٤ ، طبعة الشعب .
(٤) الإسراء : ١٣ .
(٥) المدثر : ٣٨ .

الاستعدادات وتشحذها ، وتوجهها هنا أو هناك ، ولكنها لا تخلقها خلقاً ؛ لأنها مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعاً ، وكامنة إلهاماً »[1] .

« الإنسان مركب من أضداد متعادية »[2] لذلك فهو لا يطيع الله استكراهاً ، ولا لغلبة ، فإن عمل بنو آدم بالطاعة لم يُخلِّ بينهم وبين ما فعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، فلو أجبر الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب ، ولو أجبرهم على المعاصى لأسقط عنهم العقاب »[3] .

بهذا يستبين أن الإنسان مالك لزمام إرادته ، يبنى كماله على إطلاق قدراته عن قيودها ، ويبلغ مقاصده التى لا تقف عند نهاية أو حدود ، ويواجه هذا الكون بإرادته ، ويجنى ثمار إيمانه دون أن يأبه بقيود تضعها الطبيعة أو البشر ، للحد من حركته وسعيه ، والوقوف دون بلوغ قصده ، فقد « خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر وشرفه بهما ، وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره ، وإن الله عرض عليه جميع ما بين يديه من العالمين والأكوان وسلطه عليها ليفهمها ويسخرها وينتفع بها بدون قيد أو شرط ، إلا الاعتدال ، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة »[4] والتخلق بخلق القرآن ، خُلُق عباد الرحمن الذين قال الله تعالى فيهم : **﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً * إنها ساءت مستقراً ومقاماً * والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً * والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك**

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ٣٠ / ١٧٥ ، عيسى البابى الحلبى .

(٢) أبو حيان التوحيدى : الإشارات الإلٰهية ١ / ١٧٢ ، تحقيق عبد الرحمن بدوى – مطبعة جامعة القاهرة ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠ م .

(٣) محمد سعيد إسماعيل عبده : بحث مشكلة الجبر والاختيار ورأى ابن تيمية ، ضمن مجموعة أبحاث أسبوع الفقه الإسلامى ، ومهرجان ابن تيمية القاهرة ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٣ م .

(٤) محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٣٩ دار المعارف ١٩٧١ م .

يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفور رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً * والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً * والذى إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً * والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً * أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً * خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾[1] .

فهم متواضعون خاشعون يخاطبون الجاهلين بخلق حسن ، « متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود »[2] يجتهدون غاية الاجتهاد لرضا رب العباد ، وإن نزلوا أمام ربهم ومثلوا ، نزلوا منزلة العصاة ، وأهل الاعتذار لقوله تعالى : ﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾[3] .

والذين هم وسط بين الإسراف والتقتير ، فلا هم سفهاء ، ولا هم بخلاء أو أشحاء ، يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ويستمسكون فى مواطن الصدق قولاً وعملاً ، ولا يزنون ، ولا يساكنون أهل اللهو ، ولا يشاركونهم لهوهم ، ويأخذون آيات الله بالتفكير والتأمل ، وإمعان النظر والتعقل ، ويدعون ربهم متضرعين أن يجعل منتهى سعادتهم فى اجتماعهم بأهلهم ، وأن يكونوا من الذين يؤتمون ويقتدى بهم .

هؤلاء الذين أحسن الله إليهم بالجنة خالدين فيها أبداً ، حسنت مستقراً ومقاماً ؛ بما صبروا عما نهوا عنه ، وبما قدموا ما أمروا به و ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾[4] .

ولكى يكون الإنسان من هؤلاء يجب عليه أن يختار الأفضل ، وإن كان شاقاً على النفس ، ولهذا قال ﷺ : « حفت الجنة بالمكـاره ، وحفت النار بالشهوات »[5] .

---

(١) الفرقان : ٦٣ – ٧٦ .

(٢) القشيرى : لطائف الإشارات ٤ / ٣٢١ .

(٣) المؤمنون : ٦٠ .

(٤) الرحمن : ٦٠ .

(٥) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى المسند ١٥٣/٣ ، ٢٨٤ ، وأخرجه مسلم : فى كتاب الجنة وصفة نعيمها=

وأن يستعين دائماً بالله ، ويطلب الهداية ، كما يفعل المؤمنون ، قال تعالى ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾[1] ولا يكون من أولياء الشيطان ومحبيه فيعميه عن الحق ، قال تعالى ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلـٰهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه** ﴾[2] وإن غلبك الشيطان فلتستعذ بالله ، ولتطلب أن يعينك عليه ، قال تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[3] .

* * *

= ١٦٥/١٧ ، والترمذى : فى صفة الجنة ، باب ٢١ باب ما جاء فى : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ، حديث رقم ٢٥٥٩ ، جـ٤ / ٥٩٨ ، والدارمى : حديث رقم ٢٨٤٣ باب حفت الجنة بالمكاره ، ٢ / ٤٣٧ ، كلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(١) البقرة : ٢٥٧ .

(٢) الجاثية : ٢٣ .

(٣) الأعراف : ٢٠٠ ، ٢٠١ .

الفصل التاسع

العبودية لله : عبادة وعلم وعمل

العبودية لله : عبادة وعلم وعمل

يقول ابن تيمية رحمه الله : « لا ريب أن الإنسان قد يحصل له تارة من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقاً ، وتارة ما يكون باطلاً ، فإن اعتقاداته قد تكون مطابقة لمعتقدها وهو الحق ، وقد تكون غير مطابقة وهو الباطل ، والإرادات تنقسم إلى ما يوافق مصلحة ، وهو جلب المنفعة له ، وإلى ما لا يوافق مصلحة ، بل يضره .

« فإن الإنسان حساس متحرك بالإرادة ، ولهذا قال ﷺ : « أصدق الأسماء : الحارث وهمام ، وأحبها إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن ، وأقبحها : حرب ومرة »[1] فإن الإنسان لابد له من حرث ، وهو العمل والحركة الإرداية ، ولابد له من أن يهم بالأمور : منها ما يهم به ويفعله ، ومنها ما يهم به ولا يفعله ، فإن كان المراد موافقاً لمصلحته كانت الإرادة حسنة محمودة ، وإن كان مخالفاً لمصلحته كانت الإرادة سيئة مذمومة ، كمن يريد ما يضر عقله ونفسه وبدنه »[2] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٤ / ٣٤٥ عن أبى وهب الجشمى رضى الله عنه ، وكانت له صحبة قال . قال رسول الله ﷺ : « تسموا بأسماء الأنبياء . وأحب الأسماء إلى الله عز وجل : عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها الحارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرة ، وارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأعجارها ـ وقال ـ وأكفالها وقلدوها ، ولا تقلدوها الأوتار ، وعليكم بكل كميت أغر محجل ، أو أشقر أغر محجل ، أو أدهم أغر محجل » .

ومسلم : عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » ١٤ / ١١٣ كتاب الآداب ، باب النهى عن التكنى بأبى القاسم ، وبيان ما يستحب من الأسماء .

وابن ماجه : ٢ / ١٢٢٩ كتاب الأدب ، باب ما يستحب من الأسماء بمثل ما جاء عند مسلم .
الترمذى : ٥ / ١٢١ كتاب الآداب ، باب ما جاء ما يستحب من الأسماء .
النسائى : ٦ / ٢١٨ كتاب الخيل ، باب ما يستحب من شية الخيل وهو أقربها إلى رواية المسند .
الدارمى : ٢ / ٣٨٠ كتاب الاستئذان ، باب ما يستحب من الأسماء .
وأبو داود : ٤ / ٢٨٧ فى كتاب الأدب ، باب تغيير الأسماء حديث رقم (٤٠٤٩) .
وأكمل روايات هذا الحديث رواية أحمد ، وأقرب هذه الروايات إليها رواية النسائى .

(٢) ابن تيمية : تقريب درء تعارض العقل والنقل ص ٢٦٠ .

والله يهدى إلى الحق ، فهو سبحانه الذى تفرد بهداية القلوب ، وأرسل رسوله بالحق ليبين للناس ما أنزل إليهم من القرآن . قال تعالى : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾[1] وذلك غير الهداية المقصودة فى قوله تعالى : ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾[2] ؛ لأن الهداية الأولى : هى هداية التوفيق إلى الحق ، وهى هداية تفرد بها خالق القلوب ، أما الثانية : فهى هداية البيان ، بيان ما أنزل إلى الناس من ربهم ، وهو ﷺ المبلغ له ، والمبين ليهتدى به الخلق .

وفى الصحيح عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره : « لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، وأبا جهل فقال رسول الله ﷺ لأبى طالب : يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية يا أبا طالب : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعود بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو : على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال النبى ﷺ : « أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك »[3] فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى** ﴾[4] وأنزل فى أبى طالب : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾[5] .

وتكون هداية الله للعبد على ما علم سبحانه من اتجاه قلبه ، فقد أخذ عليه عهداً فى عالم الذر ﴿ **ألست بربكم** ﴾ ، ولأن أبا طالب توجه إلى دين أبيه لم يهده الله إلى الحق ، ولم ينفعه استغفار الرسول ﷺ ، ودعاؤه له ، بل نهى ﷺ عن ذلك .

وإذا قيل : إن الرسول ﷺ جاء هاديا ، فمعنى ذلك أنه جاء بالبيان مبينًا لشريعة الحق ، كما جاء بها الكتاب الكريم ، قال تعالى : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره** ﴾[6] .

---

(١) القصص : ٥٦ .
(٢) الشورى : ٥٢ .
(٣) رواه البخارى : باب إذا قال المشرك عند الموت لا إلٰه إلا الله ٢ / ١١٩ ، الشعب .
(٤) التوبة : ١١٣ .
(٥) القصص : ٥٦ .
(٦) الأعراف : ٥٩ .

فمن أحب التوجه إلى الله هداه إلى الصراط المستقيم ، وفى ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله : « إن الله ييسر من الهدى ما يبين للعبد فساد ذلك ، فإن هدايته خلقه وإرشاده لهم بحسب حاجتهم إلى ذلك ، وبحسب قبولهم الهدى ، وطلبهم له قصداً وعملاً » (١) .

وهؤلاء هم الذين قال تعالى فيهم ﴿ **وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين* مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيِّبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً * فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً** ﴾(٣) .

إن هؤلاء وأولئك جميعاً لم يطلبوا الهدى ، ولم يقبلوه ، وإن زعموا غير ذلك ، فالله لا يهديهم ؛ لأنهم قبلوا غير الهدى .

وإن الله جل شأنه يرسل الرسل للناس جميعاً لمن يقبلون الهداية ، ولمن لا يقبلونها - والله يعلمهم جميعاً - لكى تقوم الحجة على الناس قبل محاسبتهم ، قال

(١) ابن تيمية : موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول ٢ / ١٨٢ ، طبعة بيروت .
(٢) البقرة : ١١ - ١٩ .
(٣) النساء : ٦٠ - ٦٣ .

تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[2] .

وقال تعالى مخاطباً الأنبياء : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾[4] .

هكذا كانت دعوة الرسل منذ بعث الله سبحانه نوحاعليه السلام ، توجه الإنسان إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ، وكان شرط العبادة حب العبد ربه ؛ لأنه إذا كانت غاية العبادة الطاعة لله جل شأنه ، والخشوع ، والخضوع له ، فإن ذلك لا يتحقق إلا بحب المعبود ، وإخلاص القلب له ، قال تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾[5] .

ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله : « ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل ، وكمال الحب ، فإنهم يقولون : قلب متيم إذا كان معبداً للمحبوب »[6] « والعبد مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب ، المراد المعبود ، ومن حيث هو المسئول المستعان به ، المتوكل عليه ، فهو إلـهه الذى لا إله غيره ، وهو ربه الذى لا رب له سواه ، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين .

والناس فى هذا على درجات متفاوتة ، لا يحصى طرفيها إلا الله ، فأكمل الخلق

---

(١) النحل : ٣٦ .
(٢) الأنبياء : ٢٥ .
(٣) الأنبياء : ٩٢ .
(٤) المؤمنون : ٥١ ، ٥٢
(٥) التوبة : ٢٤ .
(٦) ابن تيمية : العبودية ص ٥٣ بتحقيق محمد حامد الفقى ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٧ هـ .

وأفضلهم ، وأعلاهم وأقربهم إلى الله ، وأقواهم وأهداهم : أتمهم عبودية لله من هذا الوجه »[1] .

وعلامة محبة الله ، ومحبة رسوله ، اتباع الرسول ﷺ وحبه ، وحب الجهاد فى سبيل الله ، والاجتهاد فى حصول ما يحبه الله من الإيمان ، وما ينتج عنه من فضائل الأعمال .

وقد لا يوفق المحب فيعتمد على غير الله ، فى طلب دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، أو مال أو رياسة فيقع فيما يبغضه الله ورسوله من الفسوق والعصيان ، « فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحب ، وهو موافقته فى حب ما يحب ، وبغض ما يبغض ، والله يحب الإيمان والتقوى ، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان »[2] .

والخضوع فى العبادة تلزمه المحبة لله ، ولما يحبه الله « فمن أحببته ، ولم تكن محباً خاضعاً له ، لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً له ، ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه محبوباً لهم – بل هو غاية مطلوبهم ، ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم – منكرين لكونه إلٰهاً ، وإن أقروا بكونه ربا للعالمين وخالقا لهم ، فهذا غاية توحيدهم وهو توحيد الربوبية الذى اعترف به مشركو العرب ، ولم يخرجوا به عن الشرك »[3] كما قال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السمٰوات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون** ﴾[5] .

---

(١) نفسه : ص ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) نفسه : ص ٤٥
(٣) ابن القيم : مدارج السالكين ١ / ٨٥ ، ٨٦ ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٦ م
(٤) الزمر : ٣٨ .
(٥) المؤمنون : ٨٤ – ٨٩ .

وحب الإنسان لربه فطرى ، ولذا فهو حتمى ، والإنسان محتاج دائماً إلى خالقه ، ومحتاج إلى حبه ، فالناس يحتاجون إلى البارى من جهة ربوبيته ، إذ هو الذى خلقهم ، والمخلوقون محبون لخالقهم منجذبون له ، فهو الذى يرزقهم بالمنافع ، ويدفع عنهم المضار ، قال تعالى : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾[1] .

وكل ما يحصل من أحد فإنما هو بخلقه وتقديره وتسببيه وتيسيره ، وهذه الحاجة التى توجب رجوعهم إليه حال اضطرارهم كما يخاطبهم بذلك فى كتابه العزيز ، وهم محتاجون إليه من جهة ألوهيته ، فإنه لا صلاح لهم إلا بأن يكون هو معبودهم الذى يحبونه ويعظمونه ، ولا يجعلون له أنداداً يحبونهم كحب الله ، بل يكون ما يحبونه سواء كأنبيائه ، وصالحى عباده ، إنما يحبونهم لأجله كما فى الصحيحين ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى به فى النار »[2] .

« ومعلوم أن السؤال والحب والذل والخوف والرجاء والتعظيم ، والاعتراف بالحاجة والافتقار ، ونحو ذلك مشروط بالشعور بالمسئول المحبوب المرجو المخوف المعبود العظيم الذى تعترف النفوس بالحاجة إليه ، فالافتقار الذى تواضع كل شيء لعظمته ، واستسلم كل شيء لقدرته ، وذل لعزته ، فإذا كانت هده الأمور مما تحتاج النفوس إليها ولابد لها منها ، بل هى ضرورية فيها كان شرطها ولازمها ، وهو الاعتراف بالصانع والإقرار به ، أولى أن يكون ضرورياً فى النفوس »[3] لقوله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[4] فحب المعبود ههنا شرط فى العبادة ، فإذا افتقر العابد إلى هذا الشرط أو فقده لم تكن عبادة ، قال تعالى : ﴿ **يـأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف**

---

(١) النحل . ٥٣ .
(٢) متفق عليه .
(٣) ابن تيمية · موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول ٢ / ١٦٨ ، بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .
(٤) آل عمران . ٣١ .

يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾[1] .

فقد جمعت الآية صفات المؤمنين وهى : حب الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله ، وحب المؤمنين فى الله ، وأنهم لا يفعلون إلا ما يحبه الله ، ومن يفعل هذا فقد عبد الله سبحانه حق عبادته ، وفاز بمحبة الله .

ومن شرط العبادة كذلك تصديق الرسول ﷺ فى كل ما جاء به من عند الله ، ذلك لأن الرسول ﷺ لا يأمر إلا بما يحب الله ، ولهذا كان فرضاً على المحب لله أن يلزم الرسول ﷺ ويتبعه فيصدقه فيما أخبر ، ويتأسى به فيما فعل ، فإن فعل ، فعل ما يحبه الله ورسوله ، قال تعالى : **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾**[2] .

وفى الصحيح عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « فوالذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »[3] .

وفى الصحيحين أيضاً « أن عمر بن الخطاب قال : يا رسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى ، فقال : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال : فوالله لأنت أحب إلىّ من نفسى ، فقال : الآن يا عمر »[4] .

إذن فلا تكون العبادة كاملة ، ولا يكمل دين المرء إلا بحب الله ورسوله ؛ لأن المؤمن المحب ، يكون بالحب مطيعاً لله تعالى وللرسول ﷺ مستجيباً لكل ما يفرضه عليه الدين ، من العلم والعمل والكسب ، والجهاد فى سبيل الله ، وصيانة أرض الإسلام ، والتضحية بالمال والنفس والولد والزوج ، وكل عزيز وغال مهما عظم شأنه .

---

(١) المائدة : ٥٤ .

(٢) آل عمران : ٣١ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ، ١ / ١٠ الشعب ، وأخرجه الدارمى عن أنس رضى الله عنه ، برقم ٢٧٤١ ، باب « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

(٤) متفق عليه .

إن العبادة كما يبين ابن تيمية : « اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والمملوك من البهائم ، والدعاء والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة .

وفوق ذلك من العبادة : حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هى من العبادة لله .

وذلك أن العبادة لله هى الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، التى خلق الله الخلق لها »[1] لقوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[2] وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إلـٰه غيره** ﴾[3] .

والعبادة بهذا الوجه هى ما خلق الله الإنسان من أجله ، ورضيه لهم وسخطه لهم فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً . يرضى لكم : أن تعبدوه لا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تتفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال »[4] .

فالعبادة – كما يستبين من كل ما سبق ذكره – بهذا المفهوم الشامل : تشتمل على كل ما للإنسان فى الدنيا والآخرة ، وعلى هذا فليعرف المسلم أن معنى العبادة : إقرار بالعبودية مع العلم والعمل للدنيا والآخرة .

فلا تقتصر العبادة على كونها إقراراً بالعبودية عن حب وطواعية لله تعالى ، وأداء العبادات فحسب ، ولكن لابد من معرفتها – كذلك – من جهة كونها علما وعملا لخير الدنيا والآخرة ، ذلك لأن « العبادة تتطلب تحقيق عناصر كثيرة فى المسلم منها :

---

(١) ابن تيمية : العبودية ص ٣ ، ٤ .
(٢) الذاريات : ٥٦
(٣) الأعراف : ٥٩
(٤) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده ٢ / ٣٦٧ .

عنصر الإيمان ، وعنصر الإسلام ، وعنصر الإحسان ، وعنصر العدل ، وعنصر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعنصر الجهاد فى سبيل الله ؛ لتكون كلمة الله هى العليا ، كما تتطلب ما تستوجبه هذه العناصر من أقوال وأعمال وأخلاق وآداب »(١) .

العبـادة علم وعمل :

ليعلم الناس أن تعلم العلم عبادة ، وأن العمل عبادة :

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »(٢) .

وقال سفيان بن عيينة : « طلب العلم والجهاد فريضة على عبادتهم ، ويجزئ من بعضهم على بعض »(٣) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « ما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيها علماً إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه »(٤) .

وكان رسول الله ﷺ يرشد أمته إلى ما جاء به من العلم ليتعلموا به ويتعبدوا ، عن أبى موسى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « إن مثل ما بعثنى به الله عز وجل من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها نقيَّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسَقَوْا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كَلأً فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعمل وعَلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »(٥) .

---

(١) د . على عبد الحليم محمود : وسائل التربية عند الإخوان المسلمين ص ٢١ .

(٢) رواه ابن ماجه .

(٣) أبو يوسف بن عبد البر القرطبى : جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله ١/ ١٠ المطبعة المنيرية ١٣١٨ هـ - ١٩٧٨ م .

(٤) رواه الترمذى ٥ / ٣٨ برقم ٢٦٤٦ كتاب العلم ، باب فضل طلب العلم ، وبرواية مطولة برقم ٢٩٤٥ كتاب القرآن باب ١٢ .

(٥) أخرجه البخارى : فى كتاب العلم ، باب فضل من عَلِم وعَلَّم ، ١ / ٣٠ الشعب ، ومسلم : فى كتاب =

وعن سفيان الثورى قال : « ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت النية » ، وكان يقول أيضاً : « لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن يعلم الناس العلم »[1] .

ولهذا كان الحسن رضى الله عنه يقول فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة** ﴾[2] « الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة ، والحسنة فى الآخرة الجنة »[3] .

وبالعلم بيّن الله سبحانه عن طريق الرسل والأنبياء شرعته ؛ ليقيم على الناس الحجة ، قال تعالى : ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً** ﴾[4] .

ذلك لأن الإنسان بين هداية وغواية ، وعليه أن يختار ، وأيهما اختار كان عليه الجزاء من رب العباد ، بما قدم بين يدى مولاه . ولكن لا جزاء فى كل الأحوال قبل إقامة الحجة عليه، فلا يكلف العبد بغير قيام الحجة عليه ، وتمكينه من العلم بها ، وسواء أطاع أم أبى فقد قامت عليه الحجة ، وعليها يعولُ الجزاء . ذلك لأن « الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، فإذا عاقبه على ذنبه ، عاقبه بحجته على ظلمه »[5] قال تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾[6] . وقال تعالى : ﴿ **كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء** ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها**

= الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث به النبى ﷺ من الهدى والعلم ، ١٥ / ٤٥ ، ٤٦.
واللؤلؤ والمرجان ٣ / ٩٢ – ٩٣ كتاب الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث به النبى من الهدى والعلم .

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ١ / ٢٥ .
(٢) البقرة : ٢٠١ .
(٣) ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ١ / ٥٢ .
(٤) النساء : ٢٦ – ٢٨ .
(٥) ابن القيم : مدارج السالكين ١ / ٢٣٩ .
(٦) الإسراء : ١٥ .
(٧) الملك : ٨ ، ٩ .

مصلحون ﴾[1] .

قال ابن القيم رحمه الله : « إن الله لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول فيكون قد ظلمهم ، فإنه سبحانه لا يأخذ أحداً ولا يعاقبه إلا بذنبه ، وإنما يكون مذنباً إذا خالف أمره ونهيه ، وذلك إنما يعلم بالرسل .

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب علم أن الله سبحانه قدره سبباً مقتضياً لأثره من العقوبة ، كما قدر الطاعة سبباً مقتضيا للثواب ، وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر ، كجعل السم سبباً للموت ، والنار سبباً للإحراق والماء سبباً للإغراق »[2] .

فإذا أقيمت الحجة على العبد ، ولم يتبع الحق فاتبع الباطل ، أخذ بالمؤاخذة اللازمة له ، والواجبة عليه ، والله سبحانه وتعالى لا يأمر الأنبياء إلا بتبليغ ما يصلح له العبد ويصلحه ، ويكون بذلك قد أقيم عليه الحجة العادلة ، فإن اتبع الحق جوزى به ، وإن اتبع غيره أخذ به . قال تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾[5] .

وعلى هذا فمن اتبع الحق جوزى به خيراً ، ومن اتبع الباطل حق عليه العذاب ، ولا يستوى من آثر الله ومحبته وطاعته ، ومن اتبع الباطل وآثر هواه فضل سواء السبيل ، فقد قامت عليه الحجة بذنوبه ، وعذب بها .

عن أبى عبد الرحمن عن على قال : « كنا فى جنازة فى بقيع الفرقد ، فأتانا رسول

---

(١) هود : ١١٧ .

(٢) ابن القيم : مدارج السالكين ١ / ٢٤٠ ، وابن تيمية : كتاب النبوات ، ص ١٦٣ .

(٣) يٓس : ٦٩ ، ٧٠ .

(٤) يونس : ٣٣ .

(٥) غافر : ٦ .

الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة ، فجعل ينكث بمخصرته الأرض ثم قال : ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة ، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار ، وقد كتبت شقية أو سعيدة ، قال : فقال رجل يا رسول الله : أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ، فقال : من كان من أهل السّعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى** ﴾[1] »[2] .

ومع هذا فإن الله الرءوف الرحيم ، التواب الغفور ، يفتح للعبد أبواب رحمته ، حتى ولو كانت نفسه أمارة بالسوء ، مع أن النفس الأمارة بالسوء جاهلة ظالمة ، ولكن خروجها من الجهل المؤدى بها إلى الظلم ، ينبغى أن يكون ببذل الجهد فى الأخذ بأسباب العلم النافع ، والتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة ، وهذا يتم أولاً بمعرفة خطأ النفس ، والعزم على المعرفة الكاملة بالله ، بالحب والعبادة ، والعلم النافع ، وبذل الخير لمن يحبهم الله ورسوله ، وعند ذلك فإن الله سيلهم النفس تقواها ويزكيها ، فهو سبحانه وتعالى خير من زكاها . قال ﷺ لحصين بن المنذر « قل اللهم ألهمنى رشدى ، وأعذنى من شر نفسى »[3] ذلك لأن العبد إذا قصد الهداية وفقه الله تعالى إليها .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : « إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا فمن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له »[4] .

وقال تعالى : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً** ﴾[5] .

وفى حديث سيد الاستغفار عن شداد بن أوس رضى الله عنه : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ

---

(١) الليل : ٥ – ١٠ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب القدر ، باب كيف خلق الآدمى فى بطن أمه ١٦ / ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) أخرجه الترمذى ، كتاب الدعوات ، باب ٧٠ ، ٥ / ٤٨٥ .

(٤) من حديث طويل أخرجه الترمذى ، رقم ١١٠٥ باب ١٦ / ما جاء فى خطبة النكاح ٣ / ٤١٣ .

(٥) النور . ٢١ .

بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[1] .

ولأن الله قد فرض الحجة على عباده ، فقد أرسل إليهم رسله بالهدى والبيان ، والأدلة والبراهين الدالة على أنهم جاءوا بالحق من عند الله ، ففى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[2] .

وما جاء به الأنبياء وهم مورثو العلماء ، فصار فرضاً عليهم أن يبلغوه للناس ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾[3] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سئل عن علم فكتمه ، جاء يوم القيامة عليه لجام من نار »[4] .

فالبينات الواردة فى الآية الكريمة: جمع بينة، وهى الأدلة والبراهين المبينة فى نفسها ، والمبينة لغيرها « وقد بين سبحانه فى كتبه ما يهدى الناس فعرفهم ما يقصدون ، وما يسلكون من الطرق ، وعرفهم أن الله هو المقصود المعبود وحده ، وأنه لا يجوز عبادة غيره »[5] .

والنذير من الله تعالى لكل العباد ، لمن علم سبحانه أنه سيؤمن ، ومن علم أنه لن يؤمن قال تعالى : ﴿ **يـأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[6] .

---

(١) رواه البخارى عن شداد بن أوس ، كتاب الدعوات ، باب أفضل الاستغفار ٨ / ٨٣ طبعة الشعب .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبى ﷺ « بعثت بجوامع الكلم » ٩ / ١١٣٠ .

(٣) البقرة : ١٥٩ .

(٤) رواه أبو داود عن أبى هريرة برقم ٣٦٥٨ ، باب كراهية منع العلم ٣ / ٣٢٠ ، والترمذى رقم ٢٦٤٩ ، باب ٣ ما جاء فى كتمان العلم ٥ / ٢٩ .

(٥) ابن تيمية : كتاب النبوات ص ١٥٢ .

(٦) البقرة . ٢١ .

وهؤلاء الناس من الفريقين :

أولهما : الذين قال تعالى فيهم : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾[1] .

وثانيهما : وهم الذين قال تعالى فيهم : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم * ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[2] .

إن الآيات تبين أن الحجة مفروضةعلى الجميع ، سواء الذين آمنوا ، أو الذين لن يؤمنوا ، وفى ذلك يقول الطبرى رحمه الله : « أمر جل ثناؤه الفريقين اللذين أخبر الله عن أحدهما أنه سواء عليهم أنذروا ، أو لم ينذروا أنهم لا يؤمنون لطبعه على قلوبهم ، وعن الآخر أنه يخادع الله والذين آمنوا بما يبدى بلسانه من قولهآمنا بالله واليوم الآخر ، مع استبطانه خلاف ذلك ، ومرض قلبه ، وشكه فى حقيقة ما يبدى من ذلك ، وغيرهم من سائر خلقه المكلفين بالاستكانة والخضوع له بالطاعة ، وإفراد الربوبية له ، والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة ؛ لأنه جل ذكره هو خالقهم ، وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم ، وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم ، فقال لهم جل ذكره : فالذى خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم وهو يقدر على نفعكم وضركم ، أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع ولا ضر ، وذلك أن الله تعالى أمر من وصفنا بعبادته ، والتوبة من كفره ، بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون ، وأنهم عن ضلالهم لا يرجعون »[3] .

فالله جل شأنه يعلم سلفاً ما يظهر الصنفان ، وما يستبطنون ، ومع هذا أرسل إليهم الرسل بالنذير يطالبون الجميع بعبادة ربهم الذى خلقهم ومن قبلهم ، وليتقوه

---

(١) البقرة : ٥ .

(٢) البقرة : ٦ - ١٠ .

(٣) الطبرى : تفسير ١ / ٣٦٣ بتحقيق شاكر .

بطاعته وتوحيده ، وإفراده بالربوبية والعبادة ، ولو شاء الله سبحانه لأتى كل نفس هداها ، ولكنه لحكمة يعلمها عز شأنه لم يشأ قال تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً** ﴾[1] ولكنه سبحانه لم يشأ لحكمة ، ذلك أن « الرب تعالى يعين المؤمنين فيفعلوا ما أمروا به وأحبه الله منهم ، ولا يعين آخرين لما له فى ذلك من الحكمة ، فإن الفعل لا يوجد بلوازمه ، وانتفاء أضداده ، وقد يكون فى وجود ذلك فوات حكمة له هى أحب إليه من طاعة أولئك ، أو وجود شيء دفعه أحب إليه من حصول معصية أولئك »[2] فأمر الله لهم بعبادته إنما لمصلحتهم ، فلهم فيه منفعة وثواب وهم المهتدون ، أما الذين لا يؤمنون ، فإن فى أمره لهم سبحانه عن طريق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، يكون قد أقام عز شأنه الحجة عليهم ، وأزاح عن نفسه جل شأنه علة قولهم : لم يأت النذير فينذرنا ويخوفنا من عاقبة سوء العمل والمنقلب .

ومن أجل ذلك أرسل سبحانه الرسل مبشرين ومنذرين ، وميسرين فى كل الأحوال ؛ لأن الله عز شأنه – وهو يعلم ما يصلح الناس – لم يكلفهم بما لا يطيقونه قال تعالى : ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم** ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ **ما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾[6] .

وعلى ذلك فإن الله سبحانه وتعالى ما خلقهم إلا لعبادته ، والعبادة هى الغاية

---

(١) يونس : ٩٩ .

(٢) ابن تيمية : تقريب درء تعارض النقل والعقل . ص ٢٧١ ، إعداد : محمد السيد الجليند ، إشراف ومراجعة : د . عبد الصبور شاهين ، الأهرام ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م .

(٣) النساء : ٢٦ .

(٤) البقرة : ١٨٥ .

(٥) المائدة : ٦ .

(٦) الحج : ٧٨ .

التى أرادها منهم ، وبها تحصل سعادة من أحب وعبد .

والناس فى كل الأحوال : أحوال الطاعة والمعصية ، مختارون مريدون فى العمل ، ولذلك كان حقاً على الله عز شأنه أن يقيم الحجة عليهم ، وإن جرى قضاء الله عليهم .

والذى يؤكد أن قضاء الله جار عليهم – فى كل الأحوال – قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾(1) .

فإن الله تعالى ذكره يبيّن فى هاتين الآيتين لنبيه ﷺ : « أن الله إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده ، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك وإقرارهم به »(2) .

وهذا قضاء الله الجارى عليهم وفيهم ، ثم أقام عليهم الحجة : كيلا يقولوا يوم القيامة ﴿ **إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾(3) .

وهذا ما فهمه علماء السلف من معنى الإشهاد ، بمعنى قضاء الله الجارى عليهم ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله : « وليس المراد بقوله تعالى : ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم** ﴾ أن جعلهم يتحملون شهادة على أنفسهم يؤدونها فى وقت آخر ، فإنه سبحانه فى مثل ذلك إنما يشهد على الرجل غيره ، كما فى قصة آدم لما أشهد عليه الملائكة »(4) ولكن ليبين أن الإقرار منهم فى جبلتهم علم ضرورى ملازم لهم لا ينكرونه لقوله تعالى : ﴿ **أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ أى حتى لا تقولوا بعده : إنا كنا غافلين عن حقيقة ربوبيته لنا ، وعن حقيقة عبوديتنا له جل شأنه وعز ذكره .

فالخلق جميعاً بفطرتهم مقرون بألوهية الخالق ، مقرون بعبوديتهم له ، ولكن يقدر لبعضهم نسيان ذلك ، فيكون تذكير الرسل لهم ، يقول تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين**

---

(1) الأعراف ١٧٢ ، ١٧٣ .
(2) الطبرى : تفسيره ٩ / ٧٥ – ٨١ ، طبعة دار الحديث ، نشر الريان ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م
(3) نفسه . ٩ / ٨١ ، ٨٢
(4) ابن تيمية · تقريب درء تعارض النقل والعقل ص ٢٨٢ .

نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾[1] .

وفى الصحيح يقول تعالى للكافر : « فاليوم أنساك كما نسيتنى » .

فمعرفة الله مركوزة فى النفس ، وإليه أشار بقوله تعالى : ﴿ **فطرة الله التى فطر الناس عليها** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة** ﴾[3] .

« فهذا القدر من المعرفة فى نفس كل أحد ، ويتنبه الغافل عنه إذا نُبه عليه فيعرفه كما يعرف أنه مساو لغيره ، فذلك الغير مساو له ، قال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون * ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون** ﴾[5] .

فهم يقرون بألوهيته ، ولكن بعضهم يشرك به مع علمه بأنه الله .

« وأما معرفة الله تعالى المكتسبة فمعرفة توحيده وصفاته ، وما يجب أن يثبت له من الصفات ، وما يجب أن يُنفى عنه ، وهذه المعرفة هى التى دعا الأنبياء عليهم السلام لها وحثوا عليها ، ولهذا قال كلهم : « قولوا : لا إله إلا الله » ولم يدع أحد إلى معرفته تعالى بل دعا إلى توحيده »[6] .

ولهذا قال تعالى – وهو يقيم عليهم الحجة – : ﴿ **أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ .

يقول الطبرى رحمه الله : « يقول تعالى ذكره : شهدنا عليكم أيها المقرون بأن الله ربكم كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، إنا كنا لا نعلم ذلك وكنا فى غفلة منه ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم اتبعنا مناهجهم

---

(١) الحشر : ١٩ .
(٢) الروم . ٣٠ .
(٣) البقرة : ١٣٨ .
(٤) لقمان : ٢٥ .
(٥) النحل : ٥٣ ، ٥٤
(٦) الراغب الأصفهانى : الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٠٠ .

عن جهل منا بالحق ، ويعنى بقوله ﴿ **بما فعل المبطلون** ﴾ بما فعل الذين أبطلوا فى دعواهم إلٰهاً غير الله ، وقوله ﴿ **كذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون** ﴾ يعنى لينزجروا ويرتدعوا فينيبوا إلى طاعتى ، ويتوبوا من شركهم وكفرهم فيرجعوا إلى الإيمان ، والإقرار بتوحيدى ، وإفراد الطاعة لى ، وترك عبادة ما سواى »(١) .

فالعباد مفطورون على التوحيد بحكم خلقهم ، وأن الله تعالى هو الذى فطرهم عليه ، فكأنه عز شأنه أقام عليهم الحجة بما فطرهم عليه من التوحيد ، وهو يدفع علتهم باتباع آبائهم ، ذلك لأن آباءهم مبطلون لعبادة التوحيد المناقضة لما فطر عليه الإنسان بموجب العهد والميثاق الذى أخذه عليه ربه ، وهو لا يزال فى عالم الدر ، والذى أقر به بنفسه أمام ربه على نفسه ، ولهذا قال ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » .

يقول ابن تيمية رحمه الله – كأنه يريد أن يبين أن لا حجة لهم فيما ذهبوا إليه –: « إن الفطرة الموجبة للإسلام كانت سابقة للتربية التى يحتجون بها ، وهذا يقتضى أن العقل الذى به يعرفون التوحيد حجة فى بطلان الشرك ، لا يحتاج ذلك إلى رسول ، فإنه جعل ما تقدم حجة عليهم بدون هذا »(٢) ولكن الله – مع هذا – لكونه رحيماً أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ومقيمين الحجة على الناس ، أى أنه مع كل هذا فإن الله الرحمن الرحيم ، الرءوف الغفور لا يعذب من ينكر ألوهيته ، ولا يقر بعبوديته ، إلا بعد أن يقيم عليه الحجة ، فيرسل رسولاً مبشراً برحمة ربه ، نذيراً لمن أبطل عبادته ، قال تعالى فى حق هؤلاء: الذين أنذروا ، فلم ينزجروا ﴿ **كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير** ﴾(٣) .

وهذا يبين كمال رحمته ، وإحسانه عز شأنه إلى خلقه .

وما جاء به الرسل من الحجة على الناس ، إنما هو متعلق العلم الضرورى الذى جاء به الوحى ، كالإيمان والعبادات ، وتزكية النفس ونحوه ، وبجانب العلم

---

(١) الطبرى : تفسيره ٩ / ٨١ ، ٨٢ .

(٢) ابن تيمية : تقريب درء تعارض النقل والعقل ، ص ٢٨٥

(٣) الملك : ٨ ، ٩ .

الضرورى ، العلم الاستدلالى ، ومعرفته عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه .

نعم العلم الاستدلالى أيضاً من فروض العبادات من حيث امتثال لأمر الله سبحانه بالنظر فى الكون والكشف والتدبر ، فى صنع ما اختص الإنسان بصنعه بأمر ربه ، بما يمكن الإنسان من الانتفاع بالطيبات من الرزق ، كذلك التمكن من الصنائع التى تعود على الناس جميعاً بالرخاء ، كذلك التمكن من إدارة المال وتدبيره فى مجال علوم الإدارة والتنمية والاقتصاد والسياسة ، ففيها جميعاً إدارة شئون العباد ، لما فيه خير المعاش والمعاد .

وليعلم الإنسان المسلم – قبل غيره – أن الله لم يخلقه ويضع فيه من المواهب والذكاء والقدرات من أجل أن يظل مثله كمثل أى مخلوق آخر فى هذا الكون ، ولكن من أجل أن يتحرك وينتج ويثمر ، ومن ثم كان على الإنسان أن يتعلم بقدر ما يستطيع جميع الحرف من أصغرها إلى أكبرها ، وهذا لا يتأتى إلا بالعلم الاستدلالى الذى يُهَيِّأ لنا .

وليعلم المسلم أن الدين ليس فى ارتياد المساجد فقط ، وأداء العبادات لوقتها على الوجه الأكمل فحسب ، ولكن الدين يكون بجانب ذلك « بالتمكين من الدنيا والاستكبار على دناياها » .

« املك أيها المسلم أكثر مما ملك قارون من المال ، وسيطر على أوسع مما بلغه مُلك سليمان ، واجعل ذلك فى يدك لتدعم به الحق حين يحتاج الحق إلى دعمك وتتركه لله فى ساعة فداء حين تحين المنية ، أما أن تعيش صعلوكاً حاسباً أن الصعلكة طريق الجنة فهذا جنون وفتون » .

و « إذا كان الإلحاد يفرض سلطانه بالتمكين فى الأرض ، فإن انصرافك عن التمكين فى الأرض فاحشة أشد من الزنا والربا »[1] .

أيها المسلم لماذا تترك أهل الضلال يتمكنون من أرضك ، وثرواتها ويعبثون بحريتك ، ويجيعونك ، ويفرضون عليك أن تعيش متعلقاً بذيولهم الدنسة .

---

(١) الشيخ محمد الغزالى : السنة السوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ص ١٣٨ ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ١٩٨٩ م .

لقد ملك أعداؤك الدنيا وتركوا الآخرة . ومع هذا فهم أفضل منك ؛ لأنك خسرت الدين والدنيا معاً .

كان أسلافك راسخي الإيمان ، راسخي العلم ، يملكون المال ويحسنون تدبيره ، وبالإيمان والعلم والمال سادوا ، أما أنت فقد ضاع منك كل شيء ، وصرت حائراً من أمر نفسك ، وما بقي لك من الإيمان ، بات منقوصاً لا يؤدى على الوجه الأكمل ، فضلاً عن أنه بات حبيس المساجد ، فلا يكاد يخرج إلى دور العلم والصناعة والتجارة والفلاحة والاقتصاد والأسواق .

أيها المسلم ذلك هو التوحيد :

إيمان بالله وإقرار بوحدانيته وألوهيته بلا شريك .

وعبادة تؤدى على الوجه الأكمل .

وخلافة فى الأرض وتمكن منها .

وإمساك بناصية العلم ، وكل وسائل مقاصد الحياة الدنيا .

أما ما ازدحمت به كتب الزهد والترغيب والترهيب ، لم يكن ليقف ضد التمكين فى الأرض بحيازة العلم والمال ، إنما قصد بها أصحابها فى المقام الأول أن تعظ هؤلاء الذين لا يرون المال إلا هدفاً وغاية ، أو لتعبر عن حالات نفسية لأناس زهدوا الدنيا ، وكانت زهادتهم لها طبعاً فيهم ؛ لأنهم اعتقدوا أن ذلك وحده هو ضمان الآخرة .

إن هؤلاء – مهما قيل فيهم وفى زهدهم – لم يكونوا أزهد من صحابة رسول الله ﷺ فى الدنيا ، وقد ملكوا أموالاً تضيق عنها الخزائن ، وكان منهم عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة ، رضوان الله عليهم جميعاً وكانت حيازتهم لهذا المال سبباً فى أن بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة ؛ لأنهم جمعوه بحقه وأنفقوه بحقه ، وتداولوه فى طرقه المشروعة ، وجعلوه أولاً وأخيراً فى خدمة الإسلام والمسلمين ، ولقد أعان الله تعالى المسلمين بمال عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فقد غزا المسلمون غزوة العُسرة بماله رضى الله عنه ، أعدها من ماله الخاص ، حتى قال رسول الله ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فإنى راض عنه » .

أيها المسلم إذا قصدت التوحيد قصداً فلتعلم :

أن تحصيل العلم واجب إن لم يكن فريضة .

وأن العمل بما حصل الإنسان من علم فريضة ، كوجوب أداء العبادات والجهاد فى سبيل الله ، وأن فى كل ذلك لله حق يجب على العبد مراعاته .

وأن المسلم مسئول بعلمه وعمله أمام مقاصده وغاياته الواجبة التحقيق ، فى كل مجال يمكّن الإنسان من حياة راشدة فى الدنيا ، إذ هى ذاتها المحققة لثواب الله ورضوانه فى الآخرة ، ذلك لأن المسلم – إنسان القرآن – قد حمل أمانة الاستخلاف فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾[1] أى مكنكم فيها بإعطائكم حق استعمارها ، وتسخيرها وما فيها ، والانتفاع بها وبما فيها ، إن « التعامل مع الأرض والكون كله باستخدام وسائل العلم ، ومستحدثات الكشف المشروعة للاستفادة من هذا الكون ، واجب شرعى ، وهدف رئيسى من أهداف الإسلام ، كذلك الأخذ بأسباب العلم والتبحر فيه وتسخيره لصالح المعاش والمعاد ، كل ذلك مما فرض الله على الإنسان ، ومما أوجبه الإسلام على المسلمين ، بحيث لا يجوز لهم أن يتأخروا فى هذا المجال ويتقدم سواهم » .

والتمكين فى الأرض له شروط لابد أن يعيها المسلم كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً** ﴾[2] .

وفى هذه الآية يستبين :

١ – أن الاستخلاف منحة إلٰهية مقررة للإنسان ليلى أمرها ويسخرها ويفيد منها .

٢ – شرط هذا الاستخلاف ، وهذا التمكين : الإيمان وعمل الصالحات الكلية .

٣ – التمكين فى الأرض لا يكون إلا بمنهج الإسلام ، وبه يسود وتكون له السيادة فى الأرض .

٤ – الإيمان والعمل الصالح لا يكفيان للسؤدد ، إلا بامتلاك وسائل العلم فى مجالات الصناعة والمال وحسن تدبيره ، وامتلاك القوة العسكرية الراقية ، وكلها وسائل

---

(١) هود : ٦١ (٢) النور : ٥٥ .

الهيمنة والسيادة ، ولن نسود إلا إذا ملكناها .

٥ - إذا ملكنا ذلك - بجانب الإيمان وعمل الصالحات - بدلنا الله سبحانه وتعالى من بعد خوف أمنا ، وجعل لنا التمكين فى الأرض والسيادة فيها .

هذا وبالله التوفيق.

ثبت المراجع

إبراهيم بيومي مدكور – ويوسف كرم :

١ – دروس فى تاريخ الفلسفة – مصر د . ت .

ابن الأنبارى : كمال الدين أبى البركات عبد الرحمن بن محمد :

٢ – الداعى إلى الإسلام – دراسة وتحقيق : سيد حسين باغجوان – دار البشائر الإسلامية – بيروت .
الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م .

ابن تيمية :

٣ – الإيمان .

٤ – تقريب درء تعارض العقل والنقل – إعداد : د . محمد السيد الجليند مراجعة : د . عبد الصبور شاهين .
منشورات الأهرام ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨ م .

٥ – الحسنة والسيئة – تحقيق حنان بنت على بن حافظ – الريان ١٩٨٨ .

٦ – الرسائل الكبرى – المطبعة الشرفية ١٣٢٣ هـ .

٧ – العبودية – تحقيق محمد حامد الفقى – مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٧ هـ .

٨ – موافقة صريح المنقول لصحيح المعقول – دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ .
– نسخة أخرى طبع المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٢ هـ .
على هامش منهاج السنة .

٩ – النبوات – نشر إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٦ هـ .

ابن الجوزى : أبو الفرج عبد الرحمن بن على :

١٠ - الموضوعات - ضبط وتقديم وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .
مكتبة ابن تيمية بالمدينة المنورة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد :

١١ - الرد على ابن التغريلة اليهودى ورسائل أخرى - تحقيق د . إحسان عباس دار العروبة بمصر سنة ١٣٩٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .

١٢ - الفصل فى الملل والأهواء والنحل - نشر مكتبة السلام - مصورة عن نسخة ١٣٤٨ هـ .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون :

١٣ - المقدمة - الطبعة الثالثة - المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٠ هـ .

ابن عبد البر : أبو يوسف بن عبد البر القرطبى :

١٤ - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله - المطبعة المنيرية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

ابن عطية : أبو محمد عبد الخالق :

١٥ - المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) - تحقيق أحمد صالح الملاح - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وزارة الأوقاف المصرية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

ابن قتيبة :

١٦ - كتاب المعارف - حققه وقدم له د . ثروت عكاشة .
الطبعة الثانية دار المعارف سنة ١٩٦٩ م .

ابن القيم : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر :

١٧ - الروح - مكتبة المتنبى بالقاهرة د . ت .

١٨ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة - اختصره محمد بن الموصلى .
طبع مصر ١٩٨١ م

١٩ – مدارج السالكين بين منازل ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ – مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٥ هـ – ١٩٥٦ م .

٢٠ – مفتاح دار السعادة – مطبعة الجمالى والخانجى سنة ١٣٢٣ هـ .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل :

٢١ – تفسير القرآن العظيم – مكتبة الدعوة الإسلامية ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م .

ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى :

٢٢ – سنن ابن ماجه – حققه محمد فؤاد عبد الباق – دار الحديث ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤ م .

ابن مسكويه : أحمد بن محمد بن يعقوب :

٢٣ – تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق – حققه وشرح غريبه ابن الخطيب – المكتبة المصرية ومطبعتها رمضان ١٣٩٨ هـ .

أبو الأعلى المودودى :

٢٤ – المصطلحات الأربعة – دار التراث العربى سنة ١٩٧٥ م .

أبو حيان التوحيدى :

٢٥ – الإشارات الإلهية – تحقيق عبد الرحمن بدوى – مطبعة جامعة القاهرة ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٠ م .

أبو داود السجستانى : أبو داود سليمان الأشعث بن إسحاق :

٢٦ – سنن أبى داود .

أبو الشيخ الأصفهانى :

٢٧ – الأمثال فى الحديث النبوى – الدار السلفية بالهند – الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م .

د . أحمد أبو زيد .

٢٨ – بحث : الرمز والأسطورة والبناء الاجتماعى – عالم الفكر الكويتية المجلد ١٦ العدد ١٣ – أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر ١٩٨٥ م .

أحمد بن حنبل :

٢٩ – المسند – وبهامشه كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال – المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ .

د . أحمد زكى :

٣٠ – بحث : الخلية الواحدة الصغرى التى بنى منها كل كائن حى – مجلة العربى الكويتية – العدد ١٨١ ديسمبر ١٩٧٣ م .

د . أحمد مهنا :

٣١ – الإنسان فى القرآن – مجمع البحوث الإسلامية – القاهرة ١٩٧١ م .

إخوان الصفا :

٣٢ – رسائل إخوان الصفا – مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٣١ هـ – ١٩١٣ م .

أرنولد توينبى :

٣٣ – تاريخ الحضارة الهلينية – ترجمة رمزى جرجس – الألف كتاب الأولى رقم ٤٥٨ ـ الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م .

إسحق اسيموف :

– الحقيقة والخيال – ترجمة محمد جمال الفندى ، وجابر عبد الحميد جابر – دار المعارف مع مؤسسة فرانكلين سنة ١٩٦٥ م .

د . أكرم ضياء العمرى :

٣٥ – دور التعليم الإسلامى فى حضارتنا – بحث منشور بمجلة الأمة – قطر – العدد ٣ السنة ١ ربيع الأول ١٤٠١ هـ .

د . أنور عبد العليم :

٣٦ – قصة التطور – سلسلة كتب ثقافية – وزارة الثقافة المصرية .

٣٧ – نشأة الحياة على الأرض .

٣٨ – تراث الإنسانية – المجلد الثانى – الجزء الثانى .

البخارى : محمد بن إسماعيل :

٣٩ – صحيح البخارى بشرح فتح البارى – المطبعة البهية المصرية لصاحبها عبد الرحمن محمد بميدان الجامع الأزهر سنة ١٣٤٨ هـ .

بيتر فارب :

٤٠ – بنو الإنسان – سلسلة عالم المعرفة رقم ٦٧ الكويت رمضان ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م .

الترمذى : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة :

٤١ – الجامع الصحيح – تحقيق : كمال يوسف الحوت ، وأحمد محمد شاكر – دار الحديث – القاهرة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م .

توماس كارليل :

٤٢ – الأبطال – تعريب محمد السباعى – نشر المكتبة التجارية – مصطفى محمد – الطبعة الثالثة ١٣٤٩ هـ – ١٩٣٠ م .

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر :

٤٣ – البيان والتبيين – عيسى البابى الحلبى سنة ١٣٣٢ هـ .

جاك مندلسون :

٤٤ – الرب والإله فى الأديان الإفريقية المعاصرة – ترجمة أسعد محمد – دار المعارف ١٩٧١ م .

الجرجانى : السيد الشريف على بن محمد :

٤٥ – التعريفات – مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٥٧ هـ – ١٩٣٨ م .

جمال الدين الأفغانى :

٤٦ – الأعمال الكاملة بتحقيق د . محمد عمارة – الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٦٨ م .

جورج سارتون :

٤٧ – تاريخ العلم – ترجمة لفيف من العلماء المصريين ، دار المعارف ١٩٧١ م .

جوردون راترى تايلور :

٤٨ – التاريخ الطبيعى للعقل – عرض وتعليق د . عبدالمحسن صالح – عالم الفكر الكويتية المجلد ١٣ العدد ٣ فى أكتوبر ونوفمبر وديسمبر سنة ١٩٨٢ م .

جوليان هكسلى :

٤٩ – الإنسان فى العالم الحديث – سلسلة الألف كتاب الأولى . د . ت .

جون لوك :

٥٠ – الحكومة المدنية – سلسلة اخترنا لك – وزارة الثقافة والإرشاد القومى – د . ت.

جون لويس :

٥١ – الإنسان ذلك الكائن الفريد – ترجمة د. صالح جواد الكاظم – سلسلة الألف كتاب الثانى رقم ١٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٦ م .

جيمس كونانت :

٥٢ – مواقف حاسمة فى تاريخ العلم – ترجمة د . أحمد زكى – دار المعارف ١٩٦٣م.

جيمس هنرى برستيد :

٥٣ – انتصار الحضارة – ترجمـة د . أحمد فخرى – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢ م .

٥٤ – فجر الضمير – ترجمة سليم حسن – مراجعة عمر الإسكندرانى وعلى أدهم – الألف كتاب الأولى رقم ١٠٨ .

د . حسان حتحوت :

٥٥ – بحث : مذكرات جنين – مجلة العربى – الكويت – العدد ٢٠٨ مارس ١٩٧٦ م .

د . حسين مروة :

٥٦ – النزعات المادية فى الفلسفة الإسلامية – دار الفارابى بيروت سنة ١٩٨٥ م .

الدارمى : عبد الله بن عبد الرحمن :

٥٧ – سنن الدارمى – حقق نصه فؤاد أحمد زمرلى ، وخالد السبع العلمى – دار الريان للتراث ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م . القاهرة .

الراغب الأصفهانى :

٥٨ – تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين – سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ٢٨ إبريل ١٩٦١ م .

٥٩ – الذريعة إلى مكارم الشريعة – تحقيق أبو اليزيد العجمى – نشر دارى : الصحوة والوفاء سنة ١٩٨٥ م .

روبرت أورنشتاين :

٦٠ – بحث : حول عالم النفس الأمريكى – نشر بمجلة الثقافة العالمية الكويتية العدد ٤٩ السنة ٩ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ – نوفمبر ١٩٨٩ م .

الزمخشرى : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر :

٦١ – تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل – مصطفى البابى الحلبى ١٣٦٧ هـ – ١٩٤٨ م .

ستفين روز – وليون كارمن – وريتشارد ليونتن :

٦٢ – علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية – عالم المعرفة – الكويت رقم ١٤٨ رمضان ١٤١٠ هـ – إبريل ١٩٩٠ م .

السخاوى : شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن :

٦٣ – المقاصد الحسنة – صححه وعلق حواشيه عبد الله محمد الصديق – قدمه وترجمه للمؤلف عبد الوهاب عبد اللطيف دار الكتب العلمية – بيروت –

الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

سليم حسن :

٦٤ - الأدب المصرى القديم - لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ م .

السيد بدوى :

٦٥ - أصل الأنواع لدارون .

٦٦ - تراث الإنسانية - المجلد الثانى الجزء ١٢ .

سيد قطب :

٦٧ - فى ظلال القرآن - عيسى الحلبى - الطبعة الأولى د . ت .

شارلز دارون :

٦٨ - أصل الأنواع - ترجمة إسماعيل مظهر - مراجعة د. عبد الحليم منتصر - المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر د . ت .

د . شوقى ضيف :

٦٩ - مع العقاد - سلسلة اقرأ - دار المعارف .

الشهرستانى :

٧٠ - الملل والنحل - على هامش الفصل لابن حزم - مطبعة السلام عن نسخة ١٣٤٨ هـ .

الطبرى : محمد بن جرير الطبرى :

٧١ - تفسير جامع البيان فى تأويل آى القرآن - بتحقيق محمود محمد شاكر - دار المعارف .

- نسخة أخرى من منشورات الريان .

٧٢ - تاريخ الرسل والملوك - دار المعارف - الطبعة الرابعة ١٩٧٩ م .

الطحاوى : أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى :

٧٣ - شرح العقيدة الطحاوية حققها جماعة من العلماء ، خرج أحاديثها محمد ناصر الألبانى - دار الفكر العربى د . ت .

عباس محمود العقاد :

٧٤ – إبراهيم أبو الأنبياء – دار الهلال . د . ت .

٧٥ – الإنسان فى القرآن – كتاب الهلال ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م .

٧٦ – الله – كتاب الهلال .

٧٧ – حقائق الإسلام وأباطيل خصومه – كتاب الهلال ١٩٦٥ م .

٧٨ – عبقرية محمد – سلسلة كتاب الهلال .

٧٩ – الفلسفة القرآنية – كتاب الهلال ١٩٧٠ م .

٨٠ – القرن العشرون ما كان وما سيكون – دار المعارف مع مؤسسة فرانكلين د . ت .

د . عبد المحسن صالح :

٨١ – بحث : سبحان الذى خلق الأزواج كلها – مجلة الوعى الإسلامى – الكويت عدد فبراير ١٩٧٩ م .

٨٢ – لغة الخلايا الجنسية – بحث منشور بمجلة العربى الكويتية ، العدد ٢٤٥ أبريل ١٩٧٩ م .

٨٣ – لماذا نموت – من سلسلة المكتبة الثقافية رقم ١٧٤ .

٨٤ – هل لك فى الكون نقيض – الهيئة العامة للتأليف والترجمة سنة ١٩٧٠ م .

د . عبد المنعم أبو بكر :

٨٥ – اخناتون – سلسلة المكتبة الثقافية .

عبد الله دراز :

٨٦ – الدين – دار الفكر العربى القاهرة د . ت .

عبد الوهاب عزام :

٨٧ – محمد إقبال – الألف كتاب الأولى رقم ٢٧٣ مايو ١٩٦٠ م .

د . عصام حمدى :

٨٨ – بحث : القرآن والإعجاز العلمى فى خلق الإنسان – مجلة الجهاد الليبية – العدد ٨٤ جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ – يناير ١٩٩٠ م .

د . على عبد الحليم محمود :

٨٩ – وسائل التربية عند الإخوان المسلمين – دار الوفاء – الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩ م .

د . على عبد الواحد وافى :

٩٠ – الطوطمية – دار المعارف – سلسلة اقرأ .

د . عمارة نجيب :

٩١ – الإنسان بين الأديان – مطبعة حسان القاهرة ١٩٧٥ م .

على القاضى :

٩٢ – الإنسان فى ميزان التربية الإسلامية – مجلة منار الإسلام – الإمارات السنة ٥ العدد ١ محرم ١٤٠٠ هـ .

غازى التوبة :

٩٣ – الفكر الإسلامى المعاصر – دراسة وتقويم – دار القلم بيروت – الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٧ م .

الغزالى : أبو حامد :

٩٤ – إحياء علوم الدين – تقديم بدوى طبانة – الحلبى ١٩٥٨ م .

٩٥ – إلجام العوام عن علم الكلام – ضمن كتاب القصور العوالى من رسائل الغزالى – مكتبة الجندى بالحسين . د . ت .

٩٦ – روضة الطالبين – ضمن الرسائل الفرائد ، مكتبة الجندى د . ت .

فخر الدين الرازى :

٩٧ – التفسير الكبير – المطبعة العامرة الشرفية – الطبعة الأولى ١٣٠٨ هـ .

د . فوزية رمضان أيوب :

٩٨ – علم الإنسان – الهيئة العامة لقصور الثقافة الجماهيرية – سلسلة مكتبة

الشباب رقم ١٥ لسنة ١٩٩٠ م .

القرطبى : أبو عبد الله محمد بن أحمد :

٩٩ – الجامع لأحكام القرآن – دار الشعب – القاهرة – ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م .

القشيرى : عبد الكريم القشيرى :

١٠٠ – تفسير لطائف الإشارات – تحقيق د . إبراهيم بسيونى – دار الكاتب العربى للطباعة والنشر – الطبعة الأولى د . ت .

د . كارم السيد غنيم :

١٠١ – نقد كتاب نظرية التطور عند مفكرى الإسلام دراسة مقارنة – مجلة المسلم المعاصر السنة ١٣ العدد ٥١ ، ٥٢ .

مالك بن بنى :

١٠٢ – الظاهرة القرآنية – ترجمة د . عبد الصبور شاهين – مطبعة العروبة – الطبعة الثالثة سنة ١٩٦١ م .

الماوردى : أبو الحسن البصرى :

١٠٣ – أدب الدنيا والدين .

محمد بن عبد الوهاب :

١٠٤ – كتاب التوحيد – نشر الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٣٨٤ هـ .

محمد أبو زهرة :

١٠٥ – العقيدة الإسلامية – نشر مجمع البحوث الإسلامية .

١٠٦ – المذاهب الإسلامية – دار الفكر العربى د . ت .

د . محمد جمال الفندى و د . محمد يوسف حسن :

١٠٧ – قصة الكون من السديم إلى الإنسان – كتاب الشعب سنة ١٩٦٨ م .

محمد رشيد رضا :

١٠٨ – تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) – دار المنار – الطبعة الثالثة ١٣٦٧ هـ .

محمد سعيد :

١٠٩ – مشكلة الجبر والاختيار ورأى ابن تيمية – ضمن مجموعات أبحاث أسبوع الفقة الإسلامى ومهرجان ابن تيمية – القاهرة ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٣ م .

محمد عبده :

١١٠ – تفسير جزء عم – الشعب .

١١١ – رسالة التوحيد – بتحقيق محمود أبى رية – دار المعارف ١٩٧١ م .

د . محمد عبد العزيز الجبالى :

١١٢ – الشخصانية الإسلامية – دار المعارف ١٩٨٣ م .

١١٣ – فى الإنسان – مجلة مجمع اللغة العربية فى دورتيها ٣٧ ، ٣٨ .

١١٤ – ما الإنسان – ضمن مجموعة دراسات فلسفية بإشراف د . إبراهيم بيومى مدكور – الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٤ م .

محمد على الصابونى :

١١٥ – صفوة التفاسير – دار القرآن – بيروت – ١٤٠٢ هـ – ١٩٨١ م .

محمد الغزالى :

١١٦ – السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث – دار الشروق – الطبعة الثانية سنة ١٩٨٩ م .

محمد نصر الدين الألبانى :

١١٧ – سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ فى الأمة – الطبعة الرابعة – المكتب الإسلامى ١٣٩٨ هـ .

محمود شلتوت :

١١٨ – الفتاوى – دار الشروق – الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٣ هـ .

محمود شكرى الألوسى :

١١٩ – روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى – المطبعة المنيرية د . ت.

مسلم : أبو الحسن مسلم بن الحجاج :

١٢٠ – صحيح مسلم بشرح النووى – المطبعة المصرية ومكتبتها . د . ت .

موريس بوكاى :

١٢١ - القرآن والتوراة والإنجيل والعلم - دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

ن - ك ساندرز :

١٢٢ - ملحمة جلجامش - ترجمة محمد نبيل نوفل - وفاروق حافظ القاضى - دار المعارف سنة ١٩٧٠ م .

نخبة من علماء العراق :

١٢٣ - موسوعة حضارة العراق - العراق ١٩٨٥ م .

النسائى : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب :

١٢٤ - سنن النسائى بشرح جلال الدين السيوطى وحاشية السندى دار الحديث - القاهرة ١٤٠٧ هـ .

هنرى برجسون :

١٢٥ - التطور الخالق - ترجمة محمود محمد قاسم - مراجعة نجيب بلدى - وزارة الثقافة والإرشاد القومى سنة ١٩٦٠ م .

١٢٦ - منبعا الأخلاق والدين - ترجمة سامى الدروبى - الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧١ م .

الفهـرس

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

رقم الإيداع : ١٩٩٢/٥٦٨٠م
I . S . B . N : 977-15 - 0071- 6

مطابع الوفاء ـ المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ – ص.ب : ٢٣٠
تلكس . ٢٤٠٠٤ DWFA UN

هذا الكتاب

* قضية خلق الإنسان من أهم القضايا التى طرحت من قبل الباحثين من الطبيعيين الذين بحثوا فى خلق الحياة على الأرض ، وفى خلق الإنسان عليها .

ولما كانت تصوراتهم لا يقبلها العقل السليم دون أن يتداعى إليه الشك، بل النقد ، فقد بين المؤلف قصة الخلق كما وردت فى كتاب الله، ذلك لأن الله هو الخالق الذى انفرد بالخلق .

وفى المقابل عرض المؤلف لفهم علماء الإسلام ، الذى جاء كلامهم فى الإنسان والتعريف به فى ضوء فهمهم لآيات القرآن الكريم ونصوص السنة الشريفة .

* ثم أوضح المؤلف الغاية التى من أجلها خلق الله الإنسان بيده ، وكيف أن الإنسان مقصود الخالق ـ جل شأنه ـ إلى خلافة الأرض وعمارتها ، وحمل الأمانة حتى يبلغ الإنسان كماله الدنيوى والأخروى .

* ولا يحقق الإنسان المسلم هذا المقصود إلا بفهمه لحقيقة العبودية التى أجملها المؤلف ـ بعد تفصيل ـ فى :

- إيمان بالله وإقرار بوحدانيته وألوهيته بلا شريك .
- وعبادة تؤدى على الوجه الأكمل .
- وخلافة فى الأرض وتمكن منها .
- وإمساك بناصية العلم ، وكل وسائل مقاصد الحياة الدنيا .
- ثم وجوب العمل بما حصل الإنسان من علم كوجوب أداء العبادات والجهاد في سبيل الله .

** ودار الوفاء تقدم هذا الكتاب لقرائها الأعزاء ، وتسأل الله أن ينفعهم بما فيه ، إنه على ما يشاء قدير .

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م
الإدارة والمطابع المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت ٣٤٢٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠
المكتبة . أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

تطلب جميع منشوراتنا من :

دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء
٤١ ش شريف ت ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٦٠٦